

كتاب الكلبين

بِقَلَمِ

«أردت به بيان شيء
من حكمة الله في شيء
من أغلاط الناس»
الرافعي

مصطفى صادق الرافعي

الطبعة الثانية

منقحة بزياداتٍ تبلغُ ربعَ الكتاب

في طبعته الأولى

—*—

الثمان ١٠

حقوق الطبع محفوظة

١٣٤٧ - ١٩٢٩

دار المنشور للطبع والنشر : شارع الخليل المصري بالقاهرة : بمصر

كتاب الكبين

بِقَلَمِ

«أردت به بيان شيء
من حكمة الله في شيء
من أغلاط الناس»
الرافعي

مصطفى شاذق الرافعي

الطبعة الثانية

منقحة بزياداتٍ تبلغُ ربعَ الكتاب
بُني في طبعته الأولى

—o—

الثمان ١٠

حقوق الطبع محفوظة

١٩٢٩ - ١٣٤٧

دار المنشور للطبع والنشر : شارع الخديج المصري بالقاهرة : مصر



جلالة مولانا الملك فؤاد الاول حرسه الله

رفع الكتاب

رفع الكتاب

الى تاج الشرق ، نصير العلوم والفنون والآداب ، حضرة
صاحب الجلالة مولانا الملك ﴿فؤاد﴾ حرسه الله
إِنْ وَحَىْ أَعْمَالِكَ الْعَظِيمَةِ يَا مَوْلَايَ قَدْ أَثْبَتَ لِلْعَالَمِ كَلَّهِ
أَنَّ النَّارِيخَ حَيٌّ فِي مَوَاهِبِكَ السَّامِيَةِ ؛ يُظْهِرُ بِهَا سِحْرَ مَعَانِيهِ
الْعَمِيقَةِ ، وَيُهْدِيْ فِيكَ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَحْجُودَةِ فَانُورْ
سَمُورَهَا وَتَحَوُّلَهَا.

مِنْ أَعْمَالِكَ عَرَفْنَا أَنَّ خَيْرَ مَلُوكِ النَّيْلِ مِنْ أَضَافٍ إِلَى خَصْبِ
هَذِهِ الْأَرْضِ خَصْبَ إِنْسَانِيَّتِهَا وَخَصْبَ تَارِيخِهَا ؛ فَعَرَفَ كَيْفَ
يَحْفَظُ لَهَا الطَّبِيعَ الْمُسْمِرَ ، وَكَيْفَ يُهَيِّئُ لَهَا الشَّعْبَ الْمَمْرَ ، وَكَيْفَ
يَخْرِجُ فِيهَا الزَّمَنَ الْمَمْرَ .

وَنَحْنُ إِذَا وَصَفْنَاكَ فَأَنَّمَا نَصِفُ الْحَقَائِقَ الْأَسَاسِيَةَ الْعَامِلَةَ
الَّتِي لَا يُؤْتِيهَا وَاهِبُهَا إِلَّا أَفْرَادًا قَلِيلًا مِنْ عِظَمَاءِ خَلْقِهِ ؛

يختارهم ليضع بهم معنى الخلود في بعض أعمال الانسانية الكبرى
وكما تتسع أمة كاملة في روحيتها بنبي كريم ، يتسع
شعب كامل في ذاتيته بملك عظيم مثلك يامولاي ؛ فما كدت
تلبس التاج حتى وضعت من مجموع مواهبك العظمى تاجاً آخر
على مجموع صفات الشعب ، فكنت نموّاً في نفسيته ترتفع به
بين كل حين وحين الى موضع في الحياة أعلى من موضع ، وكنت
بتدبيرك الموفق السعيد كأنك الجاذبية الزمنية بين حاضر
مصر ومستقبلها

فالى سُدَّتْكَ العالية أرفع هذا الكتاب الذى هو كتاب
الإيمان والخير والاحسان والرحمة ؛ فانى رأيت كل صفة من هذه
الصفات قد اتخذت منك مثلاً الأعلى وأحاطتك بجو قلبي
من شعبك الذى هو فى الأمم مثلاً الاجتماعى ؛ فنك لأمتك
العطف والرعاية وحسن التدبير وقوة الأمل فى عناية الله ؛
ومن الأمة لذاتك الكريمة عواطف الحب والاخلاص والشكر
والدعاء ؛ والله سبحانه وتعالى يجعل منك ومنها لمصر مجداً
وتوفيقاً ويُسِّرا وعناية

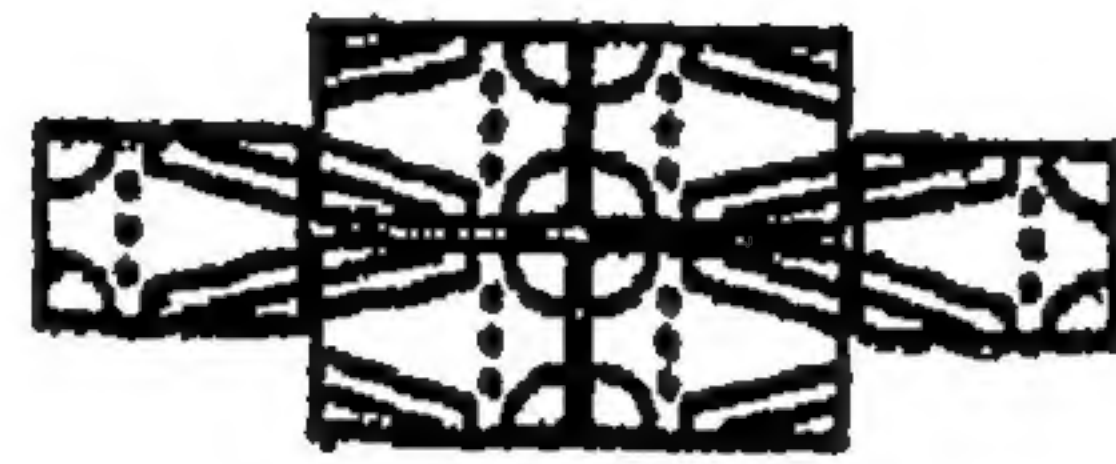
حفظك الله يامولاي لشعبك ومصرِكَ ، وأراك فى ولي
عهدِكَ بركاتِ عصرِكَ . آمين

الداعى لمولاه

مصطفى صادق الرافعى

الى صاحب « الساكنين : »
لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وهييجو
كما للفرنسيين هييجو ، وغوته كما للألمان غوته .

احمد زكى باشا



مؤلفات السائب	(فى الطبعة الثانية)
إعجاز القرآن (١)	حديث القمر
تاريخ آداب العرب	رسائل الأحرار
تحت راية القرآن	(فى فلسفة الجمال والحب)
(المعركة بين القديم والجديد)	السحاب الأحمر
ديوان الراقى « ثلاثة أجزاء »	« تكملة رسائل الأحرار »
ديوان النظرات	أوراق الورد
النشيد الوطنى المصرى وتاريخه	تكملة الرسائل والسحاب

(١) شرفه الله تعالى بأمر جلالة مولانا الملك « فؤاد » بطبعه الطبعة الثالثة
على نفقة جلالة الخاصة .

* صفحة *

من كمال النبوة وأخلاق سيد الخلق

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في »

« بعض دُعائه : اللهم أحيني مسكيناً وميتي »

« مسكيناً واحشُرني في زمرة المساكين . »

« فقال له أنس بن مالك رضي الله عنه : »

« يا رسول الله إنك لتسكّر من هذا الدعاء »

« قال يا أنس : إن رحمة الله لا تفارقهم »

« طرفة عين . (١) »

وخير عليه الصلاة والسلام أن يكون له مثل

.. أحد (٢) ذهباً فقال . لا يارب ، أجوع يوماً

فأدعوك وأشبع يوماً فأحمدك .

(١) ذلك بأنهم مادة الأخلاق والعواطف فهم في الانسانية كالجيش يقذف

به في المهالك لأنه وحده مادة النصر . وعلى هذا فمن رحمة الله بالناس أنهم

في الناس (٢) جبل بالمدينة .

* (صفحة من الغيب) *

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعتهُ الأولى ،
رأيت فيما يرى النائم أني في دار الطبع التي اخترتها له وقد سألتني
جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها ، فكتبتها ثمةً
ودفعتها إليه . ثم استيقظت وما برحتُ تدور على لساني ، وتالله
إن خَرَمْتُ^(١) منها حرفاً وهذه هي بنصها وكأنها

فأعز الكتاب من فلم الغيب :

« هذا كتاب المساكين . فمن لم يكن مسكيناً لا يقرؤه لأنه »
« لا يفهمه (٢) . ومن كان مسكيناً فحسبي به قارئاً والسلام »

« الرافعي » . .



(١) أي ما نقصت (٢) قل أن يوجد في أهل الفهم رجل واحد
لا تفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين .

* (صفحة من الحكمة) *

قال الفيلسوف ديوجينيس السكابي وهو ذاك الذي رآه الاسكندر
الكبير فقال فيه « لولم أكن الاسكندر لوددت ان اكون ديوجينيس » :
ينبغي أن تُقدَّر ثروة الانسان لا بأمواله ومُسْتَعْلَاَتِهِ
بل بعدد الاشياء التي يستطيع أن يعيش غير محتاج اليها (١)

OS8820

- (١) يريد الفيلسوف أن ما نملكه في الحقيقة هو ما نملك أن نستغنى
عنه لان ما نحتاج إليه يصرفنا في وجوهه وأسبابه فهو يملكنا مصلحا إن قل
وهو فساداً أن كثر؛ وعلى أيهما فهو شاغل عن الانصراف الى سواه بالانصراف
إليه . وحكمة الفيلسوف تنظر الى القول المأثور : القناعة كنز

ومن بديع قول هذا الحكيم : يكون الاسد حبيسا في قفصه ولكن
الحبس لن يجعله عبدا لمن يطعمه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

وضعتُ هذا الكتابَ من إحدى عشرة سنةً ولو استوى
له أحدَ عشرَ قرنًا ثم كُتبتُ له يومئذٍ مقدمةً لكان هو هو
كما أصفه اليوم، كتابٌ ليس له قبلٌ وليس له بعدٌ؛ فهو دائرٌ
مع النهار والليل على معنى آخره في الإنسانية أوله. معني إذا قلتُ
فيه إنه يجيء مع كل مولود فقد قلتُ إنه لا يموت مع أحدٍ
من الموتى.

ستقرأ في الكتاب وصفَ « الشيخ علي » الذي أسندتُ إليه
الكلامَ وجعلته فيما أستوحيه كالخيط من شعاع السماء تهبطُ
عليه تلك المعاني التي خلدَ عليها جمالُ الخلدِ؛ « فالشيخ علي » هذا هو
رمزٌ في كل دهر لثبات الجوهر الإنساني على تحول الأزمنة في
أشكالها المختلفة؛ ومن ثمَّ تعيش مع الإنسانية معاني هذا الكتاب
فهو من روحها صورةٌ وحسيةٌ وجاذبيةٌ؛ ومن عجيب الحكمة أنه
ما من نبي أو حكيم أو شاعرٍ يترجم إلى لسان الحياة ما هو أسمى
من الحياة إلا استمدَّ ذلك من مساكن الحياة خاصة. هم أبدأ

السحابة المستوية المُنخيلة لمطر العواطف^(١) على جذب الروح
الانسانية في الارض ولعلمهم لذلك يترآكون في الحياة من سوادٍ كالغمام،
ويتشققون من نارٍ كالبروق، ويجلسون برعودٍ يثنون فيها،
ويتبجسون^(٢) بمطرٍ سيكون به.

وأعجب من ذلك أنك لا تجد من شيء يحدث من ذى
نفسه^(٣) مثل هذا الاثر، إلا أجمل الجمال في أقوى الحب، فكان
أعظم البؤس وأعظم الجمال صورتان لحكمة إلهية واحدة وإن
اختلف منظره ومنظره، والسماء تهب بلون التراب في رأي العين
حين لا تحمل الا ماء المزن الصافي

يزعمون أننا في عصر العلم وفي دهر القانون ويريدون أن
يسلبوا الناس إيمانهم كأن الايمان هو مشكلة الانسانية مع أنه
لا حل لمشكلتها إلا به، إن مسألة الغنى والفقر وما كان من بابهما
لا يحاها العلم ولا القانون إذ هي من مواد القضاء والقدر في إنشاء
الآلام والاحزان وأضدادها التي تقابها، ومادام فوق الانسانية
من السماء قوة لا تحد، وتحت الانسانية من القبر هوة لا تسد،

(١) الممتلئة التي يؤمل فيها المطر (٢) جالجلة الرعد دويه . وتبجس

الماء تفجره واستعماله في المطر هنا مبالغة في انتزاع الوصف (٣) يقال فعل
كذا من ذى نفسه ومن ذات نفسه أى طعماً لا تكافاً

فلا نظام الا على تصريف النفس أمراً ونهياً وتأويل الحياة معنى
وغاية ، فإن لم يكن الشأن في ذلك مقررأ في الغريزة على جهة
الإيمان فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس الا ثورة بما
في باطنها ، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب
منه وهو مضطر اليه أو كالمضطر اليه وهو هارب منه ، وكل من
كل في معنى من معاني النفس لا انسانية فيه .

مازاد العلماء على أن خلقوا في ساعدى الحياة هذه العضلة
البخارية وذلك العصب السكربائي فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة
الحياة المدنية بعدة من قوة وعناد من المال طاحت به فدكتته ذلك
الخسف ووضعته من الناس موضع الحبة من الرحى الدائرة فمايدنه
وين أن ينهار موضع يستمسك عاياه ، وانما هذا الموضع هو ايمان
المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يسعد أو يبر بما كتب عاياه
أن يرق لهم من ذات نفسه ويتحسنى ويتوجع

ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة في
مادتها وإنسانيتها لم تجر الانسانية الا على ناموس بقاء الأصلاح في
الجهتين . فاذا تخلى بها العلم وحده فلن تجرى أبدا الا على ناموس
بقاء الأصاح في ظاهرها لايجاد الأفسد في باطنها

لن يفلح الانسان للحياة الطيبة - مادام بهذا التركيب الذى
لن يتغير - الا اذا وازن بين يئشته التى هو يوجسها وبين طباعه التى

هي تُوجَّهه فقيِّداً شَيْئاً في قيودها وأطلق أشياء من قيودها وجمع في مُتَبَوِّاً نفسه حدّاً بحريّة وديننا بعلم. يبدَأ أن طغيان العلم في هذه المدنية قد مرَدَّ على طباع^(١) الانسان وشمائله في كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدين فاذا هو يزين الشهوات واذا الشهوات تُطَوِّعُ المغامرة واذا المغامرة تجلب المنازعة واذا المنازعة تدفع الى الحرص واذا الحرص يُتَصَرَّفُ بالحيلة واذا الحيلة تهلك التقوى وكان في تقوى الانسان ايمانه وكان في ايمانه رحمته وكان في رحمته الأثيرُ الانساني الذي تعيش فيه الروح . وعلى ذلك يقع في الانسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم ، فاذا هو منحدرٌ الى السقوط مقبلٌ على المحقِّ راجع الى الحيوانية باكثر مما يحتمل تركيبه منها أو لا يرى الناس أن تفوق أمةٍ على أمةٍ لم يعد في هذه المدنية الا معنى من معاني القدرة على أكلها ؟

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الانسان آلة من آلاته التي غمَرَ بها الدنيا فأصبح من لا ايمان له يتعسفُ خسائسه^(٢) لا يدرى أين يومٌ منها وأين يقف ، فلا يتسفل بقوة انسان ولا بضراوة وحشٍ ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقّتها

(١) أي من عليها واستمر وبلغ بها الغاية التي تخرجها من جملة ما عليه

الطبع الانساني الكريم

(٢) يتخبط فيها على غير هدى

وسرعتها وإتقانها حتى لأرديلة من ردائل هذه المدنية إلا هي
مُفَنِّنةٌ في تركيب على نسق الأمور المخترعة ، وكأن الآلات
العمياء ما زادت أنسائها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى
وكان المدنية الملهدة ماعدت أن جمعت الوحشية تعمل أعمالها
الفظيعة بتأنق وعمد

نسى الناس الإيمان أو انسلخوا منه فاذا أيديهم تموج
بأسباب الفضائل ^(١) لا تحيكمها ولا تضبطها وما كان الإيمان
الصحيح إلا التقوى ^(٢) ولا كانت هذه التقوى إلا عملاً من أعمال
الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا في الإنسان بالأسلوب الذي
لا تخاف الغريزة العملية في النفس إلا به وعلى النحو الذي لا تصلح
في الحياة إلا عاينه .

(١) ماجت اليد بالتىء إذا اضطربت به كأن أيديهم
لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها .

(٢) الإسلام كله في كلمة التقوى كما بدناه مفصلاً في كتابنا (إيجاز
القرآن) فاطره . وكلمه التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد
قال (هكسلى) قسم دارون الشهير — : « إن الدين هو اجلال المتل
الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة » . وكل هذا من
قول أستاذ القرن التاسع عشر . وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء وكل ما جاء
وما سيحيى هو من معانى (التقوى) في الإسلام لا يصيق الكلمة عن شيء منه

أظهر آثار الإيمان ^(١) تحديد الغايات الانسانية وتنسيقها والملاءمة بينها ، فان اطلاق الغاية لكل انسان على شأنه وسيله كيف درّت معيشتُه ^(٢) وكيف دارت أهواؤه — يجعل طرُق الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل في وجه سبيل ، فلا تُحل عقدة الامن حيث تُقرض أختها ولا يتخاص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة الا فاطعاً متقطعاً معاً ، وأنت اذا بحثت عن الوحدة التي تحاول ضمّ الانسانية المتنافرة وردّها الى مرجع واحد لم تجدّها في غير ايمان المؤمنين ، فهو أبداً يقابل في كل نفس ما تطغى به الحياة على أهلها ، ولا عمل له الا أن يحذف الزيادات الضارّة بالانسان من بيئته وباليئة من انسانها وهو بهذا حائل في كل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلي فتعود من أسباب الدناءة والخسة

وانما محلّ الإيمان من أهله فوق محل الحكومة ممن يحكمهم فهو الامر والنهي باغة الدم والعصب ، وهذه الغايات التي تتألف من أجلها الحكومات كأمن الناس ونظامهم وحرّيتهم وسعادتهم هي أنفسها محكومة بمسائل تأتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم ، فان لم تكن في النفوس

(١) سأتيك فيما تقرأ من الكتاب كلام كثير عن الإيمان وفلسفته

(٢) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو .

من الدين أصولٌ تأمرُ وتحكم ، وفي الطباع من اليقين أصولٌ تستجيبُ وتخضع ، رجعت الحكومة في الناس أداةً مسلطةً لا تغني كبرَ غنَاءٍ في الخير والشر . اذ يحتاج الخير أبداً الى قوتها تحميه ويحتاج الشر أبداً على قوتها تستنقذه ، ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه اليها شرٌّ ، ومتى لم يكفِ الشر عن القوة فاحتياله عليها شرٌّ مثله ؛ فاذا تضعضت من الاديان هذه الدعائم الراسية وفرط من الانسانية هذا الفارط الذي ليس في الارض كفاءٌ منه — لم تجد حسنةً في حكومة من الحكومات الا معها من طبيعتها سيئةٌ ، ولم تجد سيئةً الا هي سيئتان ، فان تكون الحياة حينئذٍ الاتعقيداً أشدَّ التعقيد من طغيان القادرين عايتها بالمال والغنى ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة

والغنى القادر على متسع الحياة ولذاتها هو دائماً في فاسفة العاجز قادرٌ بلا قدرة ، كما أن الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجزٌ بلا عجز ، ولا أدلَّ على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التي تشبه أن تكون هي أيضاً معنى بلا معنى ... وهي الحظ . فلا بد للناس من الحدود التي تبني بين كل ضدين من أحوال الانسانية جداراً يعطف نفساً على نفس بالرحمة ، ويردُّ قوةً عن قوة بالصبر ، ويكفُّ عاديةً عن عادية بالتمسوى ، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب في الجماعات المتصادمة ليُسَـقِرَّ كلَّ

مُضْطَرِبٍ فِي حَيْزٍ إِنْ لَمْ يُمْ سِكَهْ فَيُثَبِتَ فِيهِ لَمْ يُفْلِتْهُ فَيَمْدُو
علي سواه .

فاذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود وتركت قوة
الايجاب في طبيعة الحياة بغير قوة سلبية من الايمان في طبيعة
النفس ، كشفت للانسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهواته
فزادتها رسوخا فيه كما تقول للص : انك لتسرق وستصبح غنيا
تمر يدك في الذهب تنفق تستمتع على ماتشهي فما يراك
قلت له لا تكن اصمًا و كَمَفَّفٌ بل قلت له كن غنيا واستمتع .
ويومئذ يغرب البؤس ويقشع الفقر كما نرى لعهدنا في الامم التي فشا
الإلحاد فيها ، فليس من بعد إلا أن يتحول الفقر عن صورته
البيضاء في سكب الدمع إلى صورته الحمراء في سفك الدم وكان
سؤاله فيعود اغتصابا وكان الأسفل فيرجع الأعلى وكان يفرضه
الحق فاذا هو الحق نفسه . والله لكان المسكين في هذه المدنية
هو الجزء اللئيم الذي طرده الغنى من نفسه وتبرا منه وأمات ما بينه
وبينه ، فاذا هما اعترضا في مذهب من مذاهب الحياة . نفر الغنى
كأنما يرى قبره يدنو منه وأطبق عليه البأس بمعاني النعمة واللعنة
يقول له ما أنا الا اؤمك أنت .

إن من الشجر شجرة تنبت في القفر تعتصر ماءها من بين رمل
وحجر وتمتص غذاءها من اؤم الجذب ، فاذا حان أن يزهر عودها

شَوْكٌ فَلَا يَكُونُ فِي عُقْدِهِ وَتَبْرُهُ،^(١) الْأَشْوَكُ شَوْكٌ، فَإِذَا
ازْدَرَعُوها فِي الْخِصْبِ وَخَضَّلَهَا الْمَاءُ^(٢) وَسَاغَتْ لَهَا الطَّبِيعَةُ ثُمَّ
حَانَ أَنْ يَزْهَرَ عَوْدُهَا مَلَّسَةً كَرَمُ الْأَرْضِ^(٣) فَإِذَا فِي مَوْضِعِ
كُلِّ شَوْكَةٍ زَهْرَةٌ كَأَنَّهَا كَلِمَةُ الْحَمْدِ، وَكَذَلِكَ مَثَلُ الْفَقِيرِ بَيْنَ
الْمُلُوحِدِ وَالْمُؤْمِنِ .

تُرى أَيْخَرَجُ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مِنْ عَصْرِ الْعَقْلِ إِلَى عَصْرِ
الْقَلْبِ : أَمْ هُوَ مُنْحَدِرٌ مِنْ عَصْرِ عَقْلِهِ إِلَى عَصْرِ مَعْدَتِهِ ثُمَّ إِلَى^(٤)
وَكَانَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ أَغْنِيَاءُ مُؤْمِنُونَ فِيهِمْ مِنْ كَرَمِ الْحَسَنِ
شَبَّهَ الْفَقْرَ، وَمَسَاكِينَ مُؤْمِنُونَ لَهُمْ مِنْ كَرَمِ الصَّبْرِ شَبَّهَ الْغَنَى، فَهَلْ
تَنْقَلِبُ الْمَدِينَةُ مِنَ الْغَنَى إِلَى الْفَقْرِ وَالْمَحْضِ إِلَى مَادَّةِ تَخْلُقُ اللَّحْمَ
الْحَيَّ وَأُخْرَى لَا تَخْلُقُ لَهُ إِلَّا الظُّفْرَ الْحَيَّ . . . ؟

وَكَانَ اخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِ فِي الْمَادَّةِ الْجَامِدَةِ، اقْتِرَاهُ بِحَيٍّ يَوْمٌ
عَلَى النَّاسِ يَكُونُ أَعْظَمُ اخْتِرَاعٍ فِيهِ لِلْإِنْسَانِ الْآخِرِ أَنْ يَعِيدَ إِلَى
الْأَرْضِ إِنْسَانَهَا الْأَوَّلَ الْكَرِيمَ ؟

مُصْطَفَى شَادِقُ الرَّافِعِي

(١) السبر النتوء الذي في العود (٢) بله الماء

(٣) نعمته وأدبجته وأزالته نسوءه (٤) تحت المعدة الأمعاء

مقدمة الطبعة الاولى

هذا كتابٌ حاولت أن أكسو الفقرَ من صفحاته مَرَقَعَةً
جديده . . . فقد والله بليت أنوابُ هذا الفقر وإنها لتسدِلُ
على أركانه مِرْقًا متهدِّلةً ^(١) يمشى بعضها في بعض ، وانه
كَيْلَفُهَا ^(٢) بخيوطٍ من الدمع ويمسكها برقع من الالكباد ويشدّها
بالقطع المتنافرة من حسرةٍ الى أملٍ وأمل الى خيبةٍ وخبيةٍ الى
هم ؛ وأقبحُ من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينةٌ
الا من أوجاع الانسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها
غابت في جماجم الموتى ^(٣) الا ولين

وأنتَ فربما رأيتَ الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا
مَسْحَةُ الدينار ، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوانُ الجنة
والنار . . . ، ^(٤) وماتشك في أنه واسع البسطة عريضُ النعمة
طَيِّبُ المكسِيبَةِ ، وهو على ذلك رقعةٌ خَلَقَ ^(٥) في أذيال الفقر
يجرّها على أقدار الحياة وأدناسها ولو نطق له الغنى لقال دعني

(١) أى قطع مسترخية (٢) لفق الثوب ضم شقة منه الى شقة (٣) أى
الافكار الساقطة مما هو مبعث الجريمة والرديلة (٤) كناية عن الاعمال
التي تؤدى اليهما معا (٥) بالية والكامة للمؤنث والمذكر

فما كلُّ ذى مَشْرَبَةٍ فقيرٌ ولا كلُّ ذى مَشْرَاقٍ غنيٌّ^(١) والفضائل قائمةٌ في الدنيا بالصغار والفقراء ولكن من نَكَد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم ، على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم في كل أمة الا الطبقة المنحطة انحطاطاً .. عالياً .. فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حصروه من جهاته الارضية وقد تَرَامَتْ ، وَضَيَّقُوا من حدوده السماوية وقد تَرَا حَبَتْ^(٢) وانما هو طبقة معنوية فوق الأرض وانما هو أسلوبٌ خاص في نظام الكون ولا سبيل الى التنقيح والتحرير في أساليب الله نصْرِفُها عن معانيها أو نتكذَّب في تأويلها أو نردُّ عليها ما ليس منها ، وانما الشأْنُ كُلُّهُ أن نحسِّن الفهمَ عن أوضاع القدرة الالهية بمقدار مانستئين فيها من الحكمة فان في ذلك صلاحَ أنفسنا ، وما جعل الله سبيلَ المصلحة والمفسدة الا من أفهامنا حتى إن الأدمغة لتعْدُّ من أكبر العلل في أمراض التاريخ الانساني: وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورةً أثريةً لأَكْبَرِ رأس فيها . فان نحن أسأنا الفهم أو ذهبنا به المذاهب أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيرنا

(١) المثرة ما يكون سبباً لتكثير المال

(٢) ترامت وتراحبت بمعنى اتسعت

أو بدّلنا فذلك واقعٌ بنا لا يُعْذَرُنا وما يستولي على الكون من
جهلنا اضطرابٌ ولا تاحقٌ به آفةٌ في وضع من أوضاعه وإن الله
لا يظلم الناس شيئاً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون .

ومادام في هذه الدنيا شيء من المادة أو المعاني يُحتاج إليه أو
يتوهم أحد أنه محتاج إليه ففي الدنيا الفقر .

ومادام للناس رغبةٌ يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها
بالمنافسة فتشمّ الحسد . ومادام في الغيب أيامٌ وآمالٌ وفي الدنيا
فقرٌ وحسدٌ فهناك الطمع

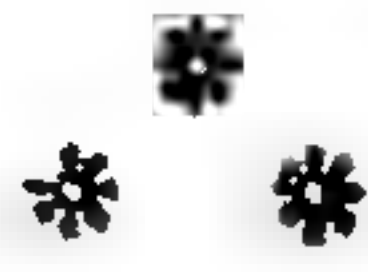
ومادام لهؤلاء الناس من أشياءهم ما تحملهم أخلاقهم على
الضنّ به أو يكون سبيله من الطبيعة أن يُضنّ به ؛ وفيهم
الفقر والحسد والطمع فتشمّ خبءُ السوء والذيلة الماحقة وثمّ البخل .
وإن البخل وحده لفي حاجة إلى نبي يُصاحبه .

هذه أخلاق أعرفت فيها الإنسانية ولا بد منها ومن فروعها
حتى يظلّ الناس ناساً لا ملائكة ولا شياطينَ فإنّ من عجيب
حكمة الله أنه لا صلاحَ للعالم إلا بالفساد الذي فيه

يُنْدَ أن في كل شرجة من الخير أوجهٌ تتصل بالخير فإذا صلح
فهمه صلح هو أيضاً أو كما أنه صلح لظهور حكمته والوقوف به عند حد
الشر الطبيعي وهو الشر الذي لا بد منه .

فإيكن الفقرُ والحسدُ والطمعُ والبخلُ، ولكن برضاً يمنعُ

السخط وسكون يكسر شرقة النفس ورفق لا يعنف على الحق واعتدال يقهر كل شيء على حده (١) يومئذ يجد الانسان في كل نزوة من نزوات جنونه شيئاً من الحكمة ، أو على الأقل شيئاً يمكن من بعض الوجوه أن يسمى في باب المنفعة الانسانية حكمة .



ولقد كان الفقر غريزاً يوم كان آدم في الأرض وليس عليه الا ما خصف من ورق الجنة (٢) . وعاش دهرًا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرح في ثياب بيضاء من أشعة القمرين إذ لم يكن يعرفه أحد بعد ولا استطار به سماع السوء (٣) في الأحياء ، بل كان عنصراً مجهولاً في غيب الطبيعة . ولم يكن لهذا الانسان يومئذ من المعاني الفقرية . . . غير شعور طبيعي لازيغ في تأويله عن الطبيعة وهو شعور المعدة القوية المعصوبة التي لا تحتمل الشعر والخيال وفنون الكذب العقلي ولا تشعر الا لتطلب ولا تطاب الا ما تبجد ، ومتى وجدت وانطفأ نهمها (٤) فليس

(١) عندنا ان الفضائل شهوات محدودة والذائل شهوات مطلقة وان

السعادة الممكنة ان تجعل كل شيء في حده

(٢) خصف الورق على بدنه ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة

(٣) أي الذكر بالسوء (٤) النهم إفراط الشهوة في الطعام

الاقوة الجسم وانبساط النفس وحمد الله في كل ضرب من ضروب
الجمال في الخليقة .

ثم كانت عداوة ابني آدم إذ قرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، وَفُتِحَتِ الصَّفْحَةُ الْأُولَى مِنْ تَارِيخِ الدَّمِ
الانسانى فى الأرض فكان البغض أول سطورها . وجاء من بعده
الفقر وخطَّت بعد ذلك سطورهُ وسطور كلها يلتقي إلى هذين
المعنيين . يومئذ عرفَ هذا الفقرُ وأصبح يتلبس فى كل
إنسان بمعنى يُلاءمه إذ لم تعد الحياة هى الحياة ، بل الوسائل التى
يُدْفَع بها الموت ومنها الموت نفسه ، فصار البغضُ وسيلةً ، والحسدُ
وسيلةً ، والطمع وسيلةً ، والقتل وسيلةً ، وكل ذلك لأن الانسان فقير
بمعنى من معانى الفقر ، وما البغضُ الا فقرٌ من المحبة ولا الحسدُ
الا فقرٌ من الثقة ، ولا الطمعُ الا فقرٌ من العقل .

وإن أردت العجبَ فاعجبْ لهذه الطباع الإنسانية إذ
يُحَاوِلُ كُلُّ امْرِئٍ أَنْ لَا يَفْهَمَ مِنْ مَعْنَى الْفَقْرِ إِلَّا مَا يُمْكِنُ أَنْ
يُجَرِّبَهُ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً حَتَّى لَا يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ الْمُبْتَسَلِ فِي نَفْسِهِ
الْمُتَحَسِّنَ فِي سَعَادَتِهِ ، وَحَتَّى يَجِدَ مَادَّةَ الْعِزَاءِ مِنْ حَيْثُ التَّمَسُّهَا .
فالفقر على ذلك هو العَوَزُ إِلَى الْمَالِ ، وَهَذِهِ بَالِيَةٌ عَلَيْهَا يَحْيَا النَّاسُ
وَعَلَيْهَا يَمُوتُونَ . وَلَقَدْ كَانَ الْفَقْرُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْمَالُ ثُمَّ وَجَدَ الْمَالُ
فَمَا مَنَعَ أَنْ يُلْقَى أَهْلُهُ الْأَغْنِيَاءُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَبِأُسَاءِ الْحَيَاةِ

مالوا استطاعوا لاقتدوا من عذابه بكل ما في أيديهم ولو أن لهم
طِلاعَ الأرضِ ^(١) ذهباً . ووُجد المال فما مَنَعَ الفقراءَ أن
يُخَوِّكهم الله من رحمته التي لا تفارقهم طرفة عينٍ ما لا يحبون
أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلها . ^(٢)

دخل بعضُ الفقراءِ ^(٣) على الرشيد العباسي وتأجبه يومئذ
سبيكةُ العصر الذهبي في تاريخ الإسلام ، والإسلام يومئذ
ترتجف به درفتاً الشرق والغرب وكان الشمس والقمر
يتلآن على أرجاء ماسكه ذهباً وفضة ، ^(٤) وكانت في يد الرشيد
كأسُ ماء وقد رفعها إلى فمه فلما أبصر ذلك الملك الذي لا يملكه
شيء أمسك ثم قال له عظمي . قال أرايتَ يا أمير المؤمنين لو
منعتُ عنك هذه الشربة التي في يدك أفكنت نطابها بكل

(١) أي ملء الأرض

(٢) كانت معدة مورغان الأمريكي صاحب الملايين الكثيرة ضعيفة
فجعل مائة ألف جنيه لمن يشفيها ورأى الأطباء أن ينتزعوها ويبدلوه منها
معدة كلب فخشي الهلاك وأبى . فمعدة الرجل الفقير هي في جوفه أئمن من
مائة مليون جنيه في يد ذلك المسكين وهي الكنز لا هذا المال الذي لا يشترى معدة

(٣) هم الصوفية وأحب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة

(٤) رأى الرشيد يوماً سحابة تمر في السماء فقال أمطري حيث شئت

فسيانيني خراجك

ملكك؟ قال نعم . قال أفرايت لو شربتها ثم امتنع خروجها منك أكنت تفتدى من عاقبة ذلك بكل ما سلكك؟ قال نعم . قال الرجل الصالح فانظريا أمير المؤمنين ما قيمة ملك لا يساوى عند قدر الله شربة ولا . . . ولا بولة !

كذلك يحاول الناس أن لا يخطئوا الرأي فيما يستحبونه أو يطمئنون به . وكأنهم لذلك يحاولون أن لا يصيبوا الحق فيما يكرهونه أو ينفرون منه ؛ فكأنهم سواء في ابتغاء السعادة المتوهمة التي لا يستحيل أن تتفق . ولكنها مع ذلك لا تتفق إذ يريدونها كل أمرىء على غير ما يناسب تكوينه الانسانى . . . وهم بعد على سواء من خشية الفقر كأن فقرهم بين أعينهم فلا تبرح أوهامهم تتنجس^(١) بمعانيه وهمومه ثم لا تبرح تنمي بها حتى صار الفقر في أنفسهم غير الفقر في نفسه ، وقد علم الله أنه مأمّن إنسان إلا وفي تكوينه معان كثيرة منه . على أن السعادة الممكنة أو التي يمكن أن نسمى سعادة إنما يكون زمامها الحس إذ هو الوسيلة لإدراك الجمال و تعرف المواضع المعنوية في المادة والاهتداء في صنع الله الى أسرار

(١) أى تتناجس ويقال فلان فقره بين عينيه اذا كان دائما يخشاه فلا

يقنع ولا يهنأ وهو ألام الفقر وكثيرا ما يكون فى ألام الاغنياء . .

الحكمة ، وليس من لذةٍ يصيبها الانسانُ فيسميها لذةً الا وهي
شيءٌ معنويٌّ يجيء من طريق الحسِّ فيشعر هذا الانسانُ أن فيه
معنى لم يكن فيه ، وكأن اتصال شيء من سرِّ النفس أو قدرتها
بشيء من سر الطبيعة أو قدرتها هو السعادة .

غير أن العجيب الذي ما يُقضى منه عجباً أن ذلك الحسُّ
كلما تضرَّج واستمر^(١) كان أشدَّ إدراكاً للآلام منه للذات
حتى إن الرجل الرقيقَ ليتألم للناس أكثر مما يتألم لنفسه ؛ فهل
ذلك الا أن حكمة الله قد أقرَّت في تركيب الانسان من عناصر
الفقر أكثر مما وضعت فيه من عناصر الغنى ؟

وما أشبه نفوس الناس في هذه الحياة بالزجاج ساطع عليه
نور الشمس ، فما كان من طبعه رديئاً غير مصقول أو مهملاً قد
شاع فيه الصداً فذاك متى ألحَّت عليه وقدة الجوّ حيمي
وآخَرَّم في ذات نفسه ؛ وما كان من طبعه صافى الماء بادی
الروث نقى الصفحة رأيت في توقده واضطرابه كأنما يمتج
من شعاع الشمس لهباً يتطاير . فإن كانت الزجاجة قد أخاِصت
في سبكها وصنعت على الوجه الذي يجمع الضوء ويعكس منه
وأحكمت من هذه الناحية ؛ فهناك تبلغ من دقة الحسِّ مبلغ

(١) استمر الأمر أي انقاد والمعنى الحس الكامل المطاوع

الأَنْفُسِ الرَّقِيقَةِ الْمَهْذَّبَةِ ، فَلَا تَكْدُ تُرْسِلُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ
نُورِهَا حَتَّى يَرْجِعَ فِيهَا نَارًا تَأْظِي .

وَمَتَى اعْتَبَرْنَا الشَّقَاءَ الْإِنْسَانِي وَمَا يَعْتَرِضُ الْإِنْسَانَ فِي
طَرِيقِ الْحَيَاةِ رَأَيْنَا الْحَقَّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ
حِينَ تَمْشِي رَاحَتَهُ إِلَى الْقَبْرِ (١) لَا يَكُونُ قَدِ انْتَهَى مِنَ الْحَيَاةِ
كَمَا يُقَالُ ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَهِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمَوْتِ .

فَهَذَا التَّرَكِيبُ الْإِنْسَانِي الْعَجْزُ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرُهُ وَجَمَاتُهُ عَلَى
السُّوَيَّةِ ، وَالَّذِي اسْتَشْرَفَ مِنْهُ الْعَقْلُ لَا سِرَّارَ هَذَا الْعَالَمِ كَمَا
تَوَجَّهَ مِرَآةُ الْمَرْصَدِ إِلَى السَّمَاءِ — لَمْ يَشْهَدْ عَصْرَهُ مِنْ
عُصُورِ الدُّنْيَا قَطُّ إِلَّا ذَاهِبًا إِلَى الْفَنَاءِ بِمَا كَسَبَ وَمَا كَتَبَ حَتَّى
لِيُمْكِنَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ حَيَاةَ الْحَيِّ مُصِيبَةٌ تَكْبُرُ كَمَا كَبُرَ...
فَكَيْفَ لَعَمْرِي يَحْتَمِلُ هَذَا تَرْكِيبُ الْهَالِكِ أَنْ يَسْعَدَ إِلَّا بِمُقَدَّارٍ
مَا يُدْنِي إِلَى الْفَهْمِ مَعْنَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ،
كَمَا تَرِيدُ أَنْ تُفْهَمَ الطِّفْلُ شَيْئًا فِي نَفْسِكَ فَيَرَاهُ مَعْنَى مُتَمَرِّدًا
عَانِيًا ، فَلَا تَزَالُ أَنْتِ تُصَغَّرُ مِنْهُ وَتَسْخِهُ وَتُحِيلُهُ عَنْ وَضْعِهِ
وَتَقَابِهُ عَلَى وَجْهِهِ مُخْتَلَفَةٍ إِلَى أَنْ تَوَافِقَ صُورَةً مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ
فَهَمَّهُ الصَّغِيرَ الْخَفِيفَ الْمُتَحَامِلَ عَلَى نَفْسِهِ فَيَدْرِكُ الْوَجْهَ الَّذِي

(١) كِنَايَةٌ عَنِ الْجُنَازَةِ وَيُقَالُ مِنَ الْجَزَارِ مَشَتْ رَوَاحِلُهُ إِذَا شَابَ
وَضَعُفَ ، وَلَكِنَّا اسْتَعْمَلْنَاهَا كَمَا تَرَى فَأَصَابَتْ حَقَّهَا .

أردت على الوجه الذى يُريد هو ويعلم ما ترمى اليه على الطريقة
التي لاتعلمها أنت . واعلم هذا هو السببُ في أن الفطرة
الانسانية لاتزال من أول الدهر ضالّةً في طلب السعادة
تسترحلُ (١) اليها كلّ معنى ثم لاتصل اليها بمعنى ، فان
السعادة الدنيوية في التركيب الانساني انما هي بمقدار لغوى أو
ما يشبه ائقدار الغوى لا غير . (٢)

واذا نحن اعتبرنا هذا الوجود الفانى بما وراءه من عالم
الغيب رأينا كل صنفٍ من الموجودات كأنه لغةٌ متميزةٌ
بخصائصها أوجدها الله في هذا الحياذ اندلعا به سبحانه بنوع من
الدلالة أو ضربٍ من الجاز ، فأينما مدّ الانسانُ عينيه رأى
لفظاً كالإشارة أو إشارة كاللفظ . ولكن قنل الانسانُ
ما كفره . فإن ما لا يريد أن يفهمه ليدكره ويتذكر به أكثر
مما يفهمه اينساده . وافد رأى أن مافوق الأرض وما تحت السماء
لا بدُّ له بإشارة واحدة على أنه خالدا في هذه الحياة الدنيا .

بيد أن الانسان كما يكذب في الكلام يكذب في الفهم فهو

(١) أى بركب ونمجد كل معنى راحلة وظهرا والكلام استعارة .

(٢) سبأنى في الكتاب رأى (الشيخ على) في السعادة . وفي كتبنا

(حديث القمر ، ورسائل الأحرار ، والسحاب الأحمر) من ذلك أشياء كثيرة

أبدًا يحتاج (لشِقْوَتِهِ) من هذه الطبيعة إلى أشياء تُضِلُّ عواطفه
كما يحتاج إلى أشياء تُهْدِيها ، ومن ههنا اقتحمت أهواؤه
ونزغاته على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان والتبست في رأيه
معاني الأشياء التي تتصل بنفسه ، فظهر من الغنى ما يشبه الفقر
ومن الفقر ما يشبه الغنى . وصارت الحياة كلها جهادًا وشقاءً ونصبًا
لأنَّ المشكل فيها أكثر من الواضح ، ولأنَّ الطريقة التي يتبعها
الإنسان الراقى . . . في حل هذه المشكلات التي تعترض مطامعه
وأغراضه هي أن يحلَّ مسألة بوضع مسألة مثلاً . . . ذلك لأنه
لا يهتدى إلى السكّال في شيء ، وهو ناقص ولا يُدْ عن أنه ناقص ؛
والإفهام باله يرى الحكمة الأزلية قد جعات قوام صحته على
القليل من الطعام دون الكثير ، وعلى الخفيف دون الثقيل ، وعلى
الرخيص دون الغالي ، وعلى الطعام كما يُفِيد ، دون الطعام كما يريد .
ثم هو بأبي إلا أن يعدَّ هذه الصفات وأشباهاها في باب القيامة
من الفقر ، ويعتبر تقاؤها وما جرى مجراها في باب الكثرة من
الغنى . ثم يضرب الله على بصره ويَطْبَعُ على قلبه فلا يرى لحاجته
في الغنى من بلاء وسبب إلا أن يكون المبالغة في الادِّخار ،
والإفراق في الجمع ، والطِّمَاح كلَّ مَطْمَح ، وأنَّ يستأكل
الناس فيكون عليهم أكاب^(١) من الجوع ، ويستصفيتهم

(١) كلب الجوع سعاره وشدته . واستأكل الناس إذا أكل من أموالهم

فيكونَ فيهم أسرعَ من المرضِ، وَيَسْتَزِلُّهُمْ فيكونَ معهم أشبهَ
بالرذيلةِ ؛ ونحن نعرف الكدَّ والحرصَ والبخلَ والشرَّ
والضَّرَاوَةَ وكلَّ الرذائلِ الاجتماعيةِ ونصفُها ونحدُّها بآثارها
وحقائقها وكأَنَّنا لا نعرف أن كل رذيلة هي إنسانٌ من الناس .
وفدراؤنا الحكومات تجمع الأنواع من الجماد والنبات والحيوان
تؤلفُ منها الكتب الحية على نسقِ الطبيعة نفسها وهي تلك
التي يسمونها « المعارض » و « المتاحف » ، ولم نر حكومة
واحدة أقامت معرضاً حيوانياً لأشخاص الرذائل يُدرَسُ فيه
علمُ المقابلة بين الطباع في الإنسان وبين الغرائز في الحيوان ،
وعلمُ الانحطاط الاجتماعيِّ وفنُّ الطبقات السفلى من الحياة ،
وَتُؤخَذُ منه أمثلةُ الاعتبار والموعظة والنصيحة في أبواب
مختلفة ، ولو قد فعلت ذلك أمةٌ من الأمم لرأى الناسُ فيما يرون
هناك من كبار الاصوص وأهل الإثم والشر والنساذ عدداً كبيراً
من كبار . . من كبار الأغنياء . . . ، ثم لرأوا كيف يتصل
تاريخُ الطمع بتاريخ البخل وكيف يتصلُ هذا بتاريخ الفنى ، ولظهر
لهم بطلانُ معاني كثيرة مما يعمده الناسُ في باب الحقائق إذ
لا تجد الرذيلةَ هناك من يكابر فيها أو يُغرُّ بها أو يناديُ ضلُّ عنها
ولا صاحبها نفسه لأنه في قفص من أقفاص المعرض ... وكأنه
شمةٌ معني من الباطل محبوسٌ في شكلٍ من البرهان على فسادهِ .

وليت شعري - وذلك معنى الغنى - هل يظن من اجتمعت
له نفقة ألف سنة أنه سينال فيما بقي من عمره القصير لذة كلذة
عيشه ألف سنة ، وأنه إذا ادخر ما يقوم بمائة ألف إنسان فقد
صار هو في الارض مائة ألف بطن . . . ؟ إن حياة الغنى على هذا
الوجه لا تكون الا مونا على طريقة الحياة . . . فليس الا براف
في جمع المال والكاب عليه الا طريقة دنيئة لا تنفق العمر ،
وليس حب المال والبخل به الا وجهاً من بغض الناس وازدراؤهم ،
وانما البخل في رأى أهله وسياسة الغنى وسنة القريب وهو
مهما احتجوا له وتمحوا فيه وناضوا عليه ليس أكثر من كونه
شعورا ذا جهتين : فأما من جهة البخل فهو الحب للنفس لا غير ،
وأما من جهة النفس فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل .

ولأى سر على الناس أن يرتووا من رشح الحجر ويغتذوا
بابن الطائر (١) من أن يجدوا في الرجل البخل بغضا لىء من
المال يرضخ به محبة لهم وشفقة عليهم وحنانا من لدنه . وقديما
كان للبخل أبغض الناس لهم وأبغضهم اليهم وأبغضهم فيهم ، وما
أقبح هذا البخل - أخزاه الله - أن يكون بغضا ثلاث مرات .
ولو أن رجلا من هؤلاء الذين بسط الله لهم فقبضوا
وحاد عليهم فبخلوا وأعطاهم فأمسكوا - قد أراد الله به خيرا

فَوَقَّاهُ شُحَّ نَفْسِهِ وَيَسَّرَ لَهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَمَكَّنَ لَهُ فِي بَابِ الْبَذْلِ وَالْجُودِ وَأَتَاهُ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ بَعْضَ مَا ابْتَلَاهُ مِنْ حُبِّ الْمَالِ ؛
لَرَأَيْتَ حَيَاتَهُ تَوْسِيعَةً عَلَى قَوْمٍ فِي مَعَاشِهِمْ وَإِحْيَاءً لِقَوْمٍ فِي
أَمَالِهِمْ وَعَتَادًا لِقَوْمٍ فِي أَعْمَالِهِمْ وَمَنْفَعَةً لآخِرِينَ مِنْ وَجْهِهِ
كَثِيرَةٌ ، وَلَرَأَيْتَ فِي غِنَاهُ بَرَكَاتَ الْعَدْلِ وَرَحْمَةَ الْأَمْنِ
وَعِصْمَةَ الْخُلُودِ فَكَأَنَّهُ اسْتَجْمَعَ فِي حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ خَيْرَاتِ
الْأَعْمَارِ الْكَثِيرَةِ وَكَأَنَّهُ أُمَّةٌ فِي نَفْسِهِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ رَجُلٌ
أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ وَلَا أَجْدَرَ بِطَبِيعَةِ الْحُبِّ الْإِنْسَانِي مِنْهُ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ
اسْمَهُ إِلَّا فِي وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلَاثٍ : أَمَا صَفْحَةٌ تَكْتُبُهَا الْأَعْمَالُ
لِلتَّارِيخِ ، أَوْ صَفْحَةٌ يَفْرِدُهَا النَّاسُ لِلْأَخْلَاقِ ، أَوْ صَفْحَةٌ تَرْفَعُهَا
الْمَلَائِكَةُ إِلَى اللَّهِ .
بَلْ أَحْرَبَ بِهَذَا الْأَسْمِ الْكَرِيمِ أَنْ
يَكُونَ يَوْمَئِذٍ بِأَعْمَالِهِ وَأَثَارِهِ وَحَسَنَاتِهِ اسْمًا لِكِتَابِ ضَخْمٍ فِي أَيْدِي
مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ



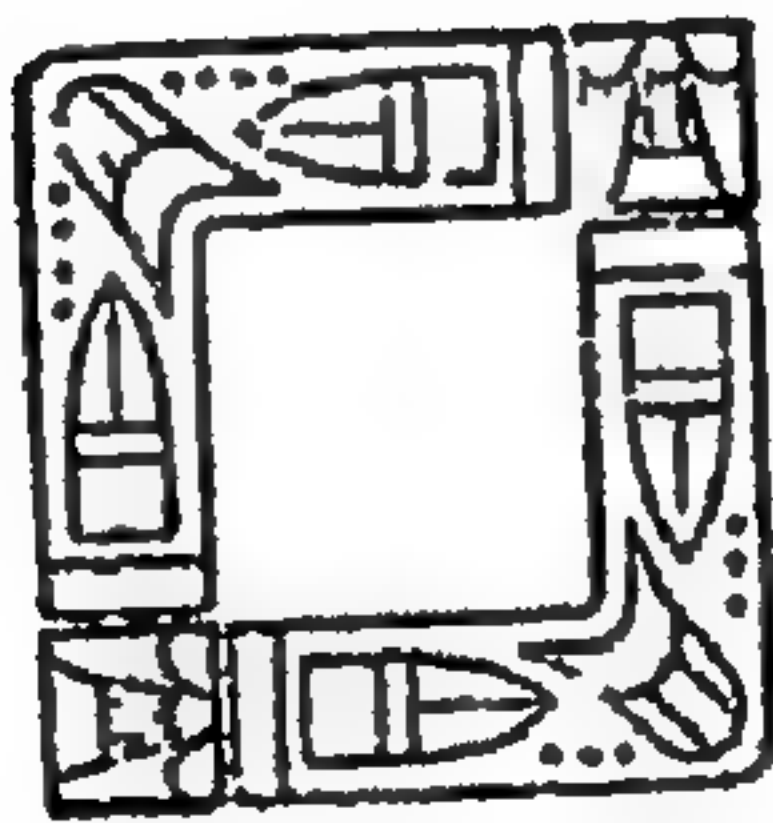
فَهَذِهِ آثَارُ كَرَمِ النَّفْسِ الطَّيِّبَةِ لَا تَنْشَأُ إِلَّا بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحُبِّ :
حُبِّ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ لِلنَّاسِ وَحُبِّ النَّاسِ لِهَذَا الرَّجُلِ الْكَرِيمِ ،
لَا هُوَ يَمُطِّأُهُمْ حَقًّا عَلَيْهِ وَلَا هُمْ يَظَاهَوْنَهُ حَقًّا لَهُ ، وَلَعُمْرِي
كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْمَطْلُ أَوْ يَسْتَطِيعُونَ وَالَّذِينَ الَّذِي وَجِبَ عَلَى
الْفَرِيقَيْنِ هُوَ دِينُ الْقَابِ ؟

ولقد تكلمت السماءُ في أزمان مختلفة وهبطَ الخطابُ
من عرش الله على لسان الأنبياء صلواتُ الله عليهم . وما من
نبي مرسلٍ الا وأنت واجدٌ في كلامه وشريعته أن تحبَّ للناس
ما تحب لنفسك . فهذا الحب الانساني محضٌ من نصيحة
السماء ولا بدُّع أن يكون فيه بعضُ الدواء لآلام الانسانية
الضعيفة إن لم يكن هو الدواء كله .

انظر بعيشك ما عسى أن تكون آلامُ الفقر الا صوراً من
اضطراب النفوس إذ ينصرفُ بعضها عن بعض وذلك أيسرُ
البغض ، أو ينازعُ بعضها بعضاً وذلك سببُ البغض ، أو يكيدُ
بعضها لبعض وذلك عينُ البغض ؟

من أجل هذا كان البخيلُ مادةً من مواد الفقر وإن كان
هو في ذات نفسه معنى من معاني الغنى . واقد بعبابُ الناسُ
بالوانٍ من العذاب ويمةَ جنونٍ بضروبٍ من المكروه ، وترسلُ
عليهم الآفاتُ تحتاجهم من ههنا وههنا ، غير أنهم يجدون لكل
مصيبة محلاً من الصبر يُسكنونها فيه فتجئُ وحدها وتذهبُ
وحدها وانما هي الغمراتُ ثم ينجأين فانَّ من رحمة الله أن لا يزالَ
الليلُ والنهارُ يترأ كضأن بيننا وبين النسيان كما يترأ كضُ البريدُ ،
فيذهبان بشكوى المصيبة ويرجعان من النسيان بالسكوى أو العزاء أو
نحو ذلك ، ولكن الطائفة من الناس اذا ابتليت بالغنى البخيل ابتليت

منه بالمصيبة التي تأكل المصائب إذ يرون فيه أشياء من معاني القسحط والجذب والوباء والفقر والعداوة والبغضاء وطرفاً من كل جائحة ومعنى من كل آفة بحيث تضيق به جوانب الصبر على سعتها وانفساحها وتنزوي دونه فتختاط كل مصيبة بكل مصيبة، وليس يأتي على هذا الانسان شيء (١) كتداخل مصائبه بعضها في بعض فاز ذلك يمحق الصبر ويذهب بالسكينة ويفسد الرأي ويفتق على العزم من كل ناحية فتقاً ويترك المرء كأنه مجنون بذىء أكبر من الجنون .
فالغنى البخيل من ذلك كله بل هو ذاك كله



(١) أي ليس يهلكه من قولهم أتى عليه الدهر إذا أهلكه

﴿ غرض الكتاب ﴾

(وأما بعدُ) فإني قد وضعتُ هذه الأوراقَ وكتبتُ فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر لا لمحوهِ ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاءِ عنه . ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه لا رغبةً في إفساده على أهله ولكن لإصلاح ما يفتهم منه غيرُ أهله ، وأدّرتُ الكلامَ في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعرُ في ضحكِ الطبيعة ورقَّتِها دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوفُ في عبوسِ المادة وجفافها ، ونحوْتُ به نسقَ العقل في بثِّ خواطره للنفس لا أني أريد به النفسَ في مستقرها ، وجئتُ به من مبرِّقِ الصبح لا من غياهِبِ الليل ، وأدّاعته من أفق الإيمان لا من قرارة الشك ، وأردتُ به تفسيرَ شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ، فإن من ضرائب اللؤم وغرائز السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفكُّ يحمل نعمَ الله ورحمته ومالا حدَّ له من العناية الإلهية . ولكن كما يحمل الطاووسُ ألوانه ويُحاسِنُ سینه وزينتَه البديعةَ على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب

ولست أدّعي أن كتابي هذا يسـ من من شـبـع أو يغنى من جوع فإن هذه العلوم كلها ومجموعة العقول البشرية وتاريخ ما شاء

الله من عمران الأرض لا يتبهاً للانسان أن يعجنها ولو أفرغت
عابها السماء كل مافي سحائبها ، ولا يأتي له أن يخبز منها رغيفاً
واحداً ولو حماته الملائكة ليضعه بيده في عين الشمس ، ولا يخرج
منها غذاء المعدن الا اذا خرج الحبر الأسود من عرق الزنج ..
ولكني أرمي بالسكتاب الى عزة النفس والى الثقة بالله والى
الصبر على الفضيلة فان الناس من الثمر بحيث لا يعان على الفضائل
الا من صبر لها صبر المبتلى ؛ ثم الى مغالبة الوهم التاريخي القديم
الذى نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر ، وأنت لو انتزعت
الأنبياء والحكماء وأهل العزائم من مجموع هذا الخلق لرأيت التاريخ
الانسانى كله فى ذينك المعنيين باباً واحداً من الخطأ . فاقعدوا الله
بالغ الناس فى اعتبار هذين الحجرين (١) وأسرفوا على أنفسهم فى
محبتهم والكدر فى طابهما بأخلاق وشيم ليس لأكثرها موضع
فى الانسان ولا يتسع لها عمره القصير ، وإن هى الا من كلب
الحيوانية فيه بل هى تطوّر فاسد فى أخلاقه التاريخية ، فقد
كانت الجماعة الأولى ننازع الحيوان وتتعاون عابيه وكانت الحيوانية
قبلاً والانسان قبلاً آخر ؛ وغبرت الانسانية على ذلك دهرأ
ثم انفرعت وانشقت وتراامت على أقطار الدنيا فصار اكل
أرض إنسانها وبقي الحيوان كله قبلاً واحدا . ومن ثم

(١) أى الذهب والفضة وقد سميا كذلك فى الحديث الشريف

ظهر أثر الإنسان على الإنسان وأخذت تلك الحيوانات العاقلة
تتلى تاريخ الأرض في الأرض غير مهذب ولا منقح . بل أصواتاً
تتعاوى ^(١) ويومئذ كان عمل الفرد الواحد للقبيلة كلها لأنه
في الاجتماع بقبيلته لا بنفسه ، وكان الفرد في عهد الجماعة إنما يقاتل
على الرزق فأصبح في عهد القبيلة يقاتل على الطماح اليه والاستكثار
منه ولم يكن في تاريخه ما يقذع هذا الطماح أو يكفئه أو يرد فيه ردّاً
فاستترس إلى ونشأ من ذلك في نفسه معنى الجمع والادّخار
وأن يمهّد ^(٢) لغيره من بعده

ثم استفاض الدهر بحوادثه وعصوره وقامت الممالك واستجمعت
الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع ويتتابع ويتلون
في تاريخ طويل ليس كتابنا بصدد ^(٣) — حتى عاد ذلك القتال
الأول فرقاً ثم رقّ إلى أن صار قتالاً في الأسواق بين جماعات
الدراهم والدنانير، وكان النزاع بين فرد وفرد وبين قوة وقوة فارتقى
وتهذب حتى رجع إلى أن صار نزاعاً بين خالق وخالق وبين حيلة وحيلة،

- (١) من ههنا تعرف أن كل تطور في المدينيات هو فاسد إن لم يكن
في أصوله المعاني المؤمنة مما أومأنا إليه في مقدمة هذه الطبعة الثانية
(٢) بمعنى يكسب وما هم الدنيا إلا من أن كل واحد يجمع لجماعة
(٣) على هذا التاريخ تقوم فلسفة علم الاجتماع ولبس من غرض
كتابنا هذا

وبعد أن كان السيدان في رُقعة هذه الأرض ، صغر شيئاً فشيئاً
أو كبر شيئاً فشيئاً حتى أصبح في رُقعة الضمير

فلإنسان المتمدن هو هو ذلك الإنسان المتوحش في عمله
لقبيلة إذ يكبر السكونوز ويعقد العقدة^(١) ويرتبط الأموال
غير أنه قد حصر معنى القبيلة في نفسه هو ومن تلزمه نفقته من
أهله وولده فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته، وجمع كثيراً وأنفق
ثم فضّل عنه كثيراً فإن هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته
الإنسانية وأبناء أبيه الأول من الفقراء والمساكين فذلك الجمع
فساداً طبيعياً وتزيد في أخلاق الحياة لا تبعث عليه الحاجة ولا تحمله
الحاجة التي بعثت عليه . ومن هنا خرج مافى لغات الناس من الذم
الأخلاق^(٢) الذي هو في الحقيقة هجاء الطبيعة بعقولها وشرائعها
وأديانها لا كثر الناس

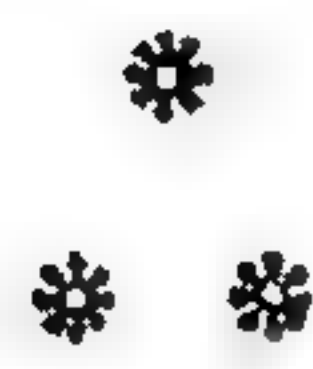
فلرجل يزعم أنه يجد ويدّخر ويحزم ويترقى ، والحقيقة
تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهلٌ

(١) هي ما يتعلق به الإنسان من أرض وعقار

(٢) يظن بعضهم أن هذه النسبة خطأ وأن صوابها الخلق على القاعدة
المعروفة من النسبة إلى المفرد ولكن ذلك الصواب هو الخطأ بعد أن صارت
لفظة (الأخلاق) اسماً للعلم المعروف « علم الأخلاق » . فالنسبة هنا تجري
بجري قولهم « أنصاري » إذ كان هذا الجمع « الأنصار » من الشهرة كلاس مفرد

ويخلُّ وطمع وتُسفل. ومن أجل هذا صارت الانسانية لا تتقدم
خطوةً الا وقفت زمناً تلهث وتسترِّح مما بها لكثرة ما تحمل
من الصناديق والخزائن الثقيلة

فحسبكم أيها الناس . أنظروا الى تركيب الكون واعتبروا
سُننَ الأقدار في إدارته من أحقر ما فيه الى أعظم ما فيه ، فانكم
لا تجدون معاني الغنى الصحيح الذي لا فقر له الا في الأجسام
والعقول والأَنْفُس ولن تجدوا معنى واحداً خلق في صندوق أو
خزانة ...



وقد وضعتُ كتابي للمساكين وأسندتُ الكلام فيه
الى (الشيخ علي) وهو رجل ستعرف من خبره الذي
أقصُّ عليك أنه الجبلُ المتمردُ الباذخُ الأشمُّ في هذه الانسانية
المسكينة التي يتخبطها الفقرُ من أذاه وجنونه ومسهه .
وأنا أرجو أن ينزلَ هذا الكتاب من قلوب المساكين
منزلاً حسناً وأن يتصلَ بأنفسهم الضعيفة ويفضُّ اليهم بدته
ويفضُّوا اليه ، فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروةً نافعةً
لا تنيهاً في معاملة الزمن .

مصطفى صادق الرافعي

الفصل الأول

﴿ الشيخ علي ^(١) ﴾

هو رجلٌ تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة ، وكان ينبغي أن لا يقوم مثله على مسرح الخلق إلا تمثلاً وأن لا يمثل إلا الوجه المطلق من الحياة بعد أن استقصى الفلاسفة إلى تمثيله كل ذريعة فلم يستو لهم أن يمرؤا فيه ، وقصّر بهم التكلف ، وقطعتهم دونه تلك الفلسفة التي سمّاهم عاينه — فخاضق الرجلُ شيطاً مـزوّزاً راميّاً بصدره ونحّره معتزلاً في زمام القدر كأنه صورة الفكر الذي يمثله وكأنه أسلوب قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة .

وأحسب أنه في نظره إلى الخلق يتوهم أنه راحة خرج من بعض الأفلاك التي تعرف (بالعقول العشرة ^(٢)) فهبط من أشعته

(١) هذا الرجل من قرية يقال لها منيت حناج من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية وقد توفي في سنة ١٩١٩ ، ولما وضعنا كتاب « السحاب الأحمر » في سنة ١٩٢٤ جعلنا فيه فصلاً على لسان الشيخ علي وسنالحقه بهذه الطبعة من « المساكين » (٢) من وساوس الفلاسفة اليونانية القديمة انهم يجعلون الافلاك عشرة ويسمون كلامها عقلا وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الانساني من تحتها كلها . . .

على الدنيا ، فهذا العالم شيءٌ جديدٌ في نفسه وهو شيءٌ جديدٌ في العالم . ينظرُ اليك كما تنظرُ اليه فأنت تَتَبَيَّنُ في سَحْنَتِهِ (١) الوَاضِحَةِ أَوْ صَافِ الْجَنُونِ الْهَادِي وَتَعْجَبُ مِنْ مَنَظَرِ تِلْكَ الْعَاصِفَةِ النَّائِمَةِ فِي عَيْنِهِ ، وَهُوَ يَسْتَجِيبُ لِي مِنْكَ مَعْنَى الْغَرَابَةِ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ إِذَا أَنْشَأَكَ مِثَالًا غَيْرَ مَفْهُومٍ ، وَيُطِيلُ عَجِبَهُ مِنْكَ أَنَّكَ عَلَى مَا فِيكَ تَتَعْجَبُ مِنْهُ فَكُلُّ رَجُلٍ فِي رَأْيِهِ إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنَ الرَّجُلِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَمْ تُتَزَوَّرْ فِيهِ حِرْفَةُ الْعِيشِ وَمَطَالِبُ الْحَيَاةِ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ . وَالْكُلُّ أَمْرِيءُ سَوَالٍ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ السَّمَاءِ . فَرَجُلٌ يَقُولُ : اللَّهُمَّ هَذِهِ الْقُوَّةُ فَأَيْنَ الرِّزْقُ ؟ وَآخَرُ يَقُولُ وَهَذَا الرِّزْقُ فَأَيْنَ الْقُوَّةُ ؟ وَثَالِثٌ يَصِيحُ هَذِهِ الْعَافِيَةُ وَهَذَا الرِّزْقُ فَأَيْنَ السَّعَادَةُ ؟ وَالشَّيْخُ عَلَى كَأَنَّهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّمَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَّا حَشَاشَةٌ تُسَوَّقُ بِنَفْسِهَا (٢) وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ صُورَةٌ مُقَاوِدَةٌ فَأَيْنَ الْأَصْلُ ؟

لَمَّا وُلِدَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَعَلَّ الطَّبِيعَةَ يَوْمئِذٍ كَانَتْ فِي صَمِيمِ الْخَرِيفِ ، ثَائِرَةً مَجْرُودَةً ذَبْرَاءَ (٢) قَامَتْ أُمُّهُ عَنْ نَجْمٍ مَنْطَفِيٍّ لَا تَعْرِفُهُ الْأَرْضُ وَقَدْ زَهَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ فَكَانَ رَضِيعًا ثُمَّ

(١) أَيْ هَيْئَتِهِ (٢) يُقَالُ رَأَيْتُهُ يَسُوقُ بِنَفْسِهِ إِذَا كَانَ فِي الْمَوْتِ

(٣) أَيْ لَا نَبَاتَ فِيهَا

فَطَيِّبًا ثُمَّ جَحَشَ ثم تَرَعَّرَعَ ثُمَّ صَارَ يَافِعًا وَعَادَ فَتًى
وَاتَّقَلَ كَهْلًا وَهُوَ الْيَوْمَ يَحْطِمْ الْحُسَيْنَ ^(١) وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي
كُلِّ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَمَتَى سُوِّتَ عَلَيْهِ الْأَرْضُ لَمْ يَتْرُكْ وَرَاءَهُ
الْأَسْطَرَاءَ ضَائِلًا فِي سِجْلِ الْمَوْتِ ^(٢) فَكَأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ لَمْ
يُدْرِكَا هَذَا الرَّجُلَ ، وَكَأَنَّهُ رُوحٌ كُتِبَ عَلَيْهَا الْحَبْسُ فِي جَسْمِهَا
فَلَا تَشْهَدُ أَمْرًا مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى تَنْطَلِقَ ، وَكَأَنَّهُ حَيٌّ عَلَى رَغَمِ الْحَيَاةِ .
وَتَرَى أَيْ عَقْلٍ يَعِيشُ بِهِ ، بَلْ أَيْ عَقْلٍ وَأَيْ جَنُونٍ لَيْسَ
مِنْ أُنْزَلِهَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِنْ أَكْبَرُ مِنْ تَنْجِيبِهِ الْفَلَسَفَةُ وَيُخْرِجُهُ
الْأَدَبُ لِيَطْوِيَ عَمْرَهُ طَيِّبًا وَرَاءَ هَذِهِ الْغَايَةِ الْبَعِيدَةِ ، وَمَا حَيَاةُ
الْفَلَسَفَةِ إِلَّا اخْتِبَارٌ لِلْمَوْتِ فَهُمْ يُعْمِتُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ كُلَّ سَبَبٍ
إِلَى الشَّهْوَةِ وَكُلَّ دَاعِيَةٍ إِلَى اللَّذَّةِ وَيُخَيِّوْنَ بِالْقِسْمِ الْأَعْلَى وَتَبْقَى
مَادَةُ الْأَرْضِ فِيهِمْ كَأَنَّهَا أَرْضٌ بُورٌ عَارِيَةُ الْحَمَاسِ لَا تُخْصَبُ
وَلَا تُنْبِتُ ؛ وَهَذَا (الشيخ على) كُلُّهُ أَرْضٌ بُورٌ فهو عصر
برأسه مِنْ تَارِيخِ الْأَخْلَاقِ ؛ وَعَلَى أَيْ الْوُجُودِ اعْتَبَرَتْهُ رَأْيَتُهُ كَشْيُوخَ .

(١) كَانَ هَذَا فِي سَنَةِ ١٩١٧ وَيُقَالُ حَطَمَتِ السِّنُّ إِذَا كَبُرَ وَضَعُفَ وَكَانَ هَذَا
عَلَى الْعَكْسِ فَهُوَ يَحْطِمْ السِّنَّ وَقَدْ شَاعَ هَذَا الْإِسْعَالُ فِي أَقْلَامِ الْكُتَّابِ
دُونَ أَنْ يَتَنَبَّهُوا إِلَى أَنَّهُ لَا يَحُوزُ أَنْ يُقَالَ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذِهِ النِّسْكَتَةِ
(٢) كُنَايَةٌ عَنْ اسْمِهِ . وَكَانَ اسْمُهُ الشَّيْخَ عَلَى جَمْعِهِ

الفلاسفة وحكماء الدنيا يعيشون في الناس بعقلٍ ذيرِ العقل .
ولو تنفّس به العمر فبلغ المائة وجاوز العُصُرَيْن (١) ما زاد
كلُّ عمله على أن يُشَبِّهه نفسه ؛ فهو حايِمٌ لنفسه ضُوبٌ لنفسه
وكذلك هو في الخُفَّةِ والوقار ، والضَّحِكِ والعبوس ، والزُّهُوِّ
والالتقباض ، وفي كلِّ ضِدِّين منهما لذةٌ وألمٌ ؛ كأنه جزيرةٌ قائمةٌ
في بحرٍ لا يُحيطُ بها إلا الماء فلا صلةَ بينهما في المادة وإن كانت
هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو ، يروونه من جفوة الزمانِ
أضعفَ من أن يُصابَ بأذى ويرى نفسه من دهره أقوى من
يُصيبَ بأذى ، ويتحاشون رآفةَ ورحمةَ ويتحامون أنفةَ
واستغناءً ، ثم إن مسَّه الأذى من رقيق أو سقيطٍ أحسن إلى
الفضيلة بنسيان من أساء إليه فياً كم وكان أُمِّه مرضٌ طبيعيٌّ
باعتباره ، ولا فرقَ عنده في هذا خال بين أن يُمَغِّصَ بطنه
بالداء أو يُمَغِّصَ ظهره بالعصا . . . ! وهو والدنيا خصمان
في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلفٌ جداً فلم تقهره الدنيا لأنه
لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم نظفر به .

(١) توفي رحمه الله في سنة ١٩١٩ للميلاد كما تقدم بعد ظهور الطبعة

وإني لأرى في اللغة كلماتٍ لم تقع على معانيها ولم تجتمع
اللفظة منها بدلوها ؛ فكلمة السعادة تبحث عن معناها في الناس
وأهوائهم وشهواتهم ، ومعنى السعادة يبحثُ الناسُ عنه في هذه
الحكمة وحدودها وحقائقها ؛ وربما كان هذا المعنى بجملته ما غفى
تحت الشمس في زاوية من زوايا القرى ، أو متفقيئاً ظلَّ شجرة
من شجر الجُمَيْر ، أو نائماً تحت سَقَفٍ معروشٍ من
حطب التطن ، أو جالساً يضحك في ندوة الحي ، أو قائماً يتأمل
مجرى النهر ، أو مضطجراً يقاب وجهه في السماء ، أو هو
الذي يسمى « الشيخ على » ، وماذا في السعادة أهناً من أن
توقى ثمرَ هذه السعادة فلا تتطلع نفسك إليها ولا ينالك إلا
ما تحبُّ أن ينالك ، فأنت بعد وادع قارئاً من في سرِّ بك ،
معافى في بدئك ، خارج من سلطان ما بينك وبين الناس من
خلقٍ مستبِدٍّ ، أو رغبة ظالمة ، أو صاعِ عاتية ، ولا حكمَ
عليك إلا المالك المالك ولم يفشق الله لك من فنون التذات
ما ينغصه عليك ، ولا ضرب منك مثلاً ؛ ولا نص لك
عقاباً ، ولا جماعَ مرآة عدوٍّ يصاح فيها نفسه (١) ولا

(١) يرى غاياتك فيتنفى على نفسه من مئاه فبكأذك مرآته

نَصَبَكَ لِمَجَارَةٍ أَوْ مَبَارَاةٍ ، وَقَدْ جَنَّبَكَ فَضُوحَ هَذِهِ الدُّنْيَا
وَالدُّنْيَا مِنَ السُّوءِ بِحَيْثُ يَفْضَحُ فِيهَا بَعْضُ الْخَيْرِ مَا لَا يَفْضَحُ
بَعْضُ الشَّرِّ ؛ ثُمَّ مَاذَا أَنْتَ طَالِبٌ مِنَ السَّعَادَةِ إِذَا هَانَتِ الْحَيَاةُ
فَلَمْ تَضَعُفْ عَنْ أَحْتِمَالِهَا ، وَلَمْ تَرْمِكْ بَدَاءٍ فِي مَرَضِ الْعِيشِ
إِلَّا قَتَلَهُ ، وَلَمْ تَحْمِلْكَ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا تَحَمَّاتٍ عَلَيْهِ ، وَقَوَّيْتَ
عَلَى نَفْسِكَ فَلَمْ تَكْذِبْكَ أَمَلًا ، وَلَمْ تَخْدَعِكَ فِي بَاطِلٍ ، وَلَمْ
تَجَازِبْكَ إِلَى مَوْرِدٍ لَا تَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا آثِمًا أَوْ نَادِمًا ، وَكُنْتَ
مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ مُخَفًّا لَا تَحْمِلُ إِلَّا رَأْسَكَ وَلَا تَجْمُوعُ إِلَّا بَيْطَنَكَ (١)
وَقَدْ كُنَيْتَ أَنْ تَصْرَعَكَ نَزَغَاتُ هَذَا الرَّأْسِ ؛ وَأَمِنْتَ أَنْ
يَقْتُلَكَ دَاءُ هَذَا الْبَطْنِ ، وَلَمْ يَضْرِبْكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ
الْمُنَافِقَةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْمَالُ حِينَ يَأْتِيكَ بِالْجَاهِ وَأَصْحَابِ الْجَاهِ وَمَنْ
يُرِيدُكَ لِمَاكَ وَجَاهَكَ ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ (٢) وَمَنْ نِفَاقِ
النِّعْمَةِ خَاصَّةً فَبَيْنَاهُ لَكَ إِذَا هِيَ عَلَيْكَ وَبَيْنَاهُ مَتَاعٌ ، إِذَا هِيَ
الْإِتِّبَاعُ ، وَبَيْنَاهُ فِي طَعَامِكَ شَيْءٌ ، إِذَا هِيَ مِنْ طَعَامِكَ قِيٌّ . . .
وَهَلْ فِي النِّعْمَةِ خَيْرٌ مِنَ الْكَفَافِ حَاضِرًا وَمِنْ الصِّحَّةِ

(١) يُقَالُ فَلَانٌ يَجْمُوعُ بِخَمْسَةِ بَطُونٍ مِثْلًا إِذَا كَانَ يَكْدَحُ لِمَعِاشٍ خَمْسَةَ

(٢) انْظُرْ فِصْلَ النِّفَاقِ فِي كِتَابِ (السَّحَابِ الْآحْمَرِ) وَتَصْوِيرِهِ وَفَلَسَفَتِهِ

فارهةً ومن قُرَّةِ العين وَضَحِكِ السنِّ واستِطالاقِ الوجه ، وأن
يكون القلبُ في حجابٍ من نور السماء لا تَهْتِكُ عنه رذائلُ النفس ،
ولا يَعْتَلِقُ به غبارُ الأرض ، ولا يَتَغَشَّاهُ ظلامُ الحياة ، ولا
يزال هذا القابُ في نَفْسِهِ وصفائه كأنه سعادة مخبوءة في غيب
الله لم يُخْلَقْ بعدُ من خِيبَتِ له ؟

كذلك أعرفُ « الشيخ على » فهو رجل سُدَّتْ في وجهه
مَنَافِدُ الجهاتِ كُلِّها إلا جهةَ السماء فكأنه في الأرض بطلٌ
خياليُّ يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك
يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقةَ الإلهية التي لا تَعْدُ وهامادة الأرض
ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كلَّ ما على الأرض من متاع وزينةٍ
وزخرفٍ وكلَّ ما رَدَّتْ عليك الغبْطَةُ من بسْطَةٍ في الجسم ،
أو سعة في المال ، أو فضلٍ في المنزلة ، وكلَّ ما أنت من إقباله على طمعٍ
ومن قُوَّتِهِ على خوف ؛ تلك الحقيقة الطاهرة التي تكون أعظمَ
ما أنت واجدُها في سيرِ الأنبياء والصدِّيقين والشُّهداء ؛
أو حيث يكونُ ذاك العقلُ الجبار الذي لا يشبه عقولَ الناس
من نبوغٍ يخرقُ العادة أو جنونٍ تخرقه العادة ؛ وما الجنونُ
إلا نبوغٌ فوق الطاقة ولا النبوغُ إلا جنونٌ دقيق .

وكذلك أعرفُ « الشيخ على » فهو أجهلُ الناس في الدنيا .

وأَجْهَلُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا ، كَأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ مُتَمَدِّخُ الْعَقْلِ ؛ (١)
وَأَنْتِ إِذَا سَطَعَتْ لَهُ بِالْجَوْهَرَةِ الْكَرِيمَةِ الذَّادِرَةُ فَلَا يَعْدُو
أَنْ يَرَاهَا حَصَاةً جَمِيلَةً تَتَأَلَّقُ ، وَإِنْ هَوَّلتَ عَلَيْهِ بِالْوَانِ الْخَزْزُ
وَالدِّيْبَاجِ حَسِبَكَ مَائِقًا لَمْ تَرَ قَطُّ نَضَارَةَ الْبَرَسِيمِ وَالْوَانَ
الرَّبِيعِ ؛ وَكَأَنِّي بِكَ لَوْ وَصَفْتَ لَهُ الذَّهَبَ وَمَا أَضْرَمْتَ
نَارَهُ فِي الْأَرْضِ وَهِيَ بَرْدٌ وَسَلَامٌ ، وَمَا أَقْبَضَ جَمَالَهُ مِنْ
الْفِتْنَةِ الَّتِي اسْتَحَالَ عَلَيْهَا أَنْ تَنَامَ ؛ ثُمَّ أَرَيْتَهُ شُعْلَةً مِنْ هَذِهِ
النَّارِ ، فِي غُرَّةِ الدِّينَارِ ؛ لَتَضَاحَكَ مِنْتَ إِذْ تُرِيدُ أَنْ تُوَهِّمَهُ
بِمَا أَعْظَمْتَ مِنْ ذَلِكَ الشَّأْنِ أَنَّكَ سَلَبْتَ مُلْكَ اللُّقْطَةِ مِنْ
الشَّمْسِ ، الَّتِي خَرَبْتَ أُمْسَ ؛ وَلَرَأَيْتَ مِنْ زُرْأَتِهِ عَلَيْكَ
مَا يُعَلِّمُكَ أَنَّهُ مَا أَكْبَرَ هَذَا الدِّينَارَ فِي عَيْنِكَ إِلَّا صَغُرَ فِي
نَفْسِكَ ، وَلَا مَلَأَ يَدَكَ بِالْحَرَصِ عَلَيْهِ إِلَّا فَرَاغَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
اللَّهِ ، وَلَا كَدَّكَ فِي طَالِبِهِ إِلَّا أَنَّكَ مُسَخَّرٌ ، وَلَا أَذْلَكَ لِلْمَالِ ،
إِلَّا خُضُوعَكَ لِلْأَمَالِ ؛ وَمَا أَنْتَ إِلَّا فِي قَيْدٍ مِنَ الْهَمِّ حَبِيبِهِ
إِلَيْكَ أَنْ قُفِّلَهُ هَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الذَّهَبِ
وَإِذَا أَحْضَرْتَهُ الْوَانَ الطَّعَامَ وَجَلُوتَ عَلَيْهِ أَهْبَةُ الْخَوَانَ

وَقَاتَ لَهُ هَامٌ فَارْتَعَ وَأَصْبَحَ حَتَّى تَنْتَارُ مَا نَتَاكَ (١) رَأَيْتَ مِنْ
نُفُورِهِ وَاحْتِجَازِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ وَيُحَاكُ وَهَلْ لِلْبَطْنِ كِبَرِيَاءُ
وَهُوَ سِتَارٌ عَلَى أَقْدَارٍ ؛ وَهَلْ يَسْمَعُ كُلُّ هَذَا وَمَاهُوَ بِالْعَرِيضِ
الطَوِيلِ ؛ وَلَا سَلَامَةً لَهُ إِلَّا بِالْفَيَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ ؛ وَهَلْ تَحْتَمِلُ
مَا فِي الْعَنْقُودِ حَبَّةٌ وَاحِدَةً ؛ وَتَحْتَمِلُ الْغَنَى أَنْ يَكُونَ فِي صَنْدُوقِهِ
الْإِلَهِيِّ (٢) حَاجَةٌ زَائِدَةٌ ؛ وَيَبَاحُ الْجَمْعُ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ
يُعْمِتَ قَابَهُ لِأَنَّهُ وَجَدَ النَّعْشَ مِنَ الْمَائِدَةِ ؛

وَكُنَّاكَ أَعْرَفَ « الشَّيْخَ عَلَى » ، فَهُوَ لَا يَرَى فِي الْأَشْيَاءِ
غَيْرَ مَا خَصَّتْهَا بِهِ الطَّبِيعَةُ ؛ وَلَا يُرْسِلُ عَلَيْهَا إِلَّا أَشْعَةً صَافِيَةً
مِنْ عَيْنِيهِ الضَّاحِكَتَيْنِ لَمْ تُخَالِطَا أُلُوانَ النَّفْسِ وَلَا زَفَرَتُ عَلَيْهَا
أَنْفَاسُ الْقَابِ ؛ وَمَا تَمَّ غَيْرُ الْأَتْقَابِ وَالنَّفُورِ أَوِ الْاسْتِنَاسِ
وَالْإِنْبَسَاطِ ؛ فَأَمَّا رَأَاهَا قَبِيحَةً وَإِمَّا رَأَاهَا جَمِيَّةً ؛ وَمَتَى قُسِمَتْ
الْأَشْيَاءُ عِنْدَهُ إِلَى قَبِيحٍ وَجَمِيلٍ فَالْأَيْسَ وَرَاءَ هَذَيْنِ نَالَتْ فِي
النَّقْسِيمِ وَالْأَيْسَ إِلَّا جَمِيلٌ جَمِيلٌ وَفَبِيحٌ قَبِيحٌ ، فَأَمَّا الْمَأْمُولُ
وَالْمَرْغُوبُ وَالْمُتَنَاسُ فِيهِ وَالْمُتَبَرَّمُ بِهِ وَالْمُسْخُوطُ عَلَيْهِ ،

(١) أى السرة وما حولها وذلك من السمع والكظة

(٢) كناية عن البطن وبمعنى السمع كسلة والبطنة تذهب الفطنة

وما جاء بالشَّقْوَة وما جاءت به السَّعَادَة ، وما كان من ورَّائه
 حَبِذاً وَلَيْتَ وما أعانت عليه لعلَّ وعسى ثمَّ كان وأخواتها
 وإنَّ وبناتُها ؛ ثمَّ أنا وأنتَ وهو ؛ ثمَّ ما انعطاف على هذا النحو
 أو انْفَرَعَ منه ؛ فَكُلُّ ذاكَ تَقْسِيمٌ لَا يفهمه شَيْخنا وما هو
 من جدِّه وَلَا لعبه لَأَنَّ صَفْحَةَ نَفْسِهِ لَيْسَتْ كَأَلْوَا حِ الْأَطْفَالِ
 يَثْبُتُونَ فِيهَا مَا لَا بُدَّ مِنْ مَحْوِهِ وَيَمْحُونَ مَا يَعُودُونَ إِلَى
 إِبْطَالِهِ لِيَتَعَرَّفُوا مَا أَصَابُوا مِمَّا أَخْطَأُوا وَابْتَعَلَّمُوا كَيْفَ يَنْبَغِي
 أَنْ يَتَعَاهُوا .

وهلَّ تَجْدُ أعزَّكَ اللهُ في هذا النَّاسِ مَنْ يُحْسِنُ أَنْ يُوقِّرَكَ ،
 إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ أَنْ يُحَقِّرَكَ ؛ وَمَنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَشْكُرَكَ ،
 إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَكْفُرَكَ ؛ وَمَنْ يَقُولُ لَكَ حَفْظَكَ اللهُ
 إِلَّا وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يَقُولَ أُنْزَاكَ اللهُ ؟ فَالنَّاسُ عَبِيدُ أَهْوَائِهِمْ وَأَيْمَانُ
 يَكُنْ عَمَلُكَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ فَهَنَّاكَ مَحَلُّ الْإِنْفِظَةِ الَّتِي أَنْتَ خَلِيقُ
 بَيْتٍ ؛ وَهَنَّاكَ يَتَأَمَّاكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ أَوْ مَا يَرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ
 أَهْلُهُ ؛ وَلَيْسَ فِي النَّاسِ شَيْءٌ يَزِيدُكَ كَمَالاً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَكَ
 تَقْصَافاً ؛ حَتَّى إِيْمَانُكَ فَانْهَ كُفْرُ عِنْدَ قَوْمٍ ، وَحَتَّى عَقْلُكَ فَانْهَ سَفَهٌ
 لَطَائِفَةٌ ؛ وَحَتَّى فَضْلُكَ فَانْهَ حَسَدٌ مِنْ جَمَاعَةٍ ؛ وَحَتَّى أَدَبُكَ فَانْهَ
 غِيْظُ لَفْئَةٍ .

أما شيخنا فقد مسح الله نفسه ومسح ما به من الناس ؛
فليس في صدره ولا في صدر أحد حسيكة^(١) عليه وهو أبدأ
في صمتٍ بليغٍ كصمت الطبيعة ؛ وكأن فيه شيء من هذا
الصمت فلا يتصل بفهمه ولا يداخل فكره إلا الجمال والقبح ؛
والطبيعة نفسها تخرج الجميل تفسيراً للقبيح ؛ وتظهر القبيح
تعايقاً على الجميل ؛ وكذلك الشيخ في إدراكه .

وأجل ما يرى من وجود الحياة وجه السماء الصافية ، ووجه
النهر الجاري ووجه الأرض المخضرة ، ووجه الرجل الطيب ،
ووجه المرأة الجميلة . كل أولئك عنده سواءٌ فليس وجهٌ خيراً من
وجهٍ لأنه لا يحسن أن يؤول لغة الطبيعة فلا ريبة فيه ، ولا
يتزبد في معانيها فلا كذب في حواسه ، ولا تخاطبه الطبيعة
فيما توحى إليه إلا بأسهل ألفاظها وأظهرها وبمقدار ما خلق له
إذ لا ترى فيه غير تلك الحيوانية الضعيفة التي هي ضرورية
لحيث منقطع ماله ، وما كانت أمانة عقلاً لا فصلاً بينه وبين الإنسان
في حيوانيته ؛ وإن نر ما تكون هذه الحيوانية حين تكون
عقلية محضة وراءها عقل العالم واختراع المبتدع وفن المتفنن .

(١) أى عداوة وغيظ

وقد يكون « الشيخ علي » رجلاً تعساً في رأى الناس لأنَّه حيوانٌ ضعيفٌ وإنسانٌ أضعفٌ ، ولكنها تعاسةٌ بالغةٌ فهي من تلك الآلام الحادة التي بلغت الطبيعة في تكوينها لتخرج منها ذلك النوع الشديد الحاد الذي يسمونه اللذة ، وربما كانت التعاسة السامية خيراً من سعادة سافلة .

إنَّ المجنون لم يزلَّ عن منهج الحياة بجنونه وإيكنه يتبع سنة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما أرفه الناس أو تواضعوا عليه يرى في كل شيء أثراً جنونه ، فهو حيٌّ مع الأحياء يئد أنه يُشبه أن يكون نفسيراً للحياة الغامضة التي تلوذ بكل جانبٍ مهجورٍ على وجه الأرض وبكل رأس تحسب تسبه جانباً مهجوراً لأنَّ الناس لا يفهمونها ولا يتسعون لفهمها .

وهذا « الشيخ علي » رجل غامض متأنفٌ بحقيقته العجيبة كد هاهنا السياسة في شباكهم التي يأخذون بها الأمم والشعوب . فلا تبرحُ ترتبكُ فيها ارتباكُ الصيد في الحباله ، وأولئك الفلاسفة الذين يعيشون في السُّحب العالية من فضائهم فيمضطرون الكون مرةً ويرجمونه مرةً ... إلى غيرهم من روابي الخلق ^(١) ومن كل رجل عظيم أظله أحد الجناحين المنبسطين

(١) أي هاماتهم وعظماهم جمع رابية لطهورهم وعلوهم

على الارض والسماء : جَناح الوحي أو جَناح التاريخ . ولكن « الشيخ » على غرضه من كل جهاته واضح من جهة واحدة هي جهة الجنون في اصطلاحنا ، وتلك هي جهة الفضيلة الخالصة فيه إذ قَطَعَتْ ما بينه وبين الرذيلة وجعات له في الناس رذيلة مجنونة مثله فكانت سببته أنه رجل مُطابق لا ينزل على حكم ، ولا يتحمل على أمر ، ولا يُنازع إلى عادة معروفة ، بل هو قد نجا بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثابة التي لا يمسكها قيد ولا يخضعها زمام والتي هي فيه كما هي في موجة البحر وعاصفة الريح ؛ فكل مخلوق يحل في الحياة لمكن القيود منه وهذا يجمع الوثبة العالية ثم يثب مقبلاً ومدبراً ويتخطى مدبّره في الحياة كأنه براق الأنبياء

وليت شعري هل يأمل الناس أن يشهدوا الحقيقة مغلوبة على أمرها ، وما كانت الحقيقة أحد الخصمين قط إلا كانت الهزيمة على الآخر ولو أن هذا الآخر عصر من تاريخ الارض . ثم ماهي الحقيقة الآن تكون عقلاً مطاملاً لا زيف فيه ، أو حقاً طاملاً لا كذب فيه ، أو يقيناً طاملاً لا شك فيه ؟

وهذا « الشيخ على » : أما عقله فعند الله ، وأما حقه فقد أوجبته الله ، وأما يقينه فلا يعاونه إلا الله ، فكيف يرى مغلوباً لاصطلاح أو عادة وأكثره راسخ في السماء ؟ إنه ليجوع

ويظماً ويعرى واسكن كما يجوع الطائر وآظماً الأرض ويعرى
 الشجر ، ليس من خاية الاوسديها من رحمة الله ، فان تخاست
 عنه السماء مرة ، وقطعت مقاوده من الغيب ، وخذلت الوسيلة ؛
 فما تغمر منه الحاجة الا حجراً صلباً يقع على أى جانب ترميه
 ثم لا يقع الا حجراً . لأن آلام هذا الرجل من الألم القفر
 الذى لا ينبت فيه شئ من الخوف ، ولا يهتدى اليه وهم من
 الحياة ، ولا مجرى فيه للدمع ، ولا ظل للحسرة ؛ وهو ألم ان
 أفضى الى الموت أفضى اليه برجل لا يعرف الموت ما هو ؛ وان
 أبقي على الحياة أبقي عليها فى رجل عرفت الحياة من هو . . .
 رجل حط الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيراً من
 المال وحب المال وذل المال ، تخرج وليس له فى أفئدة الناس
 الا الرأفة والحنان ، وجاء وليس له من الناس حاسد أو عدو ، وخناق
 ذا حدّين من نفسه الماضية لا يكتنفه ذل أو هم الا قطعهما
 وانطلق كالفرس العتيق فى ميعه حضره (١) ، وماذا يبغي
 الناس منه وماذا يعادون وهو فى ذلك البحر زورق قد سقط
 مجذافه فايس له ما يضرب به وما يسخر به وانما تدافعه رحمة
 الله حيث اندفع ، والبحر لا يعادى الزورق الذى يجرى فوقه
 واسكن يعادى المجذاف الذى يديره ههنا وههنا .

(١) أى فى أول نشاطه وحرية

رجلٌ كأنه قطعةٌ من الأبد لا أمس له يتعقبه ، ولا غد له يترقبه ، بل الحياة عنده يقظةٌ طويلة والموت نومٌ أطول .
 « والشيخ على » متى أحسَّ الجوعَ ولج الباب الذي يصيبه مفتوحاً فلا يقع على الناس إلا متطرباً ، وهو مع ذلك لا يحط في الطعام ولكن يخط فيه خطأ^(١) وما هو إلا أن يستقر شيء في جوفه مما يقيم صلبه حتى ينفر نفور الطائر لا يرى إلا أنه قد استوفى حق طبيعته من خادم طبيعي فلا جزاء ولا شكورا ؛ ولهذا لا يرح أبداً على الحد الذي يصاحبه لنفسه فلا يتجاوزه ، وأعجب ما يروى من فضيائه أن هذا الحد عينه هو الذي لا يفسد ما بينه وبين الناس

وهو إذا تكلم فأنما يترمرم^(٢) من طول السكوت فإما أن يغفهم حروفاً وأصواتاً وإما أن يلوث بعض كلمات غير مفهومة كأنه يسرها في أذن الدهر الذي لم يفهمه . ولكن لهذا الرجل كلمة في الشتاء وكلمة في الصيف . . فإما الأولى فإن يسأل دثاراً يستدفع به أذى البرد ولا معنى لكلمة (هات) عنده غير هذه الضرورة ؛ وأما الثانية فإن يهب الدثار لغيره ولا معنى

(١) المتطرب الذي يأتي من غير دعاء ، وحط في الطعام أكثر منه

يخط بالخاء إذا نال شيئاً يسيراً (٢) يقال كان ساكتاً فترمرم أي حرك فاه

لكلمة (خذ) عنده غير هذا الاستغناء ، على أنك واجدٌ أكثرَ مافي هذا العالم من شر وفسادٍ إنما يَرْتَظِمُ في هذين الحرفين (هات وخذ).

هذا هو « الشيخ علي » رأيتُه فرأيتُ في بُرْدِهِ ثورةً على العالم الانساني ، وعرفته فأصبت في ضميره قطعةً مجهولة من هذه المسكونة ، واستجابتُ نفسه فاذا هو أفقٌ فوق الأرض ، وطالعتُه فكأنني رأيت في جماته النقطة الأرضية التي يبدأ من ورائها ارتفاعُ السماء ، وبأوتته فاذا هو حصاةٌ تحتِ خرُسِ الدنيا والناسُ هُنَالِكَ يُمَضِّغُونَ . فلم أملك أن غمستُ قلمي من نظراته في مجرى من أشعة الوحي ، ووضعتُ الاعتبارَ من هذا الرجلِ وحقيقته على ما عرفتُ من الناس وحقائقهم فخرجتُ لي من المفاصلة هذه الصفحات ، ولذا كلن القول في « المساكين » ما « قال الشيخ علي » .

على أني إن كنتُ لم أحسن وصفَ الرجل أو كنتُ لم أُلْغِ في وصفه ، فذاك لأن هذه الحقيقة في هذا القلم كالثمرِ الخلدِ في العنودِ المرِّ ؛ والرجلُ مما أنضجته القدرُ وحده وليس لنا من حقيقته الغامضة الا الصفات التي تثبتُ أنها غامضة .

وهل في الحياة أشدُّ غموضاً من رجل يرى أو كأنه يرى

أَنْ كُلَّ نِعْمَةٍ لَمْ يَنْدَلِسْهَا فِي مَصِيبَةٍ لَمْ تَنْأَهُ ؛ وَكُلُّ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ
هَذِهِ الدُّنْيَا أَنَّه يَعْرِفُ كَيْفَ يَتْرَكُهَا مَطْمَئِنًّا وَعَلَى شَفْتَيْهِ مِنْ
الْإِبْتِسَامِ تَحِيَّةُ السَّمَاءِ لِاسْتِقْبَالِهِ ؛ وَمَتَى هُوَ فَارَقَهَا انْكَشَفَ مَوْتُهُ
عَنْ حَيَاتِهِ ، وَصَرَخَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ عَنْ ضَمِيرِهِ ، وَخَاضَعَتْ مِنْ
هَذَا الضَّمِيرِ كَلِمَةً هِيَ مَعْنَى الرَّجُلِ الَّذِي انْطَوَى عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ
الْكَلِمَةُ هِيَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ؟

الفصل الثاني

في وحي الروح (١)

التراب المتكلم أمام التراب الصامت (٢)

تُرى أيهما هو الصدقُ في حقيقته ، مانفرحُ بهِ أو مانحزنُ
لهِ ؟ أما إن في الحياةِ مأسحاً وإن في الحياةِ حُلُوماً وكلاهما تَقْيِضُ
فأيس منهما نبيُّ الأَهوردُ للآخر أو اذتراضُ فيهِ أو خلافُ
عليه ، وتجدهما اثنين وهما واحدٌ في اثنين

فأنت تُوَتِّي الحلوَ تَسِيغُهُ وَتَسْتَعِذُّ بِهِ فاذا هو بك في المِلحِ
تَمُجُّهُ وَتَغْصُ بِهِ ، ثم لا تَضَعُ من أمرٍ على أحسنه في صورةٍ
الأَرائتهِ على أقبحه في صورة أخرى

والإنسانُ من الهمِّ في عمُرٍ دهرٍ لا يموتُ ، ومن السرورِ في
عمرٍ لحظةٍ تشيبُ وتَهْرَمُ وتموتُ في ساعاتٍ ، والحيُّ كأنه من
هذه الدنيا فرخٌ في بيضةٍ مائتٍ لهِ وخُتِمَتْ عليهِ فان يزيد
فيها غيرُ خالقها وخالقها لن يزيد فيها

(١) روح اخي محمد كامل بك الرافعي وقد انتقل الى ربه في شهر

يونيو من سنة ١٩٢٨ رحمه الله . وهذا الفصل ماردناه في هذه الطبعة المانية

من المساكين اذ هو من مادة الكساب وعلى نفسه وتهجه

ومن الصحة والمرض ، ومما سرّ وساء ، وما شدّ وهدّ ، ومن العقل العجيب الذى يحكم من الانسان تركيباً عصبيّاً مجنوناً ثائراً قد استبانت فيه الحيوانية — من كل ذلك وما اليه مزيجٌ هو بقدره الله أشبهٌ ولكنه فوق ضعفنا وحياتنا فان نرى منه فى الكون الاً شكلَ الحَيِّرة ومعناها والعذاب بها والفرح بالغفلة عنها والسرور بانكارها أو المكابرة فيها ؛ والحيرة لانفى ولا إثبات ؛ ومتى يطلب الانسان الحقيقة وهو جزء منها لم يقف الاً على جزء منها ؛ فالمشكلة متحركة الى كل جهة حتى لاتذهب عنها لتساها الاً وانت ذاهبٌ بها لكيلا تنساها

أما إن فى الحياة ملحاً وان فى الحياة حلواً وكلاهما تقيض ؛ فالصريحُ أن يخسأقَ منها المستحيلُ وهو الملح الحلو فان لم يمكن ، فالمكنُ من الحقيقة للانسان أن يستحيلَ الانسانُ فيموت

*

ترى أبهما الذى هو الكذبُ فى نفسه ؛ الموتُ أم الحياة ؟ إنه الجنينُ فالوايدُ ثم الميتُ لا محالة بعد أن يسرعَ الأجلُ أو يتراخى . لا يتقارَّ جنينٌ فى ذاته الدموية من الأَحشاء ؛ ولا يثبتُ وليدٌ فى ذاته اللحمية من المهد ؛ ولا يتركُ شابٌ فى ذاته العظمية للحياة ، ولا يقفُ شيخٌ فى ذاته الجلدية دون القبر . من عتقدَ التمرذالى لبثها الى شحمها الى قشرتها على ناموس القضاء

والقدر في باب الحَيِّمِ المَقْبُحِيِّ من كتاب السماء ؛ وعلى تاموس
النشوء والارتقاء في باب الهذيان العلمي من كتاب الارض
وكما نكون تحت الوسائد كنوز أحلام الليل ، تكون في
هذه الحياة أحلام الكنوز الخالدة التي يلا الأرض كلها ضوء
لؤلؤة واحدة منها

تلمع الشمس تلمع على الناس كأنها فص خاتم السماء
تشير به أن تمالوا الى الكنز في ضوء هذه الباقوتة الصغيرة

*

* *

الحواس زائغة متراجعة مقلوبة وهذا هو نظامها ونسقها
واستوائها ؛ فليس من أحد في هذا الكون الموجود إلا وهو
ناظر الى كون غير موجود .

السماء سموات والأرض أرضون والأكوان أعداد العقول
وكل أمل في رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقصها ويغير
من الخليفة ويبدل ، وكل انسان في كل يوم هو انسان يومه ذلك ،
فكان كل حي من كل حي غاطة . وآمالنا كأرقام الساعة هي
اننا عذر رقما محدودة ولكنها في كل دقيقة هي اثنا عشر رقما
فان تنتهي

والحياة خداع وغرور ، وزبح وخطأ ، وعمل وعبت ،

ولهو ولعب، ومهزلة وسخرية، والناس كالأرقام تختط على هذا
التراب ثم يقال العاصفة : اجمعي واطرحي وحاسبي المسئلة

* *

وأبن كل ماصبته الشمس والكواكب من نيرانها ،
وما أخرجته فصول الأرض من وشيها وألوانها ، وما هتفت
به الطير من أغاريدها وألحانها ، وما تلاطمت به الدنيا من أمواج
إنسانها . أين ماصح وما فسد ، وما صدق أو كذب ، وما ضرر أو
نفع ، وما علا أو نزل ؟ في كل لحظة تنلى هذه الدنيا لتفرغ ثم تفرغ
لتمتلى ، وماضيها ومستقبلها مطرقنان يمر بينهما كل موجود
انحطيمه .

وكان الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة زمناً يقصر أو
يطول ، وما العجيب أن لا تنفاح التجربة في أحد ولكن العجيب
أن لا تنقطع وهي لا تنفاح

والعالم كالبحر من السراب يهوج به أديم الأرض بما رحبت ثم
لا تملا أمواجه مائعة ، والحقيقة في كل شيء لا تزال تفر من تحليل
إلى تركيب ومن تركيب إلى تحليل ، لأن شعور أهل الزمن بالزمن
لا يحتمل المنى الخالد

ولعل سبب الموت أنك لا تجد إنساناً يعيش في حقيقته الإنسانية ،

فلا هذه الحقيقة يُسّرَّتْ لهُ كاملةً ولا هو خُلِقَ لها كاملاً ؛ وفي
الانسان كالطبيعة أرضٌ وسماؤٌ فترابه لا يتغشاهُ مما فوقه غيرُ
الظل ، وقد خُلِقَ مقسوماً ، فشُقَّةٌ منه في أرضه وشُقَّةٌ في
سماؤه ، فاذا حضرهُ الموتُ ضربَ الضربةَ بين هاتين فاخذت
السماءُ السماءَ وجذبتْ الأرضُ الأرضَ

هناك البرقُ الالهى ملء الكون يلتمعُ ويخطفُ ولكنهُ
من الانسان كشعلة تتوهجُ في غرفةٍ أرضها وسقفها وحيطانها
من المرايا وليس في هذه الغرفة الا هذا الضوء ورجلٌ أعْمى .

فلا سخرية ولا ضلالة ولا عبث ولا خداع الا في أسلوبنا
الانسانى المبني على حواسنا الزائغة كما تنود^(١) السفينة خفت
على موج البحر وما عبث البحرُ بها ولكن بعثُ بها وزنها

*

* *

يريد الله أن نخلق لآئفسنا معنى من السمع والبصر ليس
فى آذن ولا عين ، وأن نزيد فى مجموعة أعصابنا الواهنة عصباً
عقائياً براهُ ويسمعه ويدركه ويؤمن به^(٢) ، فالإيمان قوة جبارة
لا تجتمع الا من ردّ كل أطراف النفس المنتشرة^(٣) الى عقدها

(١) تنودنتايل وتنحرك (٢) كأن الله تعالى يخلق لسان و يودع فيه من سره ثم

يقول له لست حيواناً فأكل نفسك (٣) أطراف النفس كساية عن شهواتها

الروحية، وحبسها أكثر حواسها في حس واحد عفيف مؤلم،
 ووضع المنام المضمون بها في ذلك المعنى المفتوح المتهديم الذي
 لا يمسك شيئاً وهو الزهد، وحصر الآلام الطاحنة في ذلك المعنى
 المطبق المتحجر الذي لا ينفذ شيئاً وهو الصبر؛ ورد الأخلق
 كلها إلى ذلك العنصر الذي يضيف معنى الحديد إلى معنى اللحم
 والدم وهو الإرادة؛ وبعد ذلك كله وضع كل شيء إنسانى في
 ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيلة.

يا الهى ما أقوالك وما انزعفنا . كأنتك تقذفنا من السماء فنجهد
 من بعد أن نرتفع إليها بأنفسنا على أجنحة الأعمال التى تطير
 بجاذبية مما تحب

لما خافت الانسان عبداً على قدرك صار إلهاً على قدره ،
 فيجب فى الحق أن تعذبه السماء اذا وغل عليها طفيلياً بلا
 عمل ولا ثمن

النخلة السحوق نواة مخزونة فى باحة ، والعالم العظيم
 تركيب مخبوء فى انسان ؛ فالانسان لنكده الطبيعى محيط بنواميس
 قاهرة تحركه وتحيط به نواميس اخرى قاهرة تتحرك
 معه ؛ فمن ثم لا يبرح يصطدم ولن يكون متجهاً أبداً إلا إلى
 التحطيم . فاذا هو تورع وتخرج واستعلى أمات من شهواته
 فأبطل مثل ذلك فيما حوله فكان خروجه من بعض الدنيا هو

حقيقة وجوده في بعض الدنيا . ومثل هذا حقيق أن يقول :
إني أحكم العالم من داخلي

*

* *

تباركت ربنا وتعاليت ، ان الشك فيك هو اليقين على
طريقة والايان بك هو اليقين على طريقة اخرى . المتقعد لا يمشي
والأعرج لا يعدو والضعيف لا يسبق العداء ؛ فاذا انكر المقعد
على من يراه يمشي ، والأعرج على من يبصره يعدو ، والضعيف
على من يعرفه قد سبق ، فما ذاك من إنكار العين ولا من مكبرة
النفس وإنما ذاك رأى منظور فيه الى حظ رجلٍ مُهملة او قدم
مكسورة أو عظامٍ واهن . ومن ثم لن يكون في الناس ما يجد
الآ وفي طباعه او أخلاقه او حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر
عندها الرأي ويبتلى بها الحس فهي توجهه وانصرفه منظورا
فيه الى شعور بعينه . وقد ينتحر الرجل من إعراض امرأة فنذا
يقول إن النفس الانسانية في وزن قبلة ؟

فأما الماحد بغير علة فهذا لا يوجد أب ولا تضعه أم إذ
يجب أن تكون طباعته له وحده وميراثه منه وحده حتى
يصدق زعمه أنه ألد البرهان وحده . فما يجد الجاحد إلا
ليجعل نفسه في الرفاهية من الأمر والنهي ويخرج بها من حكم
الضرورة ؛ والايان كله ضرورات مساطة الحكم على ماين

المؤمن ونفسه وما بين المؤمنين والناس وما بين المؤمنين وربّه حتى
كان فيه شيئاً يلدّعه بالجرّ فما يستريح من لدعة الاقدار ما يجزم
ليحتمل اللدعة بعدها

بالهي : انما يحباك المؤمنون ويكابدون في رضاك على مقدار
منك لا منهم . فانت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشغل
البراكين ، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة
وتتركه في الارض يشعر كأنما خرّ عليه سقف العالم
شبهه خائفها بصائرّها ، وظلمات تنتهي بعد حين الى مدّ النهار
الأكبر^(١) ، ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخاطق الجو
الحساس الذي يبسط فيه الانسان جناحي روحه ويسمو بها
على التراب والمادة

الجوّ الحوّ ، هذه تغريدة البابل في قفصه
الغذاء الغذاء وهذه قوقاه الدّاجة في قفصها

* * *

أقيس الانسان نفسه على قياس من الطبيعة في قوتها
المتراكبة ، ومظهرها المسخر لكل ما يتفق ، وتركيبها المبني على
سهولة الاحتمال ، ونظامها الميسر لعدم المبالاه ؟ ألا ما أحق

(١) أى أعظم ضوءه لجة الصبح فذلك مده

الزهرة التي علمت أن الدَّوْحَةَ لا تقتاعها إلا العاصفة العاتية
 فقالت : الآن أهزأ بالنسيم ، ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقة ورقة
 كأن الشكل الانساني تقصَّ انساني ، وكان الانسان لم
 ينجى الى الدنيا بأكله ، وكأنه ما خلق منه إلا قدر ما اغرض ما .
 كأنه تركيب في يد الصانع الاعظم ألفى منه جزءاً في مَرَجَلِ
 الفلك الا رضى يغلي قليلاً . . . ثم يتطاير ويجمع فيتلقاه من بعد
 كأن هذا الانسان تحت هذه الضغطة في هذه الفورة في
 هذا الفاك مادة تُطعم جواً لتتحول ولتتحول ليس غير . ألا ما
 أحقه وهو في المَرَجَلِ على الوقْدِ الحامية اذا أبى أن يغلي . . .
 وما أسخفه وهو في المِصفاه تحت الضغطة الثقيلة اذا أبى ان
 يُعصر . . . وما أجهله وهو في الحياة الفانية اذا نسي
 أنه سيموت !

لا تغترى أيتها الحبة الصغيرة المخنبة في كُدْسَةٍ من القمح
 تتجدر في ثقب الرّحى ، ولا تحسب أنك من لهو ولعب تابعين
 هناك وهنا بين الحب . إنك في رفق ولكنك رفق الحجرين
 الآكلين الذين لا يدعان شيئاً ولا يفتان شيئاً وإنما يرفقان
 بك قليلاً قليلاً أيجبدان طحنات كثيراً كثيراً

*

* *

فنحن الفبر وضرحنا للميت العزيز ، لم أفل إنه مات بل قالت

إن موته قد مات ، كأن الحي على هذا الأرض هو القبرُ الانسانيُّ
لا الجسمُ الانسانيُّ فانك لتجد قبوراً من ألف سنة ولا تجد
انساناً في بعض عمرها ، أما ترى هموم الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو
منها أحد وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس ؟! أحسبها
الآصوَرَاء من ظلمة القبر يحىء القبر فيها حيناً بعد حين إلى ميته
الذي لم يمت

من يهرب من شيء تركه وراءه إلا القبر ، فما يهرب أحد
منه إلا وجده أمامه . هو أبداً ينتظر غير متمسك به وأنت
أبداً متقدم إليه غير متراجع . وليس في السماء عنوان لما لا يتغير
إلا اسم الله ، وليس في الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر
وأيما يذهب الانسان تلقته أسئلة كثيرة : ما اسمك ،
ما صناعتك ، كم عمرك ، كيف حالك ، ماذا تملك ، ما مذهبك ،
ما دينك . مارأيك ؟ . ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل
الانغات البشرية كلها في الفم الأخرس ، وهناك يتحرك اللسان
الأزلى بسؤال واحد للانسان : ما أعمالك ؟

أيها المتقاتلون على الدنيا والانسان إلى حين ! ان تنازع البقاء
مذهب فاسف بقدرى لا إنسانى فانها الثيران هي التي تجدد
من القوة أن تنتطح في المجزرة وتنسى لم هي في المجزرة

فتحننا القبرَ وأنزلنا الميتَ العزيزَ الذى شفى من مرض الحياة
ووقفتُ هناك بل وقف الترابُ المتكلمُ يعقلُ عن التراب الصامت
ويعرفُ منه أن العمر على ما يمتدُّ محدودٌ باحظة ، وان القوة
على ما تبلغُ محدودةٌ بضمود ، وان الغاياتِ على ما تتسع محدودةٌ
بانقطاع ، وحتى القارات الخمس محدودة بقبر . . .

يا عجباً ! القبورُ مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد . أية
ذرة من اتراب هي التى كانت نعمة ورغداً وأيتها كانت
بؤساً وشقاءً وأيتها التى كانت حباً ورحمة وأيتها كانت بغضاً
وموَّجدة ؟

سألت القبر أين المالُ والمتاعُ ، وأين الجمالُ والسحرُ ، وأين
الصحة والقوة ، وأين المرض والضعف ، وأين القدرة والجهلوت
وأين الخنزيرُ والدلة ؟ . قال كلُّ هذه صورٌ فكريةٌ لا تجىء الى
هنا لانها لا تؤخذ من هنا . فلو أنهم أخذوا هدوءَ القبر لدنياهم
وسلامه انزاعهم وسكونه اتعبهم اسخروا الموت فيما سخروه
من نواويس السكون

إن هؤلاء الأحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة وكان
يجب أن تدفن وتطهر أنفسهم منها ؛ فعنى ما فى الانسانية من
شر هو معنى ما فى الناس من تعفن الطباع والاخلاق

يكذب أحدهم على أخيه فيعطيه جيفة حقيقة ميتة ؛ ويكيدُ

بعضهم لبعض فيبتطاعمون من جيف الحوادث المسمومة؛ ويمكر الخائن فإذا جيفة عمل صالح قد مات؛ فكل مضغة تبتاعها من حق أخيك الحى هي كضغة تفتلذها من لحمه وهو ميت لا تعطيك الا جيفة. ثم انت من بعد لست بها انسانا ولك نك وحش... بل وحش دنىء لست له فضيلة الوحشية التى من قوة تأبى أن تمس لحوم الموتى

* * *

واها لك أيها القبر . لا تزال تقول لكل انسان تعال . ولا تبرح كل الطرق تنفضى اليك فلا يقطع بأحد دونك ولا يرجع من طريق راجع . وعندك وحدك المساواة فما أنزلوا قط فيك ما كآ عظامة من ذهب ، ولا بطلا عضلاته من حديد ، ولا أميراً جلده من ديباج ، ولا وزيراً وجهه من حجر ، ولا غنياً جوفه خزانة ، ولا فقيراً عاقت فى أحشائه مخلاة
ألا ويحك أيها القبر لم لا تأبى إلا فى الآخر ؟ ولم لا تضع حدوداً معانيك بين الأحياء بعضهم من بعض حتى يقوم بين الضعيف والقوة حد المساواة ، وبين النفوس والشهوات حد التقوى ، وبين الحرام والحلال حد الله

يا شقاء أهل الارض ، أما إنهم لو وضعوا فيها موضعاً من العناية لما كان الإيهام فى السريرة ولا كانت الغفلة فى النفس

ولا كان النسيان في الطبع ، ولو لا هذه الثلاث في هذه الثلاثة
لما كان المجهول البشري كله في شيء واحد وهو القبر

* * *

إن أحزاننا وهمومنا ودموعنا هي كل المحاولة الانسانية
العاجزة التي نحاول بها أن نكون في ساعة من الساعات مع
أمواتنا الأعزاء . ثم يأخذوننا اليهم اختلاجاً وانتزاعاً في هذه
الأحزان والهموم والدموع ؛ فكانها ممكنة تخالق من الأثير
الروحي وتتجسم من معانيها كي تصلح أن يلتقي فيها روح الحى
وهو حى بروح الميت وهو ميت ، كما يتلاقى روحا الحبيبين في
قباتهما أول مرة اذ يخالق قابلهما هذا اللقاء جواً أثيراً من الزفرات
والألوان بين الشفاء المتلامسة

أو اعل الموت كما يجرد الحى من روحه ينتزع من أهله
شعوات أرواحهم فيميتهم مدة من الزمن في القاب وفي العين
وفي الفكر . وبذلك يرد جميع المحزونين الى المساواة فأهل كل
ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل . وتموت بالموت
الفروق الانسانية في المال والجاه والقوة والجمال ، حتى لا يبقى
الا الدمة والألوعة والحسرة والزفرة وهذه هي أملاك
الانسانية المسكينة

ياهم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز عليه

وكيف يتحول من يحبه الى ذِكرى. ان ما يُعمل في القبر يعمل
قريب منه في القاب

* * *

وما يعرف الحى أن الداكرة فيه هي حاسة الانهاية (١) الا
حين يموت له الميت العزيز فلا يكون في الدنيا وهو في ذاكرته
بمعانيه وصورته لا يبرحها

وليس ينزل الحى من أمواته في القبر الا من يقول له اننى
منتظر الى ميعاد. ا ما لو عقلها الاحياء اعرفوا ان الموت هو
وحده ناموس ارتقاء الروح ما بقيت في الدنيا ؛ وان كان ضجيج
الشهوات — على انه لا يعاورنة كأس ولا يغطي همسة
دبنار ولا يخفى ضحكة امرأة — يطمس على الكلمة الازلية التى
فيها كل قوة الصدق وكل صراحة الحقيقة فاذا هي خافتة لا تكاد
تثبت غامضة لا تكاد تبين

أذلك سحر الحياة فينا ، أم سوء استعدادنا لها ، أم نراهة
الجسم من لذة الحياة لا ابتلاع كل ما فى الكون منها ، أم حماقة
الكأس التى تريد أن نعرف البحر لنكون له شاطئين من
الزجاج ؛ أم بلاهة الانسان الذى يريد ان يطوى فيه معنى الخالق
ليكون له نفسه ؟

(١) هذا رأى لما ولداكرة عندنا من الادلة على خلود الروح

ويحبه من غريق أحق يرى الشاطئ على بُعدٍ منه فيتمكثُ
في اللجة مرتقباً أن يسبح الشاطئ إليه ويشبثُ الشاطئ
ويدعُ الآخر تذبُّ ماسحة روحه في الماء

يسبح ويحك وانجُ فان روح الأرض في ذراعيك ، وكل
ضربة منها ثمنٌ ذرةٍ من هذا الشاطئ . كذلك ساحلُ الخلد
يريد من الإنسان الذي هو إنسانٌ أن يبلغَ إليه مجاهداً لا مستريحاً ،
عاهلاً لا وادعاً ، يأبستُ نعباً لا ضحكاً ، ويشرفُ بانفاسه
لا بأسه ، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته

ان روح النعيم الأرضي في ذراعي الغريق الذي يُجَاهِدُ
تُنجو ، وروح النعيم الأزلي في ذراعي الحى الذي يُجَاهِدُ ليفوز

الفصل الثالث

الفقر والفقير

قال « الشيخ علي » : يا بُنَيَّ إن في تاريخ الحياة سؤالاً لم تزل تأقيه أطلع الناس في كل عصرٍ من عصورها وما إن تُصيبُ له جواباً مُقنعاً لأن الطمع ليست له طبيعةٌ محدودة فهو يرمي بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جواباً عليه غير محدود .

هذا السؤال واحدٌ من ثلاثة هي حقائق الانسانية الضالة عن الانسان نفسه في غيب الله .

يقول الانسان ما هي الروح التي تُعطي الحياة ؛ وتقول آماله ما هو الموت الذي يستتاب هذه الحياة ؛ وتقول أطماعه وما هو الفقر الذي يجمع على الروح بين الموت والحياة ؟

كذلك تتساءل ما هو الفقر ؟ على أنه ماغير الفقر ذلك السؤال الذي نجد في كل نفس انسانية معنى من جوابه ؛ ولا غيب الفقر ذات الفبر المعنوي الذي لم يخلق الله نفساً من النفوس إلا ولها ميةٌ من الأمل في ترابه ؛ بلَى وإذا كان في لغات الأفواه انقطاعاً خالداً فاتماً هو الفبر ؛ وإذا كان في هواجس القلوب معنى خالداً دائماً هو خوف الفقر ؛ وإذا كان للدموع الانسانية مصيب واحدٌ ناتني اليه من جهات الأرض فانما هو بين شاطئين إن جاز

أن يكون أحدهما الحب فإن من المحقق أن أحدهما الفقر .
 إن هذه الأرض لتصبح في كل يوم ولا يمكن أن يقال
 بحق إن فيها عملاً إنسانياً عاماً غير طاب المال ، فأحر بها أن تسمى
 في كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانياً عاماً غير راجع
 إلى الفقر . ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس ، وهو
 قولٌ فلكي أو سماويٌ يصحُّ إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم
 خلقها الله أو على الأقل كما خلقها ، أما الحقيقة الأرضية فإنها تدور
 حول قرصين : قرص الذهب ، وقرص الذهب ، وبالله وللفقير !
 إنه دائماً في الجهة المظلمة

الفقر متى ألقيته سؤالاً عاد اليك بجوابٍ نفسه لا أنه
 فصلٌ من كل عملٍ كالشتاء فصلٌ من كل سنة . وليس في الناس
 جميعاً من يصدق إذا ادعى أنه لا يعرف الفقر غير اثنين
 لا خير فيهما : غنيٌ جنٌ من فرط الغنى ، وفقيرٌ جنٌ من فرط الفقر .
 فالأول لا يعرف هذا الفقر في جنونه لأنه جنٌ بغيره ، والثاني
 لا يعرفه لأنه جنٌ به . ولكن من هو الفقير ؟

من هو هذا الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى
 إنه ليجهل نفسه . وأينما يولَّ وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم
 فأرؤا رموسهم ، وصعروا خدودهم ، وأمالوا أعناقهم ، حتى
 كأن كل رأسٍ في التواء عنقه من الألفة والاستكبار ، يمثل

علامة استفهام أقامتها الحياة في وجه هذا المسكين أو يُقيم
علامة إنكار . . . ؟

من هو هذا الحي الذي تنكّرت له الدنيا حتى أصبح فيها
كأنه نوعٌ شاذٌّ من الخساق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة ،
ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنى ؛ فقضت عليه شرائعُ
الاجتماع أن ينفق من حياته أضعاف ما يكسب حياته ؛
فهو إذا كدح في العمل طوال يومه ، فقوت هذا اليوم عايه
كثير ؛ وإذا لم يجد ما يطعمه الجوع فأطعمه من جسمه ، فذلك
عليه يسير ؛ وإذا سال في الشمس وجحد في البرد فهو عند
الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأنه فقير . . . ؟

ومن عسى أن يكون هذا القوي الذي يختصمه الاجتماع
كله ويخشى أن يرتفع فيكون « قاضياً » عليه ، يأخذه اليوم
بالجناية وهو الذي أوحاها بالأمس إليه ؛ ومن هذا الذي يرى المجتمع
أنه إذا قدّر السرابعة أن تأخذ في قبر فلن تدفن إلا في هامة
من مقامعه ، وإذا حكّم الله على عصرٍ من عصور الجبابة
بالسوق فلا تكون المسنقة يجذعها وحباً لها إلا من ذراعيه
وأصابه . . . ؟ (١)

(١) كذلك وقع في روسيا السلافية وسيقع في غيرها وغيرها . ومتى

لم يؤمن العبي كافر المتمر . . .

من هو الذى يجف ريق الأرض لو جف عرقه من ترك
العمل ، ويخيب أمله مع ذلك فى كل غنى وهو نفسه للأغنياء
أكبر أسباب الأمل ؛ يدلون عليه بالغنى ولولا أن فى فضتهم
عنصر من دمه القسيم لما وجدوا لها قيمة ، ولو لم يكن فى ذهابهم
روح من دمه الكريم لما عد أفضل المعادن الكريمة ؟
قال « الشيخ علي » : ذلك يابى هو المدرج فى أكفان
النسيان ، الذى ليس له فى الناس الا « منكّر ونكير » ؛ ذلك
هو البائس فى بنى الانسان ، الذى يكتر عايه القاييل ويقل منه
الكثير ؛ ذلك هو المتناقض فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه
صغير ولا يكبر أن يقال فيه كبير ؛ ذلك هو الذى يشبه أن يكون
عماه حركة فلكية فى الأرض لآلة الغنى . ذلك كاه
هو الفقير .

ويا لله ما تحمل الأرض انسانا واحدا لا يخفى عادية الفقر ،
ولا يتعوذ بالله منه ، ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة
قبل الآخرة . يقوم الفقير بين حسابها ، وعذابها ، واستعيز برحيمها ،
من جحيمها ؛ ويفر من أمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، وفصلياته
التي توويه ؛ ويضع فى ميزانها المنسوب آماله ، فلا يزن إلا أعماله
ويستصرخ كل من يمر به فلا يسمع الا فائلا يقول نفى نفى ..
فينظر فاذا هو فى الناس ضائع حتى لا يعرف له محالا ، ومنفرد

حتى لا يجد بينهم اشخصه ظلاً ؛ واذا هو بالسماء وقد التهب
 باقذارها حتى كأنها في عينه جرة من البرق الخاطف، واذا الأرض
 قد نارت بأهاها كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف ؛
 فإن أقبل على الناس فرُّوا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشى وان
 استصبر خيم نفروا كأن في صوته فزع الرعد القاصف .

يا الله متحمل الأرض الامن بعرف هذا كله من الفقربل
 أشد منه ثم يبقى الفقير ويالكف أرضي وسماي عليه — كأنه
 مسألة في حساب الناس لا هم لهم فيها الا كثرة الطرح والضرب
 ثم الغاط في النتيجة . . . ! . . . وتتحاز طبائع الناس كلها في جهة
 والفقير وحده في جهة حتى لا يرى هذا المسكين في العالم على سعته
 خير اثنين ؟ هو واستبداد الغنى ؟

نرى أين تكون نرائع الآداب إذن ؟ ها هي في ضمائرنا
 أم هي في كتبها أم هي في تاريخها الميت القديم ؛ أم صار الحق كله
 إنسانياً بحيث إلى عايك ولك على وابس لله عاينا نىء ؛ وقصصنا
 أنفسنا من السماء وقتلنا الروابط التي كانت تربطنا بها
 ونبدناها فرئت سم رائت فاذا هي على أجسام الفقراء تلك
 الأسماء البالية ؟

إن هذه الحموى متى أصبحت انسانية محضه ايس فيها
 لله نىء فكل درء بوضع في بد الانسان يجعل فيها

عقلاً يحكم على عقله ، وكل رغبة يستقر في معدته يخلق فيها ضميراً يستبد بضميره ؛ فينفصل الانسان من الله ويتعد عنه بمقدار ما يقرب من الغنى . وحسبته يومئذ في اعتباره بعيداً جداً عن الله ورحمته أن يقال أن بينه وبين ربه مسافة ألف دينار . . . ذلك بأن عدل الله يقضى أن يكون للفقير قسمة من الثروة وانما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساس في ضمائر الأغنياء والأدلة على هذه القضية (قضية الحقوق الانسانية) كثيرة تفوت الحصر ، لأن كل صاحب ربا قد جمع ماله من السحت ومن استشكل الناس إنما هو في نفسه دليل عليها . واعمرى إنه ليس أحد أخيب رجاءاً ولا أحق بأن يخيب ممن يسأل الله عليك على الربا الذي يستنسبت دراهمه بين الأحران والدموع إحساناً لوجه الله ، فان هذا الذي لا يعرف الله فيما يأخذ كيف يعرف الله فيما يعطي ؟ (١)

(١) لسنا نرى في الربا خيراً اجتماعياً خالصاً ولا نفعاً إنسانياً صحيحاً على الإطلاق وما هو الا محق الله للانسان ومحق الانسان لنفسه . ولكن كثيراً من الرذائل الانسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله في شرائع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرائع فاستكان اليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم ولعل حكمة تحريم الربا في الاسلام أنه في الاكراه كل لبقية الفمير وانتفاع باضطرابه وارهاق له بمضاعفة الحاجة عليه وهي كاهها ادوات قتل اجتماعي

قال « الشيخ علي » : ولماذا نرى يابتي جفأة الأغنياء
يخشون من الفقر على أنفسهم وأهليهم فقط ولا يخشون منه
على الفقير ؟

أظنهم يقولون إن في الأرض شيئين بمعنى واحد . قبور
الأموات في بطنها وأكواخ الفقراء على ظهرها . وليس من
فرق بينهما في النسيان لأنه يشماهما جميعاً وإنما الفرق بينهما
في حالتهما المتناقضتين ، هذا قبر ميت وهذا قبر حي . نعم
صدقوا وبروا وقالوا حقاً ، أليسوا جفأة القلوب غلاظ
الأكباد ؟ والافا الفرق بين موت منسي كحوت الغريب وحياة
منسية كحياة الفقير الا على الفرق الذي لا يبالي به هؤلاء الأغنياء
حين يكون لأحدهم ظاهر حي وضمير ميت ؟

وأحسب أوائك العائنة يقولون : إننا نرى الفقير لا يملك
من الأرض شيئاً محدوداً بل هو يملك أرض الله كلها بمحدودها
الأربعة فققر فلان الناجر الغني مثلاً ليس هو في الحقيقة
أن لا يصيب القوت ولا يجد المأوى كغيره من الفقراء ؛ وإنما
هو المتاجرة في الآمال ، بعد الأموال ، وقبض الربح بعد
قبض الربح ؛ واستقبال الابواب والجدران ، بعد استقبال الاصحاب
والجيران ؛ وهلم من هذا الباب الذي يفتح من جهة الغنى على
سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة : وهي الفقر والمذلة والالم .

وانما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم
خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبه من قلوبهم ، ويكون
من أهل السعادة لو خرج هو أيضاً من الدنيا.....
قتل الانسان ما اكفره : لو أن غنياً فقد جبلاً من
الذهب وأصاب رغيماً يتبلى به لكان ذلك أبسر في مذهب
الانسانية من أن يذهب البائس المعدم فيتكفف الأبواب
ويستكف الناس^(١) . نعم لا يتخاض منهم رغيماً يمسيك به
الرمق على نفسه ويقيم منه باباً حاجزاً يمنع الجوع أن يدخل
اليه الموت وأن يخرج منه الروح . ولكن مصيبة الانسانية في
أهايا أن الله لم يخلق الا صنفاً واحداً من الناس على أن كل إنسان
يظن أنه ذلك الصنف الواحد فالغنى إذا تصور الفقر
وهو لا يزال في غناه لا يتوهم الا اختلال نظام الأقدار ،
واضطراب حركتي الليل والنهار ، بعد أن يهوى كوكب
سعد الذي يسلك من كل ذرة في أشعته دينار وهو
لا يرى بهذا الفقر الا أن نقمة هابطة من السماء ولعنة
صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشاخ في جو كبريائه
فاصطدما به فاذا هو مكيب للدين والغمم عند أقدام الناس
واذا هو فقير .

(١) استكف مدكفه لسؤال وتكفف الأبواب إذا وقف بها سائلاً

هذا هو الفقر في أوهامهم ولكن لاتنس أنه فقرهم فقط . . . فقر المال المترابط في مكانه أو الذهاب في حلق الأرض^(١) وبين أضلاعها ؛ أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهل باطل ودعوى ؛ يُزَنُّون بكل رِيبةٍ ويُتَقَرَّفُونَ بكل تهمة^(٢) إذ ينتحلون الفقر ويدعونه ليعادوا نعمة النني بالحسد ؛ فالجوع فقر ؛ والمرض فقر ؛ والتعب فقر ؛ والضجر فقر ؛ واشتهاء ما ليس لهم فقر ؛ وقلة الأصحاب فقر ؛ وحتى لو أن أحدهم سَخِطَتْهُ زوجته أنسب ذلك الى الفقر ؛ وبالجملة فكونهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر ؛ فإذا كان الفقر كل شيء عند هؤلاء الحقى فما هو الشيء الذى يسمى الفقر ؟

من أجل ذلك يابنى ترى الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفسهم لا يخشون منه على الفقير ، لأن هذا الفقير فى رأيهم قد أصبح شخصا آخر لاصاة لهم به ولا عهد فهو يكذب على الحوادث والحوادث تكذب عليه وجزاء سيئة سيئة متناهية فإذا انخدعوا له فبمقدار ما يتعجبون من سخافته ، وإذا أعطوه كان العطاء سخيفا بمقدار ما ينخدعون ؛ ولا ينظرون لأن الله

(١) أى مضايقتها وبخاريها وأوديتها والكناية بالأضلاع عما نقي من

مسالك الأمم (٢) يرون وتعرف بمعنى يرمى ويتهم

عليه ولكن لا أثره على نفسه إذ الحقوق عندهم حقوق إنسانية فهيئات يحتاج في نفس أحدهم أن لو شاء الله لوضعه في ثياب هذا الفقير ولوضع الفقير في ثيابه .

أترد مثل هذا الغنى الجلف المتسكع الى الدين ؟ انه هو في نفسه دين وشريعة أيضاً . . . أتبصره بالإنسانية ؟ فمن هو إذن ويلاك إن لم يكن من صميم هذه الإنسانية وعين أهائها بل إنسان هذه العين . أما الحق فأذكر بربك أمواله تعلم أن «الحق في يده» . . . هكذا هكذا يعطى المال أهله حتى فضائل غيرهم ويسلب الفقر أهله حتى محاسن أنفسهم . وهكذا لا تجد المال أبداً إلا نعمة ناقصة ولن تتم هذه النعمة إلا إذا رزق الإنسان مع الغنى أخلاقاً تكفيه شر الغنى . ومن أجل هذا كان من الأمور الطبيعية أن تجد العقل في إنفاق المال أشد ارتباكاً منه في جمع المال . (١)

قال « الشيخ علي » : ولا بد من صِلةٍ معنوية بين جميع الناس على ما يكون بين الإنسان والإنسان من التباين والاختلاف في كل شيء حتى بين الآخرين تايدها الأم الواحدة ، وهما مهما اتفقا في الحياة ومظاهرها فانهما لا بد هفتراق افتراق

(١) ولهذا صار مبدأ حكماء الأغنياء ان يحسنوا بكل أموالهم على

الإنسانية ليخرجوا من الدنيا فقراء كما دخالوها

الشَّدَّينِ الّذَيْنِ ارْتَضَعَا مِنْهُمَا الْحَيَاةَ . فَمَا عَمَى أَنْ تَكُونَ .
هذه الصلة العامةُ بين الناس ؟ تقول الشرائع إن الصلة التي
تجمع الناس بعضهم ببعض هي العدل ؛ وتقول العلوم إنها العقل ؛
وتقول الآداب إنها شيء من العدل والعقل يكون الانسانية
في الضمير ؛ وتقول الحياة إنها سبب الانسانية وهو الرحمة . ثم
يرعد صوتٌ إلهيٌّ يَقْصِفُ من جهة السماء التي هي مصدر العقل
والعدل والانسانية والرحمة فيصيح بكل ما في هذه الأشياء من
القوة ويقول كلاً ! بل هو سبب الرحمة وهو ظهر الانسانية وكمال
العقل وفضيلة العدل وهو الفقر .

من الذي ولدَ وفي يده قطعة من الذهب . ومن الذي مات
وفي يده «تحويل» على الآخرة (١) ؟ لقد وسَّعت الخرافات كلَّ
شيءٍ إلا هذا . فما انا نتجِدُ في البدءِ والنهاية ثم نختلف في الوسط ؟
ذاك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتنا في طريق الله ، ولكن
الوسط مدرجة بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا ، وكامة واحدة
هو طريق بعضنا إلى بعض وحيثما التقى الانسان بالانسان
فأما أن تنتهي المنفعة بالمنفعة والا فالمنفعة بالمضرة ؛ فلا بد من
انتفاع أحدهما أو كليهما . ومن ثم يقول البخلاء ما الذي ننتفع به
من رحمة الفقير . وما له يريد أن يتحسسنا كأنه روح الجذب ،

(١) المعنى كما هو ظاهر تحويل واجب الدفع

وَأَنْ يَتَعَرَّقْنَا كَأَنَّهُ رُوحُ الرُّضِ^(١) وَمَا لَهُ يُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نُسِيءَ
 مِنْ أَجْلِهِ الْمَسَّ فِي أَمْوَالِنَا كَأَنَّهُ رُوحُ الْإِفْلَاسِ ؟ أَوْ لَا يَكْفِيهِ أَنَّنَا
 لَا نَرِزْؤُهُ شَيْئًا وَأَنَّنَا نَفْضِلُ عَلَيْهِ فَنَعْتَدُ الدَّرْهَمَ الَّذِي نُسْهِكُهُ
 عَنْهُ كَأَنَّهُ دَرْهَمٌ أَخَذْنَاهُ مِنْهُ وَبِذَاكَ لَا يَضُرُّنَا وَلَا نَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ ، وَمِنْ
 الْجَهَةِ الْأُخْرَى لِهَذَا الْقِيَاسِ يَكُونُ قَدْ نَفَعْنَا وَنَفَعْنَاهُ بِلَا شَيْءٍ . . . ؟
 قَاتِلَ اللَّهِ الْبَخْلَ وَقَبِيحَهُ فَمَا هُوَ إِلَّا حِرْصٌ عَلَى الْمُنْفَعَةِ
 يَشْبَهُ عِبَادَةَ الْوُثْنِيِّينَ لِكُلِّ مَا تَوَهَّمُوا فِيهِ الْمُنْفَعَةَ ، وَإِنْ كَانَ لِلْحَوَاسِّ
 نَوْعٌ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ فَكُفْرُ الْيَدِ فِي إِمْسَاكِهَا . وَإِنَّ اللَّهَ لَرَحِيمٌ إِذَا
 لَمْ يَعَاقِبِ الْبَخْلَاءَ بِمَا يَعَاقِبُونَ بِهِ النَّاسَ فَالْيَسَّ بَيْنَ كُلِّ بَخِيلٍ وَبَيْنَ
 الْهَلَاكِ إِلَّا أَنْ يَنْقُلَ اللَّهُ « الْإِمْسَاكَ » مِنْ يَدِهِ إِلَى جَوْفِهِ
 عَلَى أَنْ الْبَخْلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَقِيَّةً مِنَ الْوُثْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ بَعَيْنِهَا فَهُوَ عَلَى
 كُلِّ حَالٍ نَقْصٌ مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
 ثَوَابَ مَا أَنْفَقُوا مَكْفَأَةً عَلَى فَضِيلَةِ الْإِحْسَانِ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ
 قُضِيلَةُ الْإِحْسَانِ ؛ نَحْمُ أَنْ يُخَافَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْفَقُوا ضَعْفًا مُضَاعَفَةً
 إِذَا الْمُحْسِنُ لَا يَجُودُ بِدِرَاهِمِهِ عَلَى اللَّهِ وَلَكِنَّهُ يُقَرِّضُهُ إِيَّاهَا قَرْضًا
 حَسَنًا مَتَى وَضَعَهَا فِي يَدِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفَقِيرَةِ . فَمِنْ أَمْسَاكَ عَنِ الْإِحْسَانِ

(١) تحيقتهم السنة أى الجذب اذا نفصتهم وجارت عليهم وتغرق

العظم اذا لم يبق عليه شيئاً من اللحم

بخلاً وإنما يشكُّ في وعد الله ، والألفى قدرة الله ، والألفى الله نفسه ؛ فأكبرُ البخل عند أكبر الكفر وأصغرُهُ عند أصغرِهِ .
ويوم يخرج الإيمان من قلوب الأغنياء تخرج أرواح الفقراء من أجسامهم فيموتون بالجوع وبالعرى وبالمرض وغيرها من أسباب الموت وكلها مظاهرٌ متعددةٌ لسبب واحدٍ هو في الحقيقة كفرُ الأغنياء كفرًا في الضمير لا كفرًا في اللسان .

ومن هنا يابى لا تجدد النكير في أى عصر من العصور إلا جهة من الخلال في نظام الاجتماع الانسانى كما أن البخل جهة من الخلال في نظام النفس الانسانية . والفراغ الذى يجده الفقير في بيته إنما هو موضعُ النعمة الضرورية التى يخل بها الغنى وهو في الحقيقة موضعُ التفكك أو الكسر في الآلة التى تدبرها سريعة الاجتماع .

الانسان إنما خُلِقَ اجتماعياً وهو بشخصه لا قيمة له ولا منفعة إلا حيب يكون شخصه جزءاً من مجموع ، لأن اليد الواحدة فى الجسم ولو كانت بد مملكت وكان فيها زمام العالم فانها لا يفارفها عيبٌ أخيراً المفتوحة .

وكلُّ خالٍ فى النظام الاجتماعى فانما مرَدُّهُ الى طُغيان بعض الأفراد وجنوحهم الى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبر والعظمة بحيث توازن المجموع كله أو أكثر

المجموع ؛ يَبْدَأَنَّ هَذِهِ الْمَوَازَنَةُ الْفَرْدِيَّةُ مَتَى اتَّفَقَتْ كَانَتْ إِخْلَافًا بِالْمَوَازَنَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهَا تَجْعَلُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ هَذَا الْفَرْدِ زَلْزَلَةً فِي الْمَجْمُوعِ كَالثَّقَلِ فِي إِحْدَى كِفَّتَيْ الْمِيزَانِ إِنْ خَفَّ سَقَطَتْ الْكِفَّةُ الْأُخْرَى وَإِنْ ثَقُلَ شَاقَتْ وَهُوَ السَّقُوطُ إِلَى فَوْقِ ... وَالْمَوَازَنَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِذَا تَطَبَّعَتْ قُوَى الْمَجْمُوعِ (١) فَانْدَفَقَتْ فِي تِيَارٍ وَاحِدٍ إِلَى جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ . وَإِذَا كُنَ الْمَوَازَنَةُ الْفَرْدِيَّةُ لَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا إِذَا جَاءَتْ مِنْ عَكْسِ هَذِهِ الْجِهَةِ فَتَصْدُقُ قُوَّةُ الْمَجْمُوعِ وَتَبْقَى دَائِمًا ذَاتَ قُوَّةٍ عَلَى صِدْقِهَا . وَمَنْ أَرَادَ الْغَايَةَ فَإِنْ ضَعْفَ خَصْمُهُ يُعْطِيهِ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا تُعْطِيهِ قُوَّةُ نَفْسِهِ ، وَلَا يَكُونُ ضَعْفُ الْمَجْمُوعِ إِلَّا مِنْ حَصْرِ الشَّخْصِ الْعَظِيمِ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَنَفْسِهِ وَضَمِيرِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ الْفَرْدِيِّ لَنَكُونُ مِنْهُ الشَّخْصِيَّةُ الْمَهَائِلُ الَّتِي نَسْتَبِيحُ مَا كَانَ فِي نَارِيخِ الْوُثْنِيَّةِ مِنْ شَخْصِيَّاتِ الْآلِهَةِ وَأَنْصَافِ الْآلِهَةِ .

وَقَدْ اضْطُرَّ النَّاسُ آنَ ذَلِكَ مِنْ عَهْدِ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى نِظَامٍ أَوْ تَرِيقَةٍ إِلَى ابْتِدَاعِ الْوَسَائِلِ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ قُوَّةِ الْفَرْدِ وَقُوَّةِ الْمَجْمُوعِ حَتَّى لَا يَسْتَشْرِىَ الدَّاءُ (٢) فِي الْمَوَازَنَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فَيُفْسِدُهَا وَيُؤْفِقُ الْخِلَالَ فِي نِظَامِهَا ، وَلَكَيْلَا يَكُونَ خَيْرَاتُ الْمَجْمُوعِ كَالْهَيْبَةِ فِي مَعِيدَةٍ

(١) مَنْ قَوْلُهُمْ تَطْبَعُ الزَّهْرُ إِذَا اجْتَمَعَ مَاءُهَا وَعَلَا فَادْنَقَ أَهْ كَادَ

(٢) اسْتَشْرَى الدَّاءُ إِذَا بَرَى فِي الْجَسْمِ

واحدة، وحتى لا يبقى الناس أرقاماً بعدهم الغنى المستبد كما يعد
دراهمه لأنهم ثروته الحية .

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تزل إلى عهدنا
عهد الاشتراكية العامة ^(١) الأنورات هي مما كانت فانها أشبه
نبيء بجسود الحيوان إذ يحمي أنفه فيجتمع ثم يستترسل في
جراحه ثم يشتد حتى يعتز صاحبه على رأسه ويملك نفسه منه
نم إذا؟ ثم يسكن مسكرها بعد أن جمع راضياً فان لم يسكنه الألم
من صاحبه أسكنه النعب من نفسه . لأن النخاص من نبيء في
فطرة الانسان وانتزاعه من مغرزه في نفسه لا يكون بالتخلص
من إنسان بعينه .

ومن هذا يابى ترى أن الانسان لا يعيش فرداً ولكنه حين
يموت يموت فرداً . فاذا رأيت فقيراً منبوذاً من الاجتماع، منفرداً عنه
لا يسأله في عمله وعبدته ، بل كأنه يعيش في بقعة مجهولة من

(١) ليس في الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الركة في الاسلام .
وفي هذا الدين الاسلامي العظيم أصول انسانية عامة لا بد ان نتنسلها لام
فتكون سائماً في إقامتها عليه وظهوره على الدين كله ومن هذه الاصول الركة
فلوانه احد ربع العسر (اثنان ونصف في المئة) من ثروة العالم بأجمعه كل سنة
وحمل في مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا ولكن الاشتراكية تحاول
محق الربا بحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها

الحياة ، فاعلم أن إهمال ذاك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعي .
ههنا قاتلٌ ومقتول . لم يأخذ القاتلٌ بحق من الحقوق ولا ثأراً
لنفسه ولا قتل بيده ، أما المقتولُ فإنه لم يُقتلْ في إنم اجتراحه
ولا هو جنى على نفسه الضعف الذي أرهقه وبلغ منه حتى جعل
إهمال القوى إياه كأنه حُكِّمَ عاياه بالقتل . فترى على من
تكون هذه التبعة وهي بالتحقيق ليست على القوى لقوته
ولا على الضعيف لضعفه ؟

هناك اثنان رجلٌ في الماء وآخر على الشاطئ . فأما الذي في
الماء فليس بينه وبين الموت غرقاً الا نفسٌ واحدٌ مبتلٌ
يَنسَلُ بالماء من حلقه الى رثيته وهو يرى بعينه الموت دائماً في
حفرة قبره المائي فليس الموج الذي يَتَكَفَّأُ به ويتناثر من
حواليه الا ما تُزيِّره يدُ جبار الموت من غبار ذلك القبر
وتَحْنُوهُ في وجهه بنزق وغضب . بعيدٌ عن الأحياء حتى يبعد
عن أن يكون له قبرٌ بينهم ؛ ولا صلة بينه وبين الحياة الارضية
الا نظراتُ ذلك الرجلِ القوى الذي يترأى في عين الغريق
كأنه صخرة راسية على الشاطئ لها قوة وليس لها إرادة .
ولكن هذا الذي يشعر بصلاية الارض تحت قدميه ويحسُّ
القوة من يده وعضلاته بشعراً أيضاً بمعنى من الصلاية في قلبه ، وقما
جاء الى الشاطئ ليتنفس من تلك الذسّمات التي يتنهد بها صدر السوء

فتكون أرواحا الأمواج تبعث فيها حركة الحياة . ماله ولهذا المنظر ؟ سوادٌ يطفو على الماء كأنه هنةٌ من المتاع الخلق أو حذاء قديم أو ريشٌ تحسّر عن طائرهِ (١) أو رأس رجل يغرق؛ وما دفعه بيده إلى الماء فيكون حقا عاياه أن يستنقذه ، ولا كان الغوص من صناعته فيعتمل في إخراجهِ ليخرج معه أجسر عمله ، وهو قوى ولكنه قوى لنفسه لا للضعفاء ، وقد جاء ليروح عن نفسه وإيقاظ الغريق عمل آخر وربما أنشبهه في حلق الموت . أخذ فيما جاء له وما زال يمشج في جلده ويتنفس مل صدره من الهواء ومن زفارات الانسانية التي تنشق لها غيظاً ومن لعنات ذلك الغريق الذي بدأت حياته تذوب كما ينمات المسبح في الماء (٢) حتى أن له أن ينصرف وترك الرجل يغرق وهو يقول لا بأس أن ينقص عدد أهل الأرض واحداً فهم كثير . . .

تُرى على تكون هذه السبعة أيضا

إذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا ذلك فانكم تستطيعون أن تحققوه بدون أن تكونوا شرطاً (٣) أو قضاة أو أهل قانون أو رجال فاسفة ولكن بأن تكونوا من ذوى الانسانية فقط .

(١) أى سقط وتناثر (٢) انماث الملح في الماء ذاب

(٣) هم رجال البوليس والواحد شرطى

فان الانسانية لا ترى في الارض الا الضمائر وما هذه الأجسام
الا أدوات صناعية ركبت هذا التركيب لتصلح لحياة الضمير؛
فالرجل قد مضى برى اليد ، برى القوة ، برى العقل ، إذ هو لم
يقتل ، ولم يجن على القتل ، ولم يحتل لقتله ؛ ولكن الانسانية
حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول : أيها الطيبُ وأيها الكريمُ
وأيها الشقي وأيها السافلُ ، تصيح بضمير هذا الرجل قائلةً أيها
القاتل !

إذا لم يُقرَّ الأغنياءُ لأنفسهم بالضمائر ولم يَاجتقوا بها
التبعية التي تناسبها فهل هم في ذلك الا كالمجانين لا تقر لهم
الشرائع بالعقول وتخليهم من تبعة ما يجنون على العقلاء لأنهم
مجانين . وكيف ترى ذلك الغنى الفظ الذي يهر في وجود
الفقراء ويؤمر مجرعايهم كأنه يأنسهم باغة من لغة الكلاب...
ولا يفتأ يقذفهم بالألفاظ الجاسية المؤلمة كما يقذف المجنون
بالحجارة... وإذا أعطاهم فأما بعطيهم بقبضة فارغة... وهو
لا يوفرا بدا الا من فوقه كأنه لا يرى في الدنيا كلها أسفل من
نفسه... ولا يبالي الابن يطعم فيه كأنه جالس في (مكتب أحد
المخدمين)... وقد تساوى في الدناءة والكآف بالدنيا وقذارة
الطباع ظاهرة وباطنه كأن ضميره ليسه مقلوباً... وصار أمر
رضاه وغضبه وإحساسه وحياؤه موقوفاً على ما يكون من أمر

المعاملات كأن أخلاقه ليست في نفسه ولكنها في أيدي الناس .
أفليس مثل هذا الغني الذي رجالاً عاقلاً ؟
بلى وأنه لا عقل من كل من يمدحه ويزكّيه ولو كان هذا
المُثني عليه أكبرَ علماء الاقتصاد ، ولكنه على ذلك مجنون
الضمير بحية ، لا يعقل إلا بحواسّه .

ولو أنصفت القوانين لما آبست مثل هذه الحرية الإنسانية
على رذيلتها ولجملت من نصوصها القاطعة ما يكفح مثل هذا
الغنى^(١) ويتكفاه بلجامه لأنه في الحقيقة ليس رجالاً ولكنه
دابة اجتماعية .

« قال الشيخ على » : ومن بديع حكمة الله أنه وضع للإنسانية
أصلاً من أصول نظامها في ضمير الإنسان فترك له أن يقتري
ما شاء من الإثم والمنكر ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة
الخير والشر بحيث يكون له من الذنب نفسه العقاب على الذنب نفسه ،
حتى إن شرّ المجرمين ليستعين على مقارفة جرمه بإقناع الضمير
بدياً^(٢) وأخذه بالحجة من هواه فيخاطر في نفسه ما ينزوبها
كالسجاعة والنخوة ، أو ما يتوهج بروح الغضب في دمه

(١) كفح الدابة إذا تلقى فاهها بالجام .

(٢) في بدء الامر

كالانتقام ونحوه ، أو ما يطمئن له الضمير في معنى الجناية كمدافعة
الضرر وما إليه .

وبالجملة فإن أول ظلمه أن يعتقد ظلمه عدلاً أو شيئاً
بالعدل حتى لا يلتوى عليه أمر نفسه إذا أخذ له ضميره فان
اضطراب هذا الضمير يتصل اتصال الكهرباء بأيدي
المجرمين فاذا هو فيها شلل ، وبأرجاهم فاذا هو زلل ، وبنظامهم
العصبي فاذا هو خلل ، وبعقولهم فاذا هو اهلل ، والخبيل واذا لم يفلح
الجاني في إقناع ضميره أو التلبيس عليه تخلص منه ففصل بينه
وبين العقل بالسكروما هو في حكمه حتى لا يشهد من أمر شيئاً .
أفلا تجد في تخديراً كثر المجرمين لضمائرهم ساعة الجناية دليلاً على أن
الضمير الذي يشهد الذنب إنما يتلقى العقاب عليه ، ولماذا تدفع الجريمة
الى الجريمة غالباً ؟ أليس ذلك لأنها إنما تقتضى عقابها الطبيعي
نم ماذا يكون بعد أن يضرب الشقي تلك الحاسة
الروحية التي نسميها الضمير ويرميها بالشلل ؟ إنه ينحط
درجة واحدة ولكنها درجة الضمير التي لو جازها الحيوان
أصار انساناً ولو نزل عنها الانسان لعاد حيواناً ، فلا يبقى فيه من
نم إلا الفطرة الحيوانية التي تجعل عقل الحيوان مرة في القوة
ومرة في الضعف ، فان أحس القوة على خصمه كان العقل
في الظلم بكل ضروبه وأشكاله وأبى هذا العقل الحيواني أن

يَتَرَخَّصَ فِي نَبِيٍّ (١) هُوَ مِنْ حَقِّهِ بِالْقُوَّةِ ، وَإِنْ أَحْسَنَ مِنْ
نَفْسِهِ الْعَجْزَ وَالضَّعْفَ وَرَأَى أَنَّ لَا قِبَلَ لَهُ بِخَصْمِهِ فَكَفَى بِاتِّقَاءِ
الظُّلْمِ عَقْلًا . .

يَا بَنِيَّ ! أَنْ أَفْقَرَ الْفُقَرَاءِ لَيْسَ هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِذَاءَ بَطْنِهِ
وَلَكِنَّهُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ غِذَاءَ شَعُورِهِ ، فَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ مَعَ
جُنُونِ الضَّمِيرِ وَجَفْوَتِهِ وَمَرَضِهِ سَعَادَةً وَرَاحَةً لِأَنَّ لَذَّةَ الْمَالِ
لَا تَتَجَاوَزُ الْحَوَاسَّ الظَّاهِرَةَ فَهُوَ يَبْتَاعُ لَهَا كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا تَشْتَهِي
وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنِيلَ الْقَلْبَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا جَاءَهُ بِالْخَيْرِ
وَالْفُضِيلَةِ .

وَالْغَنَى الَّذِي يَمْنَعُ الْفُقَرَاءَ مَا لَهُ قَدْ يَزِيدُ فِيهِ وَلَوْ حَكْمًا بِمَقْدَارِ
مَا يَمْنَعُ ؛ بَضْعَةً دِرَاهِمًا أَوْ بَضْعَةً دِينَارًا ؛ وَلَكِنَّهُ يَزِيدُ ضَمِيرَهُ جَفَاءً
بِالْقَسْوَةِ وَالْغِلَظَةِ وَنَسْيَانِ الْفُضِيلَةِ . وَلَا يَزَالُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَمُرَّ بِهِ
يَوْمٌ يَفْقَدُ فِيهِ ضَمِيرَهُ كُلَّ شَعُورٍ بِالْخَيْرِ فَيَفْقَدُ مَعَهُ كُلَّ شَعُورٍ بِلَذَّةِ
النَّفْسِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ الْمَعَانِي إِلَى مَعْنَى السَّعَادَةِ .

وَيَوْمَئِذٍ لَوْ اشْتَرَى كُلُّ لَذَاتِ الدُّنْيَا بِمَالِهِ مَا زَادَتْهُ إِلَّا أَلَمًا مِنْ
الضَّجَرِ وَخَجَرًا مِنْ الْأَلَمِ لِأَنَّهُ فَقَدَ قُوَّةَ مَنْ ضَمِيرُهُ تَقَابُلُ الْقُوَّةِ الَّتِي
يَفْقَدُهَا الْمَرِيضُ مِنْ مَعِيدَتِهِ . فَايَنْظُرُ الْفَقِيرُ الْجَائِعُ وَقَدْ أَخَذَهُ

(١) تَرْخَصَ فِي حَقِّهِ إِذَا أَخَذَ مَا طَفَّ لَهُ وَلَمْ يَسْتَنْقِصْ

كَلَبُ الْجُوعِ وَسَطَعَ فِي عَيْنَيْهِ وَهَجَّهُ وَدَارَتْ بِهِ مَعْدَتُهُ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ — إِلَى رَجُلٍ غَنِيٍّ مَمْعُودٍ ^(١) فِي كَفِّهِ مَعْنَى
الْحَيَاةِ وَفِي جَوْفِهِ مَعْنَى الْمَوْتِ ؛ وَقَدْ ابْتَنَعَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ مَعْدَةُ خِيَالِهِ
الَّتِي لَا تَشْبَعُ لِأَنَّهَا لَا تَنَالُ شَيْئًا ، وَأَسْرَفَ بِالْمَالِ قَدْرَ ذَلِكَ حَتَّى
اسْتَجْمَعَ الْكَثِيرَ الطَّيِّبَ ، ثُمَّ انْقَابَ إِلَى دَارِهِ بَعِينَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ
تَكَادَ اشْعَثَهَا تُنْضِجُ الْغَدَاءَ مِنْ حَرٍّ نَظَرَاتِهَا إِلَيْهِ .

سَلُوا صَاحِبَنَا الْفَقِيرَ يَقُولُ لَكُمْ أَيْ لَذَّةٌ يَاقُومُ تَكُونُ فِي غَيْرِ
هَذَا الطَّعَامِ الَّذِي يُقْتَلُ بِهِ دَاءُ الْبَطْنِ ^(٢) وَتَتَفَتَّقُ عَلَيْهِ الْخَوَاصِرُ
شِبَعًا وَسَمْنَةً ، وَهَلْ هَذِهِ الْأَرْوَاحُ مَائِدَةٌ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ فِيهَا مِمَّا
تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَتَقْرَأُ الْأَعْيُنُ ؟ نَحْنُ سَأَلُوا الْمَمْعُودَ الْمَسْكِينَ
يَقُولُ لَكُمْ وَهُوَ صَادِقٌ صِدْقًا يَتَمَنَّى بِمَا مَلَكَتْ يَدَاهُ مِنَ الدُّنْيَا
لَوْ أَنَّهُ كَذِبٌ . يَقُولُ لَكُمْ تَاللَّهِ مَا أَجْدُ فِي هَذَا كَاهٍ وَلَا فِي بَعْضِهِ
مِنْ لَذَّةٍ وَلَا سَعَادَةٍ ، وَلَوْ أَبْجَحْتُهِ جَوْفِي لَكَانَ الْمَوْتُ بَعِينَهُ .

إِذَنْ فَلَا بَدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِنْسَانِيٍّ مِنْ حَقِيقَةِ بَاطِنَةٍ فِي نَفْسِ
الْإِنْسَانِ تَعْطِيهِ بِصِحَّتِهَا أَوْ مَرْضَاهَا قُوَّةَ اللَّذَّةِ أَوِ الْأَلَمِ ، وَبِهَذَا يَقْضَى
الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ كُلُّ ذِي حَقِّ حَقُّهُ بِالنِّصْفَةِ وَالسُّوِيَّةِ لَا فَرْقَ

(١) مريض المعدة

(٢) داء البطن هو الجوع

بين الغنى في غناه وبين الفقير في فقره فلكل منهما لذة وألم. ولعلنا لو سألنا أغنى الناس عما هي لذة الغنى لرأيناها في حقيقة التماسه النفسية كأفقر الناس اذا أجابنا عما هو ألم الفقر .

وقد فُطِرَ أكثرُ الخلق لطبيعة الخوف المتمكنة منهم على أن يتسعوا في فهم الآفات وحدها حتى صار الوهم الخيالي أكبر الآفات الحقيقية ؛ فالفقير الذي لا يفهم حقيقة الفقر يتألم بإدراك وهم وفلسفة إذ يقيس حاضره على ماضيه وعلى ماضى غيره من الفقراء ، و يقيس مستقبله على حاضر الأغنياء ومن في حكمهم فقط ؛ وبهذا يكون ألمه عملاً عقلياً في شيء موهوم فما دام يتمنى أكثر مما يستحق فهو يتألم بأكثر مما يستحق . ولو تأمل الناس رأوا أن نصف الفقر فقر كاذب . فآه لو كان مع ضعف الفقر قوة الإرادة ؛ إذن لو وجد الحكماء في الأرض شيئاً حقيقياً يسمونه الغنى

أيها الناس : ان الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده ورُبَّ غنى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقرا . وانظروا فيهما بأفكار آلهية لا تطلب إلا الفضيلة التي يمكن أن تكون بلائمن ولا يمكن أن يكون شيء نمناً لها . انظروا إلى بعض الأغنياء الذين تموت في قلوبهم كل موعظة إنسانية أو آلهية فلا تُثمر شيئاً حتى اذا ماتوا نبتت كلُّها من تراب قبورهم

فأمرت لنفوس المساكين والفقراء عزاءاً وسَلوةً وموعظةً من
زوال الدنيا . انظروا بعين الحقيقة التي تعطي هذه الطبيعة النظرَ
فتعطيها محاسنُ الطبيعةِ الفكر .

أنظروا في باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله ، وبالحقيقة
التي هي من نور الطبيعة ، فانكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن
حقيقة الفقر الا بمقدار شبرٍ واحد ؛ هو مِلٌّ هذه المعدة .

الفصل الرابع

(مسكينه مسكينه)

قال « الشيخ علي » : واسمع الآن يا بني ما أقصُّ عليك
فاني مُحدِّثُكَ بمنبر ليتني ماعمتُهُ بل ليتني اذ عامتُهُ ماوعيته ،
وليتني اذ وعيته ما أثبتته ولا تفدت فيه كما نفدت في .

ولسكن الحياة كما تقضى علينا أن نشهد أموات الأحياء
ونحماتهم الى أبواب الآخرة من تلك الحُفَر ؛ تقضى علينا
كذلك أن نشهد أحياء الأموات من أهل الرذائل ونحمل
من أخبار ضمائرهم الميتة الى أبواب السماء في أنفسنا .

فوهاك أيتها الحياة الدنيا . تقتلين بالشر وتجرحين بأخباره
ولا تؤتين عسل الحكمة الا بعد لسع كثير

وقد علمنا أن كل شيء يسير فأنما هو يذهب في طريقٍ
يتهدى أو يعتسف^(١) ؛ وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد
له طريقاً في هذه الحياة الا من ضمائر أهل الخير ، وبهذا يضرب
الشرُّ أهله وغير أهله

(١) على هدى أو غير هدى

كانت لنا يابني في هذه القرية النضرية فتاة بائسة ضاق
بها العريض من هذا البر نخرجت الى بعض المدن تستطعم
الحياة . فحدثني أنها استضاقت حتى كأنما كانت تنفذ الى
رزقها من شقي في صخرة في غار في جبل . ثم استضاقت
فكأنما ولجست هذا الغار فأنحدرت تلك الصخرة فسدت
عليها فلا وراء ولا أمام وأعجزها حتى المَعاش المُلَفَّق (١)

وخرجت يوماً على الناس وكأنها لقذارتها قطعة من الحياة
البالية مدرجة في بعض الأطار ، أو روح من الهواء تمشي
ساكنة في أودية من الغبار ، وما تلمح العين تلك البقع
المنتشرة في ثيابها ، كأنها أرقام للفقر يعد بها ليالي عذابها ،
وهي عالم الله بقع ، أشأم منها أنها في رقع ، وقد اغبر
شعرها الفاحم وتابّد ، فكأنه بعض ما وقع على رأسها من
حظها الأسود ، ولاح من تحته وجه كالدينار الزائف في
صفرة وردّه ، وكالفمر الممحق في استطالته تحت الظلام
ومدّه ، وهي فتاة عليه قد أخذ السقام من حجمها ، كما أطفأت
الأقدار من نجمها ، وخفي من الارض في صدرها ، أكثر مما
خفي بين الناس من قدرها ، وما تعرف من أسماء الأموات

(١) الذي يكون نلفيقاً من هنا وهنا فلا يستقيم ولا يطرد

والأحياء غير أسماء أهلها ، ولا تملك من الأرض كلها أكثر من
غبار نعلها ؛ وقد خرجت تتحامل فكلما خافت في مشيها قليلاً
خافت العثار ، فاستندت الى جدار ، فاذا رأيت ثم رأيت
صورة البؤس ولكن في غير إطار (١)

وانها التئمت وكان ليس فيها دم ينتهي الى قدميها فهي تجرهما
جرّاً وتقتلعهما بين الخطوة والخطوة وما تدرى من الألم
أهما على الأرض أم في الأرض تسوخان ؛ وقد تزايلت أعضاؤها
فما تحس أن فيها حياة متماسكة ؛ وهي ما فتئت تحسب أن
جسمها قد خلق نعيشاً لقابها فلا هذا القلب يحيا كما تحيا القلوب
ولا ذلك الجسم ينمو كما تنمو الأجسام

وفي رأسها عقل زاد فضل الله ورحمته في جهة منه
وتقص عتف الناس وقسوتهم من جهة أخرى ، فيناهي على
ذاك حمد الله اذا هي مع ذلك نلعن الناس . وهي مرة تنظر الى
الحياة فترى كل نبي في الحياة الا نفسها ، ومرة تنظر الى الموت
فلا ترى في الموت شيئاً الا نفسها ؛ ولم يكن يمسك روحها بين
الاثنين الا خيطان : أحدهما من السماء وهو الأمل في رحمة الله ،
والآخر من الأرض وهو إشفاقها على جدتها التي كانت تكسح

(١) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه ويسميه العامة (البرواز)

منذ الصغر لقوتها • تلك الجدة الفانية التي كبرت وبلغت من
الكبر حتى حسبتها الفتاة قد كبرت عن سن الموت... (١)
أما الآن فقد تبين لها الخيط الأبيض من الخيط
الأسود وانصدعت حفرة جدتها المسكينة ولم يبق لها
إلا رحمة الله •

قال « الشيخ علي » : وكان خروج هذه البائسة أصيل يوم
من أيام الصيف ، ذهبت فيه طاوية على الجوع كما تغدو
الطيور من كُنَّاتِهَا (٢) وملء بطونها هواء ، غير أن الطيور
تهراً بالناس جميعاً وهي على ضعفها أقوى من الشرائع
والقوانين إذ تنبعث وكأن كل طائر منها إرادة متجسمة تقذف
بها السماء فما تبالي على أي أرض تقع ومن أي حب تلتقط ،
ولا تعرف إلا أن هذا الإنسان يعمل على السخرة إيخرج
لها من الأرض رزقها رغداً •

أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها وهي ترى كل إنسان على
ما كنهه كأنه قانون وضع لعقابها إذا حدثتها النفس حديثاً فقد
بلغت من الضعف والمرض والفاقة إلى حال لا تجعل يديها

(١) كبر بضم الباء عظم وبكسرهما طعن في السن

(٢) الوكمة كالوكن (يسكون الكاف) عن الطائر

تصاحبان لعمل غير الأخذ ؛ فان اختلست قيل سارقة فعوقبت ؛
وان سألت قيل متشردة فكذلك . وباليث في قاب هذا الانسان
من معاني الصفح بعض ما في لسانه من الفاظ القصاص ، ولكنه
حيوان متكلم فتصرف فطرتة الحيوانية أكثر ما تنصرف
الى لسانه كما تمثل هذه الفطرة من سائر الحيوانات في حواسها
التي تبطش بها ؛ وكلا النوعين سواء في الافتراس والكتاب
والتوحش فما اللسان الاحاسة البطش العاقلة وقاما يؤذى
الانسان قبل أن يؤذى بهذا اللسان .

ولم تر المسكينة أرواح لنفسها المكدودة من الانتحار
وكأنما يخال لها أن في الموت عيشاً ، فخرجت تمشي بين الناس
الى قبرها كأنها فيهم جنازة وهم يشيعونها . ولئن كانت لم
يسر بالحياة فاقد سرها أن ترى تسيع جنازتها وهي حية تموت
ولا أقول وهي حبة ترزق ، فان العلة النازلة بها قد أخذت
عليها مذهب الرزق حتى لم تترك لها في الناس « وجهاً » وقبضت
عنها الأيدي الا تلك البد الواحدة التي نأخذ دائماً ولا تعطي
أبدا وهي يد الموت .

وانها لتنفتل وتلتوى على أحشائها من رجفة الجوع
وما تأخذ عينها من الناس الا من يحمل بطنه حملاً من شبع

ورى، فكان نظرُها الى الناس أَمْضَ عليها من الفكر في
نفسها وكأنها تُقْتَلُ من جهتين .

وكذلك أخذتْ سَمْتَهَا الى طريق النهر وأَمْضَتْ نيتَهَا
على الموت غرقاً لموتَ نظيفة وتكونَ لنفسها غاسلة وترسلَ روحها
المتألِّمة الى السماء في دموع السماء

ومشت تَسَاقُطُ كأن الجوعَ والمرضَ يهدمان منها في
كل عَثْرَةٍ رُكْنًا أو كأنه كَتَبَ على كل بائس أن يموتَ
في طريقه الى الموت . وهي تَنْتَهَضُ من كل عَثْرَةٍ الى أشدَّ منها
كما تتخطى العنكبوتُ في نسجها من خيطٍ واهنٍ يكاد ينقطع
خيط أوهنَ منه . وقد اجتمعت روحُها في عينيها فهي تسيلُ
على نظراتها الشاردة ، وكلما امتدَّ بها المسيرُ قَصُرَتْ مسافة النظر
حتى توهمت أن الموت باديٌّ من عينيها . وانها لكذلك إذ
لَمَحَها طفلٌ قَرَوِيٌّ قد انقلب من المدينة الى الضاحية التي غادر
فيها إمامه العمياء وكان يَعْتَمِلُ طَوَالَ يومه في بعض المصانع وهو
يحملُ طعامها الذي لم ينله إلاَّ ببيع نفسه يوماً كاملاً . على أن
المسكين لا يُحْسُ من الذل أنه اشترى نفسه بمقدار ما يحس من
العِزَّة أنه ابتاع إداماً ورغيفين وقطعة من الحلوى

قال الشيخ على : وَبَصُرَ هذا الطفلُ بالفتاة وأدرك أن
روحها تخطو في أنفاسها وأنه الجوعُ لا غيرُ وهو من أبناءِ طالما

شَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى انطوى ، وَلَآنَ لَعَمَزَاتِهِ حَتَّى التوى ؛ وَمَا يَعْرِفُ
أَنَّهُ ابْنُ أُيَيْهِ وَأُمِّهِ ، أَكْثَرُ مِمَّا يَعْرِفُ أَنَّهُ ابْنُ فَقْرِهِ وَهَمِّهِ ، فَايْتَدِرُ (١)
إِلَى الْمُسْكِينَةِ وَكَانَتْ حَرَكَةُ الْحَيَاةِ فِيهَا أَسْرَعَ مِنْ حَرَكَةِ أَضْرَاسِهَا
فِي طَعَامِهِ ؛ ثُمَّ ذَهَبَ لَا يَعْرِفُ مَا صَنَعَ لِأَنَّهُ طِفْلٌ أَوْ لِأَنَّهُ فَقِيرٌ ؟
لَا أَدْرَى

غَيْرَ أَنِّي أَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ لُؤْمِ النَّفْسِ فِي صِنْعَةِ الْمَعْرُوفِ
وَتَطْوِيلِ النَّبِّ بِهِ وَتَعْرِيزِ الْحَدِيثِ فِيهِ إِلَّا الْأَطْفَالَ وَالْأَفْقَرَاءَ ،
أُولَئِكَ لَا نَهَمَ لَيْسَتْ كَثْرَتُهُنَّ الْخَيْرَ وَهَوْلَاءُ لِأَنَّ الْخَيْرَ مِنْهُمْ
غَيْرُ كَثِيرٍ

وَانْطَلَقَ الطِّفْلُ وَهُوَ يَلْوِي رَأْسَهُ وَيَفْكُرُ فِي أَىَّ خَدْيٍ
تَقَعُ عَلَيْهِ اللَّطْمَةُ الْأُولَى مِنْ أُمِّهِ لِأَنَّهَا لَا مَحَالَةَ مُتَوَعِّرَةٌ بِهِ (٢)
سَتَحْسِبُهُ اقْتَرَفَ إِثْمًا فَطُرِدَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ طَرِيقُ أُمِّهِ ،
وَالَى أَنْ يَأْتِيَ اللَّهَ بِالصَّبَاحِ الَّذِي يُنِيرُ بُرْهَانَهُ ، وَيُثَبِّتُ لَهَا إِحْسَانَهُ ،
يَكُونُ هَذَا اللَّيْلُ ، قَدْ صَبَّ عَلَيْهِ الْوَيْلُ ؛ وَهَكَذَا جَعَلَ يُشْهِدُ
اللَّهَ عَلَى مَا سِيلَقَاهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُشْهِدَ النَّاسَ عَلَى
مَا لَقِيَ غَيْرَهُ مِنْهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ مِنْ إِحْسَانِهِ وَإِثَارِهِ . لِأَنَّهُ طِفْلٌ
أَوْ لِأَنَّهُ فَقِيرٌ ؟ لَا أَدْرَى

(١) أَى عَجَلَ إِلَيْهَا

(٢) أَى مُتَشَدِّدَةً فِي مُعَامَلَتِهِ كَمَا يَقُولُونَ

أما الفتاة فأرسلت في أثره نظرة حية ولم تجزّه غيرها بل جعلت جزاء عمله من عمله نفسه لأن ثمرته الفقراء في الشكر على المعروف كهذيان الأغنياء في التبسط على المن به ، كلاهما لا يكون إلا من خبيث أو لؤم ؛ وهي فتاة أقدمت على الموت ولم تقدم على السرقة ، وإنها لتعلم أن من أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً ولكنها رأت الطفل غير أهل لأن يعرف موقع إحسانه من نفسها . لأنه طفل أو لأنه فقير ؟ لا أدري

ولما أمسكت عليها النفس وراجعت الحياة بدالها فيما اعتزمته من الانتحار ، فترددت وجعات تساورها الظنون وخلق لها من معدتها عقل جديد يبصرها فرق ما بين الجوع والشبع ؛ وكذلك تعرض لبعض الناس حالات من الحرص يعقلون فيها بيطونهم ، حتى إن أحدهم لو تحسس رأسه وهو يفكر لحسبه بطناً صغيراً من العظم فأنشأت الفتاة تستقيم على طريقها وهي تؤامر نفسها على الحياة والموت وقد بدأت تهضم في معدتها الطعام والعزيمة جميعاً ومات الذي كان بينها وبين الموت

وبيننا هي تسير نظرت في عرض الطريق سيدة لو لبس معنى الغنى لفظاً مالبس غير اسمها ، ولو كان للكبرياء رسم م ٧ - المساكين

مارأيتَه غيرَ رَسمِها ؛ وقد أوزنها الغنى ذلك الغرورَ بنفسها ،
حتى توهَّمتُ أنها في الأرض أختُ نَمِيسِها ؛ وبلغت في النعمة
من الحمق والبَطَرِ ، بحيث جعات نفسها كالسما متى تَعَبَسَ
وجهُها استهلَّتْ لَعْنَتُها كالْمَطَرِ ؛ وهي من أولئك اللواتي يخرج
الغنى معهنَّ في الطريق لا حارساً ولا مُنعماً ولكن للكَيْدِ
والفتنة ؛ فتنة المساكين وكيد الحاسدين . فخرجت في زينتها
وكأنها حانوتُ جوهري وهي تَصَفُّ (١) من النساء
ولكنها تَتَصَبَّأُ فِكان في وسامتها وإبتسامتها شبابَ عشرِ
فَتَيَّاتٍ جَميلات وقد ذهبت في أوضاع جسمها مذاهبَ
هندسية بين المستدير والمستقيم والمنحني حتى ظهرت
كأن نصفها من الله ونصفها من الخيَّاطة وإذا رأيتَ
جَمَلَتها رأيتَ روضةَ الجمال بألوانها وأزهارها ولكن . .
مُصَوَّره ، فإذا انتهيت إلى وجهها رأيتَ لأحسن هناك شهادةً
على الله ولكن . . مُزَوَّرة وعلى الجملة فقد جعاه الحسنها
المالي في رأى نفسها كالنرائع لا جدال فيها إلا من زنديق
ورأتها الفتاة كما تنظر المرأة إلى المرأه بعين جامدة ليس فيها لغةٌ
ولا فاسفةٌ ولا شعر ، فقالت بالها سعادة أن تكون هذه

(١) هي المرأة بين الحدة والمسنه أو التي بلغت خمسا وأربعين أو

« المعجوز » ... لا تتقدم في عمرها الى الأمام ولكنها ترجع الى الوراء ؛ وأن تظهر بين الناس حسناء وان كانت من القبح بحيث ذهب نصف نهارها في التحسن ؛ وأن لا تجدد من هموم الدنيا أكثر من هم الألفاظ إن قال الناس غير حسناء أو قالوا غيرها أحسن منها . ويا له شقاء أن نكون هي كما هي وأكون أنا كما أنا .

سم رمت بعينها الى السماء واحرقت نواجه تلك السيدة ، فما تبسنتها هذه والملت بما في نفسها حتى انقبضت كأنما أبارت الأرض في وجهها دابة جامحة ؛ وجعلت تتحاماها وتاوذ ههنا وههنا وتحشت قدميها كأنها لقاء خطر شديد . غير أن الفتاة ملأت عليها الطريق بحركاتها فكانت وجهها (١) كيفما أمّت أو انحرقت يمنة أو يسرة وكأنما نطار دُها مطاردة

فلما عيت السيدة بأمرها وغازا الفقر نعمتها وهاج فضول الفتاة حنقها وكبرياءها ؛ وقفت لها وقفة القضاء عابسة الوجه شاحخة الأنف يكاد يستنفذ الناس طرفها (٢) وتكاد تميز من الغيظ ، وتدل هيئة وجهها على أن وراء شفيتها المرتجفتين كلمات أحد من أنياب الوحش .

(١) أي أمامها وكيها أمّت أي استقامت

(٢) إذا رأوها أرعدوا من هيبتها

فلم تبال الفتاة وبقيت رثتها واسعتين للهواء^(١) إذ ليس بعد
الفقر خوفٌ، ودَلَّفت إليها باسطة اليد وهي تكاد تُزلقها
ببصرها حتى اذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت :
سيدتي ! أدام الله نعمته عليك وهذا لك هذه النعمة بدواها
- هي دائمة وما أنت والنعمة ؟

سيدتي ! وقال الله ما أنافيه من بأساء الحياة ولا كتبت عليك
أن تعرفي ماهي .

- فلماذا أنت وأمنالك في الحياة إذن أيتها الجمقاء ؛ وهل
يُكسبُ تاريخُ البؤس إلا في صفحة من مثل هذا الوجه ؟
سيدتي ألا مهلاً مهلاً وانظري إلي ينظر الله اليك
- قد انظر الله اليك من قبلي

سيدتي : هبيني خادماً أحسنت إليها
- فاتكوني خادماً طردتها ان بلغت أن تكوني خادماً لمنلنا
- يا وَيْلَتَا ! ألا رحمة في قلبك فتجودى علي بما لا بأس
عليك منه ؟

- ولماذا أفضلك على سائر الفقراء ؟ ينبغي أن أجود عليهم

(١) إذا استمدت الهيبة على الانسان ضاق نفسه ولذلك يقال ارتفعت
رثتها الى حلقه كناية عن الهيبة .

جميعاً اذا أنا جُدتُ عليك ، ولو فعاتُ لطلبتُ بعد ذلك من
يجود علىَّ

سيدتى ! ألا فاجعلينى من نصيبك فى الاحسان وغيرى
من الفقراء له غيرك من الاغنياء على الموسع قدره وعلى
المقتير قدره .

— إذا فكونى أنت من نصيب غيرى ودعى غيرك لى
سيدتى ! ليس فقري عن خطاءٍ منى وليس غناك عن صواب
منك وما الرزقُ ياسيدتى من فضل الحيلة

— وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفى من الخطاء ؟

— رَحِمَكَ اللهُ واتقى الله فى الانسانية فاعل فى قصرك الباذخ
كأية جماعتها أحسن حالاً منى

— حينما نصيرين مثلها فذعالى الينا ويؤمئذ تعرفين كيف
نطردُ الكلاب

قال « الشيخ على » : فكبرَ ذلك على الفتاة وانتبهت فى نفسها
فضيلة الفقر وحكمته ، فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة
فى مرآة مقلوبة من مرأتى الانسانية مهما جهدت أن نستقيم لها
لم تزدها الا مسخاً . هنالك غابتها عيناها وانطأقت وراء دموعها
ولم تجد لها عرماً

أما السيدة الكريمة — كما يقال — فاباعت ما بقي فى فيها

من تلك الفلسفة وافترَّ ثغرها قليلاً عن ابتسامة السخرية ، وسرَّها أن يكون في لسانها كلُّ هذا المنطق... ثم أنغضت رأسها بكبرياء وقالت : « مسكينة مسكينة » ومرت بعد ذلك لا تأوى وما يخطر لها إلا أنها تفضت نعلها...

وسمع الله قولها إذ تُجادلُ الفتاة وقد ربت في ثيابها من الغيظ وتنفست كالإسفنج فأطاق عايتها دموع البائسة ؛ وإن هذه لنا نساء راحة في البكاء لم تعهدا من قبل فأنزوت إلى جانب من الطريق وجعلت تبكي . ثم تبكى ثم تبكى حتى لو جمعت دموعها لغمرت منها ؛ وقد جمعها الله وأرصدها من أقداره لتلك الإسفنجة وقضى ربك ألا تنصبر بعد اليوم إلا دموعاً (١)

*

* *

كانت للسيدة فناء كطاعة البدر في الرابعة عشرة لا تصرفها إلا مرآتها وهي الدنيا مجموعة في عصرها ، وكأنها في النعمة مستقبل نفسها وماضي أمها ، وكانت هذه السيدة عقيماً ولكن شذت معها الطبيعة لأمر أراد الله فولدت لها الفتاة

(١) يحسب المبخلون من الأغنياء أنهم حين يهينون فقيراً لا يهينون إلا فقيراً ، ولا يدرون أن الله يمدح من يحمل حكمه من يحمل نعمته . ولو عرفوها لصلح هؤلاء وهؤلاء فالحكمة الآلهية في الفقراء نعمة في بعض أسكالها ، والنعمة الآلهية في الأغنياء حكمة في بعض أشكالها

وكانما انشق لها القمر . ولم تذكرها في نفسها اذ كانت تحاور
تلك المسكينة بل ذكرت خادماتها وانفتحت لهذه الذكرى . ومن
شؤم الغنى على أهله أن لا يذكروا في الشر إلا بأنفسهم ولا ينسبهم
في الخير إلا لأنفسهم ، فلا يعلمون أن الفقر أنواع كثيرة وأن الغنى
نفسه نوع من الفقر إلى الله . وبذلك ينظرون إلى المساكين تلك
النظرة التي لا تخلو من بعض معاني القضاء والقدر كأن الألوهية
درجات جعلهم الغنى في واحدة منها . فما ظنكم أيها الأغنياء
برب العالمين ؟

وانكفأت السيدة إلى قصرها فاذا فتأتها تنفض من
وعكة الحمى ، وهي في سريرها كقاب أمها في اضطرابه
والتهابه ، وما تعلم من أين اتصت بها الحمى ولكن الله يعلم .
ولئن كان البعوض مما يُعد في أسباب هذا المرض فاقدر كان
كلامها للفناء ينفر منها كما ينفر البعوض من مستنقع ..
فخرجت المرأة عن رشدها وضافت عايتها الأرض بما رحبت
واقدر تكون المصيبة جنونا وان لم يكن من أسماها الجنون .
على أنها لم تر ملجأ من الله إلا إليه فابتدرت تدعوه وضرب
الذهول بينها وبين اللغة ومسحت من وعيها فلا ترد غير
هذه الكلمات يارب . يارب . ابنتي ماذا جنت . » مسكينة
مسكينة ؛ » مسكينة مسكينة .

وجاءَ الطبيبُ كأنَّما أُطْلِقَ في قنبلةٍ مدْفَعِ ضخمٍ... فأُسْرَعَتْ
إليه وهي تقول : ابنتي ابنتي أيها الطبيب « مسكينة مسكينة » .
ثم مرَّت أيامٌ وبنَتْها مريضةٌ وهي مريضةٌ بينتها فكانت كلما نظرت
إليها ملتبهةً ذاويةً تَسْخَايِلُ الموتَ فيها لم يُجِرِ اللهُ على لسانها غيرَ
هذه الكلمات : آه يا ابنتي « مسكينة مسكينة » .



قال « الشيخ علي » : وَضَرَبَ الدهرُ من ضَرْبَاتِهِ وخرجت
الفتاةُ البائسةُ ذاتَ يومٍ وكانت قد أصابت عملاً فترَدَّ مَ جانِبِ
من حالها ؛ وبيدناهي تمنى مطمئنةً رُفِعَ لها شَبَحٌ أُسودُ في
عُرْضِ الطريقِ فجعلت تُدانيه حتى حاذتْهُ فإذا هي بسيدة الأُمسِ
وقد حال لونها ، واستحال كونُها ؛ وعادت من الهمِّ كأنَّها ظلٌّ^١
منتصبٌ في سوادٍ ، وظهرت من الحزنِ كأنَّها تمثالٌ منصوبٌ^٢
للحِدادِ ؛ وهي تلوح من الذلة والانكسار ؛ كأنَّما مات بعضها ،
وبقي بعضها ؛ وكأنَّما كانت حياؤها من الأزهار ؛ فذهب ريحُها
وروضُها ، وبقي جذُّها وأرضُها

فما تبَيَّنَتْها الفتاةُ ورأت ما نزل بها حتى نفرت دموعُها حزناً
ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت :
يارباه « مسكينة مسكينة » ...

كذا يَضَعُ الإنسانُ الكلمةَ لمعانى الله فيكذبُ بهُ بمعانيها
وياربَّ كلمةٍ ملفوظةٍ وفيها لله كلمةٌ غيرُ ملفوظةٍ

* *

« اللهم مالكَ الملائكِ تُؤْتِي الملكَ من تشاء وتَنْزِعُ الملكَ »
« ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدِكَ الخيرُ »
« إنك على كلِّ شيءٍ قدير . »

الفصل الخامس

لؤم المال ووهم التعاسة

قال « الشيخ على » :

وأنت يا بني ما إن تزال تصف الدنيا بلون لا أدري كيف
أسميه ، فلا هو من وجوه أهل الحسد فأقول أصفر ؛ ولا من
قلوب أهل البغض فأقول أسود ؛ ولا من صدور أهل الدم (١)
فأقول أحمر ؛ ولا من شيء أعرفه لأنه ليس شيئاً يُسمى . وعلم
الله أن من يهوى في جهنم سبعين خريفاً وعيناه تدوران في رأسه
لا يبصر من حيث ابتداً الى حيث ينهى شرّاً من وجه دنياك .
إنك يا بني تصوّر الارض لا أرضاً ولا ماءً بل قلوباً ودموعاً
وتعرفها لا دُولاً ولا أُمماً بل آلاماً وحوادث ، فكان هذه
الأرض العظيمة تحتاج الى وقدين من قلبك ومن الشمس ؛
والى نفحتين من خيالك ومن الفضاء ؛ والى قدرين من حزنك
ومن الأبد . ومن ثم فلا عجب يا بني إن كان مركز النقل
فيها على وهمين : على محورها (٢) وعلى . . . ظهرك

(١) أي السار

(٢) محور الأرض خط مسوّم

هَيَّيَاتَ لَقَدْ أَسْرَفْتَ عَلَى نَفْسِكَ الضَّعِيفَةِ وَجَعَلْتَ هَذِهِ
 الْحَصَاةَ الْهَيْئَةَ تَحْتَ مِطْرَقَةِ الزَّمَنِ؛ فَمَا تَزَالُ رِخْوًا مُنْتَبِهَةً
 مُسْتَرَسِلَةً فِي انْدِفَاقِ وَلِينٍ، كَأَنَّكَ رَجُلٌ مِنَ الْعَجَبِينَ. وَكَمْ
 نَقُولُ (فُلَانٌ) وَجَاهُهُ الْعَرِيبُ، وَدَهْرُهُ الْمَرِيبُ؛ وَانْظُرْ إِلَى
 (فُلَانٍ) كَيْفَ جَعَلَهُ الْكِبَرُ يَذْكُرُ مِنَّا وَيَنْسَى، وَكَيْفَ أَصْبَحَ
 مِنَ الْغَنَى وَأَمْسَى؛ (وَفُلَانٌ) كَيْفَ تَمَرُّ مِنْ فُرَجِ أَصَابِعِهِ سَنَفُنُ
 الْأَمَالِ، فِي تَيَّارِ الْمَالِ؛ كَأَنَّ يَدَهُ قَنْطَرَةٌ عَلَى نَهْرِ الْأَقْدَارِ، أَوْ جِسْرٌ
 تَعْبُرُهُ حُظُوظُ السَّمَاءِ إِلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ؛ وَ (فُلَانٌ) قَبَسَ اللَّهُ
 كَيْفَ صَارَ شَيْطَانَهُ فِي إِنْسَانِهِ، وَطَوَّلَ عَمْرَهُ فِي لِسَانِهِ، وَكَثَّرَهُ
 مَالَهُ فِي قَلْبِهِ إِحْسَانَهُ؛ وَ (فُلَانٌ) أَخْزَاهُ اللَّهُ فَمَا بَرٌّ وَلَا تَفَعُّعٌ، بَلْ
 تَهَرَّقُ بِالْحَرْصِ عَلَى مَا جَمَعَ، وَحَامِلٌ فِي كُلِّ نَيْءٍ حَتَّى فِي الطَّمَعِ؛ (وَفُلَانٌ)
 الَّذِي جَمَعَ وَعَدَّدَ^(١)، وَخَافَهُ اللَّهُ وَاحِدًا وَهُوَ فِي الرِّذَائِلِ يَتَعَدَّدُ؛
 وَقَدْ انْتَفَخَ كَأَنَّهُ شَدَفَ إِسْرَافِيلَ، وَامْتَدَّ كَأَنَّهُ يَدُ عِزْرَائِيلَ،
 وَاسْتَكْبَرَ كَأَنَّهُ فِرْعَوْنٌ عَلَى النَّيْلِ؛ (وَفُلَانٌ) وَمَا أُدْرَاكَ مَا فُلَانٌ
 جَبِلٌ شَامَخٌ وَالنَّاسُ فِي سَفْحِهِ رِمَالٌ، وَمَجْدٌ بَاذِخٌ وَلَا مَجْدٌ
 لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مَالٌ؛ وَهُوَ فِي أَهْلِ الْغِنَى الْأَيْفُ وَالْبَاءُ، وَإِنْ قِيلَ
 فِي غَيْرِهِ (ابْنُ نِعْمَةٍ) فَهُوَ فِي أَهْلِ النِّعْمَةِ أَبُو الْآبَاءِ؛ عَلَى رَأْسِ

(١) أَيِ جَمْعِ الْمَالِ وَعَدْدِهِ

عظيم كأنه ركن الكعبة الذي يتوجه عباده الغنى إليه ، وقامة
بائنة^(١) كأنها لجاء صاحبها قطعة من المحور الذي تدور
هذه الارض عاياه ؛ وهناك أنف أمّا في السماء فله منزلة ، وأما
في الارض فمسطته منزلة ؛ ينفض الناس من رهبته نفصا ،
ويفرش الوجوه من هيبتة أرضا ؛ وكأنه في تلك الكبرياء ميزان
معانق يرفع من ناحية ويخفض من ناحية ، بل كأنه في ذلك
الوجه القصر جحر للنحس تختبئ فيه الداهية ...

قال « الشيخ علي » : وما أنت يا بني وهذه (الفلانات)
وأمثالها ؟ إن هؤلاء الناس بعض أعمال الله في أرضه فهو يخلقهم
ويُنشئهم ويديرهم امتعاق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم
طردا وعكسا ، فما أشبههم بدابة الطاحون تلزم دوائرها ولا تفتأ
تدور الى غير انحراف ثم هي لها حين تسمع ذلك الهزير وتلك
الجمعة تحسبها من نشيد الاحتفال بها ...

فهم قوم مسخرون فرشهم الله أمرا من أمره^(٢)
وكسّرهم لما خافوا له فضر بهم بالحرص والطمع ضربة جبار لو
نالت السموات والارض والجبال لأشفقن منها ؛ وجاءهم

(١) ظاهرة بطولها أو جلالها أو نحو ذلك مما تدل به من سواها

(٢) أوسعهم إياء ومكنهم من القلب فيه

الحرصُ بهذا المالُ أما الطمعُ فجاءهم بماذا . جاءهم بماذا يابني ؟ لو
قلتُ يَصْدَدُ القابُ وَهَرَمَ النفسُ ودناءةُ الطبعِ ، ولو قلتُ بكلِ
ما في الحشراتِ من القَذَرِ ، وبكلِ ما في السباعِ من الضَّرَاوَةِ ،
وبكلِ ما في الدَّباباتِ من السُّمومِ ، لكنتُ عسى أن أُقَارِبَ
الوصفَ ، ولكن المعنى الذي يَتَأَجَّاجُ في نفسِ أكبرِ من
ذلك كله .

غيرَ أني أقول لك يا هذا إن ثلاثةً من المتجاوراتِ يفسرُ
بعضُها بعضاً : الحرصُ مع الطمعِ ، ثم المالُ ورذائلهُ ، ثم ما في
المعدة وما في الأمعاء ...

أتحسب أن هذا العالمَ يَحْفَلُ برجالٍ من الأغنياءِ قد
أَجْحَفَ^(١) به الدهرُ وطحنته النوائبُ بأَرْحَائِهَا وجاءه بعد
الدنيا المؤنثة يومُهُ المذَكَّرُ^(٢) وتركته الأقدارُ أَسْوَدَ
الخطِ لا يبيضاء ولا صفراءَ^(٣) ؟ فلمَ لا يعدُّون الغنى شيئاً دون المالِ
ويحسبونه كلَّ شيءٍ مع المالِ ؛ لعل الحقيقة أيضاً ذاتُ وجهين
في الناس ... !

(١) أَجْحَفَ بهم الدهرُ واجتجحفهم استأصلهم والمراد هنا استئصال النعمة

(٢) يقال يوم مذكر أى شديد صعب وقد زدنا عليه الدنيا المؤنثة

أى اللينة المواتية المقابلة السهلة

(٣) لا درهم ولا دينار أو فضة وذهب

هو المال . المالُ وحده لا غير . فنحن نحتاج الى الغنى صاحب المال
كما نحتاج الى بائع المالح . . . وما أشبهتنا في إطرائه وفي الزُلْفَى اليه
بأطفال القرية إذ يتزلفون الى بائع الحلواء التي تُلَفُّ بالعصا وإذا
هو واقفٌ بينهم بعصاه وحلوائه كأنه الهُبَلُ الأعلى (١) وهو
من تعلم دَسِمُ الثوبِ تَرِبُ اليدُ قَدِرُ التفصيل والجملة يصاح
أن يُكْتَبَ على وجهه « متحف الميكروبات المصرية » ولو رآه
طبيبٌ لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريق ؟ ولكن أين لا أين
الطبيب في هذا الاجتماع ؟

كل أطباء الاجتماع السنة وأقلام ومحابر ؟ أما اليد التي تنزِيلُ
المنكر أو نفيته فلا أراها تمتدُّ الا من جانب الأفق ولا تعمل
الا بعَوْنٍ من الله وملائكته وقد اتقضى عصرُ الأنبياء .

قال « الشيخ على » : فان لم يكن الغنىُ انساناً من الناس
يواسيهم ويسعدُهم ويتخذُ من المال سبيلاً الى أفئدتهم بالاحسان
والمساعفة ، يأخذ لنفسه بقدر مالهاً ويُعطي من نفسه بقدر
ما عايشها ، وان لم يكن وجههُ مرآةً للفقراء يُبصرون فيها
ابتسامَ الدهر على وجوههم العابسة ، ولم يكن ذهبُهُ عند دموع
البائسين وعند أنفاس المحزونين ، ولم يكن اسمهُ في دَعَوَاتِ

المحتاجين وفي السنة الشاكرين ، فقد أصبح عندي كأنه لا شخص له، بل هو شخصٌ لعنةٍ من لعنات الله والملائكة والناسِ نَفِخَتْ فيها الروحُ وهي اللعنةُ أَيَّ مَنْقَلَبٍ تَنْقَلِبُ .

ما أشبهه المال أن يكونَ آلةٌ من آلات القتل فانه يُمِيتُ أكثرَ أصحابه موتاً شراً من الموت — إلا من عصم الله — موتاً يجعلُ أسماءهم كأنها قائمةٌ على ألواح من العظام النخيرة ، ويرسلها كل يوم الى السماء في لعنات لا عداد لها ثم يشبثها في التاريخ آخرّاً لا بأعيانها ولكن بعددها أو كما تُسَبِّت الحكومة في كل سنة عدد البهائم التي نَفَقَتْ بالطاعون . . . فهذا الشخص الميت وهو بعد في الاحياء لا يباغ في قدر نفسه على الحقيقة أكثرَ من مقدار حجمه من . . . من . . . من جيفة حمار . . .

يا بنى ! ربما كان الرجلُ نَبَاتَ نعمةٍ الله لانه سيكونُ حَصَادَ نَقْمَتِهِ ، فهذه منزلةٌ من البؤس والخِذلانِ يُستَعَاذُ بالله منها . وكم رأينا من أناسٍ يُخَصِّبُ أبدانهم حتى ليضيق بهم الجِلْدُ كِدَّةً وَسِمَةً وَيَكَادُ أَحَدُهُمْ يَنْشَقُّ مَرَحاً وَنَشَاطاً ثم لا يكون هذا الخصبُ الذي استمتعوا به شَطِراً من العمر الا سبباً في أمراضٍ مُهْلِكَةٍ تَسْتَوِي الشَّطَرِ الْآخِرَ ، فذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلَهُمْ الْأَمَلُ فسوف يعامون

وإنَّ خَطَأً كَبِيرًا أَنَّ تَقْضَى لِفُلَانٍ مِنْ (فُلَانَاتِكَ) بَمَتَاعِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِهِ أَمْ الْخَيْرُ؛ وَكَيْفَ تَحْكُمُ وَبِكَ عَلَى غِنَاهُ بِفَقْرِكَ، وَعَلَى آمَالِهِ بِيَأْسِكَ، وَعَلَى شَخْصِهِ بِظِلِّكَ، وَعَلَى نَهَارِهِ بِلَيْلِكَ، وَعَلَى عَمْرِهِ كُلِّهِ وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ لَمْ يُؤَفِّ عَمْرَهُ وَلَا تَدْرِي مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَمَا بَقِيَ؟ إِلَّا دَعَا حَتَّى يَسْتَنْفِدَ أَيَّامَهُ الْمَكْتُوبَةَ وَيَسْتَوْفِيَ أَنْفَاسَهُ الْمَقْدُورَةَ فَلَعَلَّ مُصِيبَتَهُ قَادِمَةٌ فِي الْغَيْبِ وَكَانَ غِنَاهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِهَا، وَعَلَى قُوَّةِ الْمَقْدَمَةِ تَقَاسُ قُوَّةُ النَّاتِجَةِ. فَإِذَا مَاتَ الْغَنِيُّ وَلَمْ تَعْرِفْ فِي جَمَلَةِ عَمْرِهِ هَمًّا وَلَا غَمًّا يَعْدِلُ بِؤْسَ الْفَقْرِ مِمَّا اشْتَدَّ الْفَقْرُ، فَكُنْ حِينَئِذٍ بِالْمَوْتِ مِنْ تِلْكَ الْجَمَلَةِ، وَاتِمَّا الْحَيَاةَ مَدَّةً سَتَنْقُضِي فَسَوَاءٌ انْقَطَعَ الْخَيْطُ مِنْ أَوَّلِهِ أَوْ مِنْ وَسَطِهِ أَوْ مِنْ آخِرِهِ فَقَدْ انْقَطَعَ (١)

تَقُولُ إِنَّ لَهُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَقُلْتَ إِنَّ لَهُمْ بؤْسَهَا الْمُسْتَعِ . . . فَإِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ الْمَالَ مِنْ طَرَقٍ لَا تُؤْتِيهِ إِلَّا نَسْكَدًا ثُمَّ يُرْسِلُونَهُ فِي طَرَقٍ أُخْرَى لِيَجْمَعُوهُ، وَهَلْ لَمْ كَمَا تَدُورُ دَابَّةُ الطَّاحُونَةِ. وَهَبْ أَنَّهُمْ لَا يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ غَمَزَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ غَمَزَةً مُؤَلِمَةً، وَمَا أَحْسَبُ الضَّجَرَ مِنَ اللَّذَاتِ قَدْ خُلِقَ إِلَّا لِلْأَغْنِيَاءِ وَحَدَّهِمْ وَنَاهِيكَ مِنْ بَلَاءٍ يَغْمُرُ النَّفْسَ

(١) إِذَا مَاتَ الْغَنِيُّ وَطَوَّتْهُ الْأَرْضُ فَأَفْقَرُ مِنْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَغْنَى

مِنْهُ. فَهَذِهِ جِهَةٌ مِنْ غِنَى الْفُقَرَاءِ لَا يَسَاوِيهَا غِنَى وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَنْتَبِهُونَ إِلَيْهَا

بالنعم صنوفاً وألواناً حتى يتنكر لها معنى النعمة فتراها وقد ثابر عليها الضجر متكرهه ولكن لا تريد الكراهة ومُتَسَخِّطَةً ولا ترغب في السخط ، ومتألمة ولا تعرف مِمَّ أَلَمُهَا ، ولا تبرح دأباً تاتمس نعمة لم يخلقها الله لنحدث منها لذة لم يعرفها الناس .

ولولا هذا البلاء وأنه ما وصفت لك لما أصبت على الأرض غنياً كهؤلاء الوارثين تضرب به كل لذة وجه أختها فتسلمه الواحدة إلى الأخرى ويجذبه بكل حروف الجر . من وإلى وفي وعلى ، بين الخمر والقيار والفسق وما لا يحسن أن يسمى حتى تسلمه المذة الأخيرة إلى الفقير أو القبر .

ولو أن (ضجر الذات) يصنع بكل الأغنياء هذا الصنيع لفسد الكون بيد أن الله أراد غمرانه فجعل في طباع أكثر الأغنياء أوماً خاصاً ، أوماً ذهبياً يسكسیر من سورة هذا الضجر كما يفتأ الماء البارد من الماء الحار حين يمتزجان ^(١) فالتقوى إما كريم يضجر فيُسْرِف ، وإما ائيم يضجر فيمُسِك ، وكلاهما يجد لذته ويضجر من لذته ، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواء كما ترى . وكان أم المصيبة حين وَاَلَدَتْ

(١) كاهم بين اثنين : أوم النعمة في أوائك وأوم المال في هؤلاء

وضعت بنتين : المصيبةُ التي تُؤلمُ والنعمةُ التي لا تآذُ . . .
وليس أشقى ممن مُنِعَ السعادةَ وأُعطيَ الرغبةَ فيها إلا الذي
أُعطيَ السعادةَ ومُنِعَ اللذةَ منها .

فلا تقل يا بنى إن العصا لظهور الفقراء وخدمهم فان هناك
السُّوطَ أيضاً وهو رتبةٌ عاليةٌ فوق رتبة العصا ولذلك خُصَّ
بشرفها . . . الا غنياء .

وانظر ويلاك هل ترى الفرق بعيدا بين الضجر من شيء
لأنه موجودٌ وبين الضجر من ذلك الشيء لأنه غير موجود .
بين عَدَمِ الشعور باللذة وبين الشعور بعَدَمِ اللذة ، بين أَلَمِ الغنى
الذى لا تجده أبداً الا على شكٍّ فى أنه سعيد وبين أَلَمِ الفقير الذى
لا تجده أبداً يشك فى أنه تَعِسٍ ؟

« قال الشيخ على » : وتسألنى عن التعاسة ما هى وكيف هى
وتريدنى على أن أبْتَغىَ لك مما بين ظاهرها وحقيقتها ؟ ألا فاعلم
يا بنى أن هذه الكلمة حقيقةٌ بأن تُدْسِىَ نفسها ، وما ادَّعى
أحدٌ معرفتها الا لأنه لا يجد أحداً يعرفها ، وكل شيء مجهولٌ
فما أسهلّه أن يكون من علم كل جاهل وما أصعبه أن يكون من
جهل كل عالم ؛ وانى لأرى الناس يأتون فى وصف التعاسة بكلام
كثير وما أهونها إذن لو أن كل إنسان يُحسِنُ من وصفها بهذه
السهولة . . .

أَقْدَأُ لَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ مِنْ عَهْدِ الْقَبَائِلِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْأَوَّلِ
أَنْ يَطْوِيَ الْعَالَمَ كُلَّهُ فِي قَبِيلِنِهِ وَيَجْمَعَ الْقَبِيلَةَ كُلَّهَا فِي نَفْسِهِ فَيَزْعُمُ
أَنْ « كُلُّ النَّاسِ » يَعْرِفُونُ كَذَا « وَكُلُّ الْخَلْقِ » يَقُولُونَ كَذَا وَأَنْ
« الدُّنْيَا كُلُّهَا » وَ « كُلُّ الْعَالَمِ » ، وَعَلِمَ اللَّهُ مَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْعَالَمِ
مَنْ يَعْرِفُ أَوْ يَقُولُ غَيْرُهُ أَوْ هُوَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ ذَوِي جَمَاعَتِهِ
إِلَى اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ بَقِيَ ذَاكَ مِيرَاثًا فِي أَخْبَارِ
الْجُهَلَاءِ وَأَوْصَافِهِمْ وَفِي كَلَامِ أَهْلِ الْمُسْجَازِفَةِ إِلَى الْيَوْمِ .

وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ التَّعَاسَةَ - وَلَا أَقُولُ مَا هِيَ
(حَرَ سَكَ اللَّهُ) وَلَكِنْ مَا عَامُهَا - وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْمَعَ لَهَا وَصْفًا آتِيًا
مِنْ جَانِبِ السَّمَاءِ ؛ فَالْتَمِسْ فِي دَارِ الْهَمُومِ مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ هَمٌّ يُحْمَلُهُ
إِذْ يَكُونُ قَدْ احْتَمَلَ كُلَّ هَمٍّ - فَانْ مِثْلَ هَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا تَعْرِفُ
أَهْوَى حَيْثُ فِي نِيَابِهِ مَيِّتٌ فِيمَا وَرَاءَهَا ، أَمْ هُوَ مَيِّتٌ فِي نِيَابِهِ حَيْثُ
فِيمَا بَعْدَهَا - مَتَى اسْتَفْرَغَ دَمْعَ أَجْفَانِهِ وَمَاتَ الْبُكَاءُ فِي عَيْنَيْهِ ،
خَلَقَ اللَّهُ فِي لِسَانِهِ أَلْفَاظًا كَالدَّمْعِ وَلُغَةً كَالْبُكَاءِ وَمَعَانِي هِيَ فِي
جَمَاتِهَا أَوْصَافُ التَّعَاسَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

وَأَنْ تَحْسِبُكَ وَاجِدًا هَذَا الْمَخْلُوقِ الْمُلْتَمِسِ الْمُسْخَرِ الَّذِي
تَرَاهُ كَأَنَّمَا يَنْضَغُطُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ أَشَدَّ مَا يَجِدُ مِنْ حَطْمَةٍ
هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ حَتَّى تَكْتُبَ مِنْ تَارِيخِهِ فَصْلًا فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى وَحَتَّى
تُخْرِجَ مِنْ لُغَةِ الْأَقْدَارِ مَا يَصِحُّ لَفْظًا وَاحِدًا مِنْ لُغَةِ النَّاسِ ؟

أَلَا إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ نَبِيًّا مِثْلَ أَيُّوبَ يَمْتَحِنُ
 اللَّهُ صَبْرَهُ امْتِحَانِ الْإِلَوهِيَةِ لِلنَّبِوَّةِ، وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمَصِيبَةُ رَعَاكَ اللَّهُ
 كَأَنَّهَا فِي بَابِ النِّقْمَةِ تَارِيخٌ غَيْرُ إِنْسَانِيٍّ فَإِنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعْنَى
 التَّعَاسَةِ الَّتِي يَضْحِكُ النَّاسُ مِنْهَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ رُؤْيَا السَّيْفِ مَسْلُولاَ
 عَلَى الْعُنُقِ وَبَيْنَ رُؤْيَيْهِ فِي الْعُنُقِ (١)

وَلَقَدْ أَعْرَفُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ النَّظِيفِ أُعْطِيَ ابْنَتَهُ قِطْعَةً
 فِيهَا «عَشْرَةُ غُرُوشٍ» وَأَرْسَلَهَا تَبْتَغِي بِهَا رِزْقًا مِنَ الطَّعَامِ فَأَضَاعَهَا
 فَكَأَنَّمَا أَضَاعَتْ عَقْلَهَا وَضَاقَتْ عَايِهَا الدُّنْيَا وَخُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّ
 لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مَا يَسَعُ طِفْلَةً . . . فَلَمْ تَجِدْهَا غَوَاثًا إِلَّا فِي
 الْمَوْتِ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَبِيهَا فَجَرَعَتْ مِنْ «الْفَنِيكِ» جُرْعَةً
 سَائِغَةً كَانَتْ فِيهَا نَفْسُهَا وَابْتَعَدَتْ عَنْ أَبِيهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مَا بَيْنَ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَهَذَا مِثَالٌ مِمَّا يَجِبُ الضَّعْفَاءُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّعَاسَةِ . تَمُوتُ
 الْفَتَاةُ ، وَتَسِيرُ الْجَنَازَةُ ، وَيَفْتَحُ الْقَبْرُ لِعَشْرَةِ قُرُوشٍ . . . !
 وَيَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ هَذَا الْفَرَاغُ ، وَتُخْرِجُ الدُّنْيَا أَحَدِي عَجَائِبِ
 التَّعَاسَةِ ، وَيَشْهَدُ النَّاسُ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ الْقَاتِلَ ، وَكُلُّ هَذَا لِعَشْرَةِ

(١) فَرْقٌ بَيْنَ الْإِرْهَابِ الْيَخِيفِ وَلَا يَقْلُ وَبَيْنَ الْقَتْلِ الْيَخِيفِ وَيَمْحَقُ ،
 وَالْغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ غَيْرِ الْإِنْسَانِيِّ ذَلِكَ الَّذِي لَا مَكَانَ فِيهِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَهُوَ تَارِيخٌ
 يَتَوَهَّمُ وَلَكِنَّهُ يَقَعُ وَلَنْ يَقَعُ

غروش . . ! وَيَقَعُ لَلْفَتَاةِ امْرَانُ أَهْوَنُهُمَا الْمَوْتُ ؛ وَأَصْعَبُهُمَا الَّذِي لَا يُحْتَمَلُ ضِيَاعُ عَشْرَةِ غُرُوشٍ . . ! وَمَا عَشْرَةُ غُرُوشٍ يَا ابْنِي ! إِنَّهَا قَوْتُ حِمَارٍ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، وَنَشْوَةٌ سَكَّيرٍ فِي سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ ، وَلَذَةُ فَاسِقٍ فِي لَحْظَةٍ أَوْ لَحْظَتَيْنِ ، وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى غَنِيِّ لَثِيمٍ فِي نَفَسٍ مِنْ حَيَاتِهِ أَوْ نَفَسَيْنِ

وَإِذَا كَانَ يَعْلَمُ اللَّهُ كَيْفَ كَانَتْ فِي نَفْسٍ تِلْكَ الْمُسْكِينَةُ مِنْ غِلْظَةِ أَهْلِهَا وَقَسْوَتِهِ وَهِيَ أَخْشِيَتُ مِنْ بَادِرَتِهِ وَمَا حَسِبَتْ مِنْ اضْطِرَاجِهِ عَلَيْهَا ، وَكَيْفَ اسْتَحَالَتْ هَذِهِ الْقِطْعَةُ تَارِيخًا طَوِيلًا مِنَ الْوَسَارِيسِ وَالْأَوْهَامِ حِينَ أَضَاعَتْهَا ، فَالْنَّاسُ نَاسٌ لَوْ لَا الْوَهْمُ وَكَانَ الْوَهْمُ وَهْمًا لَوْ لَا النَّاسُ . وَكَعَمَرَى مَا الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ جَبَانًا فِي لِقَاءِ الْحَوَادِثِ حَتَّى يَخَافَ الْحَيَاةَ فَيَسْعُوذُ بِالْمَوْتِ ، وَيَضْرِبُ مَا أَقْبَلَ مِنْ دُنْيَاهُ بِالَّذِي هُوَ مُدْبِرٌ ، أَوْ يَخْشَى الْمَوْتَ فَيَتَعَذَّبُ بِالْحَيَاةِ ، مَا أَدْبَرَ مِنْهَا وَمَا أَقْبَلَ ؟

أَمَّا إِنْ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ فَقِيرٍ وَلَا غَنِيٍّ وَلَكِنَّهُ حِرْصٌ عَلَى الْحَيَاةِ يُخَالِطُ بَعْضَ الْأَنْفُسِ وَيَسْتَمَكُّ مِنْهَا حَالَةً بَعْدَ حَالَةٍ فَذَا هُوَ قَدْ انْقَابَ فِي آخِرَةِ الْأُمْرِ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَخْوَرُ وَيَتَنَمَّرِي وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَخْنَعُ الْقَلْبَ مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَرِبُ عَلَيْهِ ^(١) وَالْيَقِينَ الَّذِي يَثَبَّتُ بِهِ حَتَّى يَبَاغَ بَعْدَ حَبْرٍ أَنْ يَكُونَ خَوْفًا مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسَهَا .

(١) رَبَطَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ أَلْهَمَهُ الصَّبْرَ وَفَوَاهِ

ومتى كان الحرصُ على الحياة قد صار خوفاً من الموت ، ورجع الخوفُ من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة ؛ فهذه أصابك الله حالةٌ من الجنون تستلبُ العقل ، وسواءٌ من أُصيبَ بها ومن خولطَ في عقله وليس معها هؤلَاءُ الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم إلا موتُ الجُبْنِ الذي يسمى انتحاراً أو حياةُ الجبن التي تسمى ذلاً ؛ ولخَيْرٌ لأمراء أن يكون حماراً من صنعة الله وتعرفه الحُمير من أن يكون حماراً من صنعة نفسه وتُسَكِرُهُ الناسُ . . .

إن لنا على هذه الأرض حياةً واحدةً عليمُ أهلُ العلم أنها حقيقةٌ مُسرَّعةٌ بين أوهامٍ فهي ما تبرح تَجَاهِدُ كلَّ شَيْءٍ ولا تثبت أطولَ من مدة جَهادها إلى أمدٍ غايتهُ أرذلُ العمر^(١) ؛ وعرف أهلُ الجَهْلِ أنها تتقدم إلى الموت وإن الموتَ يتقدم إليها فبها لا بد ما يتقيان . لا العلم ولا الجَهْلُ يرتابُ أو يشك في الموت ، ولا الفقر ولا الغنى ولا الصحة ولا المرض ولا شيءٌ من خصائص الأحياء ؛ لأنه ليس على الأرض حيٌّ قديمٌ . . . والكن العالم والجاهل والفقر والغنى والصحيح والمريض ؛ كلُّ هؤلاء يخافون الموتَ ويحرصون على الحياة إلا قليلاً منهم - فلبتِهم علموا أن النفسَ روحيةٌ وأنها نائمٌ لهذا الخوف ولا تقارُ عليه إذ هي لا تعرف الموتَ لأنها خالدةٌ ولكنها تعرف الألمَ لأنها في غير

دار خلود . ومعنى ذلك أنَّ الانسان يخاف الموت فيتصل هذا الخوف بالنفس فترده الى حوادث الحياة فتخيفه هذه الحوادث فيسذه هذا الخوف ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت^(١) ونحن انما ننصب الحبالة^(٢) ثم نرتبك فيها واضطرب فكأنا لا نصيد الا من أنفسنا ، إذ لسنا نجهل أن للنفس حظاً ليس للجسد وأن الفارس لا يربط في الإصطبل وإن كان جواده فيه . غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسمية وأن نعالف الفرس والفارس من طعام واحد فهذا التناقض الذى نسيء به الى أنفسنا هو الذى يجعل النفس خائفة من الحياة إذ لا تجد فيها غير ألم التعبد للأهواء والشهوات ولا نصيب من الحياة الا ما نستندم^(٣) به الحياة إليها فلا يكون من ذلك الا أن نسيء الينا هذه

(١) اذا خفت عاقبة طريق أنت سائر فيه قطعت الطريق كله . مضطرباً خائفاً وان كنت موقفاً ان ما يخيفك لم يأت بعد ولكن علمك انه آت هو سبب ما أنت فيه ، فاذا مشيت فى نور روحك وفضائها لم يحبك شيء ، واذا مشيت فى ظلمة شهواتك خفت من كل شيء . طبع لا تدري سببه وسببه فى نظام الروح ونظام الجسم ونظام الكون

(٢) الحبالة شبكة الصيد وارتباك الطير فيها اضطرابه حين يقع

(٣) أى تدعوه الى ذمها

النفوسُ بتناقضٍ آخر، فربما كان الرجلُ في النعمةِ السابغةِ قد
اينسَعَتْ خَضِرًا وُها ثم هو لا يشعرُ منها الا ما يشعرُ من المصيبةِ
الملاحقةِ . ومتى فزَعَتِ النفسُ من الحياةِ كما عرفتَ فلا هناءَ على
ذلك الفزعِ ولا تكون الحياةُ من ثمَّ الا موتًا مستمرًا أو خوفًا
من الموت لا ينقطع . (١)

قال « الشيخ علي » يابنيَّ إن الحرصَ جبنٌ ، والجبنَ ذلٌ ،
والذلَّ استعبادٌ ، وما يدخل من هذه الأبوابِ إلا الشرُّ ، فبكن
حرًّا من الأهواءِ كما خلقتَ وكما خلقتَ الحريةَ التي لا قيْدَ
لها من رذائلِ الدنيا فانك لن تُراعَ ولن تعرفَ مما يسميه الناسُ
تعاسةً أكثرَ مما تعرفُ مما يسمونه سعادةً ، وان تجددَ في مصائبِ
الحياةِ ما يموتُ دونه الصبرُ الجميلُ فان عمرَ هذا الصبرِ أطولُ
أبدًا من عمرِ الصابرينِ .

لذلك لا يغضبُ الفياسوفُ ولا يخافُ الشجاعُ ولا يبخلُ
الكريمُ ولا يذلُّ الأنوفُ ولا ينافقُ الرجلُ الحرُّ ولا

(١) المخ في الانسان هو المساط على أعصابه والروح هي المساطة على
المخ . فادا سخرته الروح في أعمالها استقامت الحياة واذاسخرته الاعصاب
انعكست الآية وهذا هو الواقع ودليله حسي لا مكابرة فيه ، فالصالح
ضعيف الشهوات هادىء مستريح والسافل بالعكس وكأنه من تعب الحياة
يمشى في الارض على رأسه لا على رجله

يَكْذِبُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ ؛ وَأَمَّا هَذِهِ مَظَاهِرُ مَحْدُودَةٍ مِنْ حَرِيَّةِ
النَّفْسِ فَكَيْفَ بِالنَّفْسِ إِذَا كَانَتْ حَرِيَّةً مِنْ كُلِّ أَقْطَارِهَا ؟
وَقَدِيمًا عِلِمُ النَّاسِ أَنَّ مِنْ لَا يَسْبَالِي بِشَهْوَاتِ جَسْمِهِ هُوَ
الَّذِي يَسْتَرِيحُ وَادِعًا وَيَتَعَبُ التَّعَبُ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ ؛ وَمَا عَلِمَتْ
وَلَا عِلْمُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَطِبَّاءِ غِذَاءًا تَسْمَنُ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ وَالْأَحْزَانُ
إِلَّا الْحَرَصَ عَلَى الشَّهْوَاتِ

وَلَيْتَ شَعَرَى مَا هِيَ هَذِهِ الشَّهْوَاتُ ؟ أَمَّا إِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ
نَزَعَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا بِمَقْدَارٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ تُعَالِجُ
نَفْسَهَا بِمَا يُعِينُهَا عَلَى الْبَقَاءِ (١) وَمَا يَجْعَلُهَا صَالِحَةً لَهُ عَلَى الْوَجْهِ
الْأَفْضَلِ فِيهِ تُغْرِى الْإِنْسَانَ مَرَّةً وَتَوَلِّيهُ مَرَّةً ، كُلُّ ذَلِكَ
لِيَجَابَ لَهَا أَوْ يَدْفَعَ عَنْهَا فَمَا تَسْمِيهِ لَذَّةً مِنْ لَذَاتِ الْجَسْمِ أَمَّا هُوَ
عِلَاجٌ طَبِيعِيٌّ مِنْ أَلْمٍ طَبِيعِيٍّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ كَالَأَكْلِ
مَثَلًا فَمَا كَانَتْ الطَّبِيعَةُ لِتُغْرِىَ بِهِ هَذَا الْإِغْرَاءَ حَتَّى فَاتَ عِنْدَ
أَكْثَرِ النَّاسِ حَدُّ اللَّذَّةِ لَوْلَا أَنَّ الْجُوعَ انْحِلَالَ فِي الْجَسْمِ ؛ فَإِنْ

(١) وَلَمَّا كَانَ الْبَقَاءُ مَحْدُودًا بِمُدَّةٍ فَالشَّهْوَاتُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ
مَحْدُودَةٌ بِمَقْدَارِ اتِّقَاعِ الْمَلَأَةِ فِي مَوْقِعِهَا وَيَحْمِلُ شَيْءٌ شَبَثًا وَتَنْتَفِعُ النَّفْسُ
بِمُدَّتِهَا فِي الْحَيَاةِ . فَإِذَا خَرَجَ الْمَرْءُ عَنْ طَبِيعَةِ نِظَامِهِ زَاغَتْ طَبِيعَتُهُ فَلَا يَزِيدُهَا
وَلَكِنَّهَا تَنْقُصُهُ وَلَا يَصْلِحُهَا وَلَكِنَّهَا تَفْسِدُهُ . إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا
وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظَاهُونَ

هو أسرفَ عليه أو استمرَّ به أو وقع فيه الفساد ورَكِبَه بالضعف
علَّةٌ بعد علَّةٍ .

غير أن الإنسان بما فيه من شبه البهيمة ينجذب إلى طبع
البهيمة غالباً ونسى أن للبهائم وازعاً طبيعياً هو فضيلاتها الخاصة
بها فأقبل يرتع ماشاء، وجدَّ به الحرص بمقدار ما يطمع فيه ،
وغاب الطمع على بصيرته ، فلا يكون في إنسانيته إلا بهيمة
تخيّل وتفتن مالا بتفتن إنسان ولا بهيمة . وما تجد من
مستتهتر بالشهوات إلا وجدته من أجل ذلك راضياً مغتبطاً
بتمنى لو أنه في هذه الشهوات بهيمة البهائم كافة

أفٍ لهذه الدنيا يحبها من يخافُ عايتها وتي خاف عايتها
خاف منها فهو يشقى بها وبشقي لها، ومثلُ هذا لا يكاد يطالعُ وجهَ
حادثة من حوادث الدهر إلا خيّلَ إليه أن النعاسة قد تركت
الناسَ جميعاً وأقبلت عليه وحده ؛ ولولا الخوفُ يُزَلُّ قلبه
لأدرك الفرقَ بين التسمية والعاصفة وعلم أن اللفظة لا يلزمُ
منها أن تَخْلُقَ معناها وأن ليس كلُّ مانسميه نعاسة يكون
في حقيقته من النعاسة

وترى الواحدَ من هؤلاء لا يزالُ يُلوكُ لسانه (١) في
كلمات من التأميل والسخط والألم والنفرة وغيرها مما هو من

لغة الحرص على الحياة ؛ فهو على الأرض وكأنه يعيش في
سحابة تجرى بها الريح . ولعمري كيف تهتأ الحياة مثل هذا
إلا إذا كان أديم الأرض من ورق الزهر ، وكانت مزايل
هذه الدنيا رياضاً غناء ، وعدت الطيور الجميلة من كلاب هذه
المزايل ... ؟

كذلك لا يسعد أكثر الناس بالحياة ولكنهم بشقون
بالحياة والموت ؛ ومن ثم ظلموا التعاسة فجعلوها أصغر مما هي كما
ظلموا السعادة فتوهوها أكبر مما تكون .

« قال الشيخ علي : واعلم يا بني أن القدر وإن كان من
السماء ولكن تاريخه ثابت في الأرض وما كانت المصائب
جديدة في الحياة ؛ وهذه المحابر التي كتبت منها تاريخ الإنسان
لا تزال كما كانت من قبل تسرف بالدماء وبالدموع ولا يزال الدهر
يمد منها ولا يزال يكتب من هذا المداد . فهم يخاف هذا
الإنسان الجديد وليس فيما ينزل به إلا ما نزل بمن قبله وما هو
بخالد ولا هو بمتروك لما يحاوله ؛ واقد علم يقيناً أن الله لم يخلق
فيما خلق مقراً ضائِقاً أظفار الموت ؛ يريد من قدر الله زلاً لا
صافياً كأنه ماء مرشح .. يسب من حيانه في كأس من
البلور .. ! وابتغي أن يكون في الأرض تاريخاً جديداً ساساً
منقحاً ليس فيه شيء من تلك الألفاظ الجافية في نبرتها

وخُسُوتُها: أَلْفَاظُ التَّخْرِيبِ والتدميرِ والتقتيلِ والجوعِ والمرَضِ
والأَحْزَانِ والهمومِ ونحوها .

فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ الَّذِي تُمَايِهِ قُدْرَةُ
اللَّهِ عَلَى الطَّبِيعَةِ ثُمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا كَالطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا فِي النِّظْمِ وَالذِّسْقِ
وَلَا يَجِيءُ الْإِنْسَانُ الْجَدِيدُ فِيهِ إِلَّا طَبَاقًا أَوْ نَاسِخًا أَوْ مَنْسُوخًا ؛
فَهَذَا هُوَ مَوْضِعُ النِّفْرَةِ وَمَكَانُ الْأَذَاةِ وَمِنْهُ مَشَارُ الْهَمِّ وَالْيَه
مَسْرَبُ الدَّمْعِ ؛ وَذَلِكَ وَاللَّهُ مَعْنَى أَنَّ لَمْ تَنْشَأْ مِنْهُ تَعَاسَةُ الْإِنْسَانِ
فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ تَعَاسَتِهِ .

الْإِنْسَانُ كُلُّهُ يَا بَنِي مُنْطَرٍ فِي رَأْسِهِ وَمَا هَذَا الْجِسْمُ إِلَّا
أَدَاةٌ مِنْهَا مَا يَحْمِلُ الرَّأْسُ وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُ إِلَيْهِ وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُ
عَنْهُ ؛ فَالْجِسْمُ دَابَّةٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ . وَالرُّءُوسُ
لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوزَنَ بِمِيزَانٍ حَتَّى يُعْلَمَ فَرْقُ مَا بَيْنَ رَأْسٍ وَرَأْسٍ آخَرَ ،
فَالْإِنْسَانُ مُخْتَبِئٌ مُحْتَجِبٌ وَكَأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِنْهُ جُزْءٌ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا
يَنْفَكُ يُجَدُّ مِنْ نَفْسِهِ مَا بَعْدَهُ عَلَى النُّزُوعِ إِلَى الْغَيْبِ وَالْفِكْرِ فِي
الْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّ هَذَا الْمُسْتَقْبَلَ تَمَامٌ لَهُ ؛ وَلَا يَبْرَحُ يَشْعُرُ بِالْحَيَاةِ شَعُورَ
الْمَنَامِ أَوِ الْمَتَعَبِ أَوِ الْمَكْدُودِ أَوِ الْمَغِيْظِ أَوِ الْمَفْزَعِ أَوْ أَيْ مَا
يَكُونُ مِنْ أَشْبَاهِهَا لِأَنَّ هَذَا الْحَاضِرَ غَيْرُ تَامٍّ بِهِ وَلَا كَامِلٌ مَعَهُ
وَأَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ وَلَا مِنْ الْعَجِيبِ أَنْ يَأْلَمَ الْإِنْسَانُ لِحَيَاتِهِ .
أَلَا يَرَى أَنَّهُ فِي جِسْمٍ لَا رَاحَةَ لِلرُّوحِ إِلَّا بَعْدَ تَحْطِيمِهِ ؟

ومن ههنا تَفَاوَتَ الناسُ فَمِنْهُمْ مَنْ تَرَاهُ كَأَنَّهُ يَحْاُولُ أَنْ
يَكْشِفَ عَنْ جِزْئِهِ الَّذِي فِي الْغَيْبِ وَيَصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَاضِرِهِ فَيَتَوَهَّمُ
فِي الْحَيَاةِ مَا لَيْسَ فِيهَا وَيُسَخِّرُهَا لِأَوْهَامِهِ بِاطْلَالٍ؛ وَهَنَهُمْ مَنْ يَقْبَلُ
عَلَى شَأْنِهِ وَيَأْخُذُ الْحَاضِرَ بِمَا فِيهِ وَيَعْرِفُ أَنَّهُ حَيٌّ وَلَكِنْ عَلَى
شُرُوطٍ لَا بَدْءَ مِنْهَا لِلْحَيَاةِ .

فَأَمَّا الْجَاهِلُ الْأَحْمَقُ الْمَخْدُوعُ فَكَأَنَّمَا بَرَى فِي مِرَاةِ خَيَالِهِ
الْغَيْبَ كُلَّهُ أَوْ مَا يَظُنُّهُ الْغَيْبَ كُلَّهُ فَلَا يَعْدُو أَنْ يَسْتَرْسِلَ فِي
ظَنُونِهِ وَأَوْهَامِهِ اسْتِرْسَالًا أَشْبَهَ بِالْأَبْدَانِ لِأَحَدٍ لَهُ ؛ وَمَنْ نَمَّ
لَا يَرْضِيهِ شَيْءٌ مَا دَامَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ شَيْءٌ لَا يَرْضِيهِ ، وَلَا يُقْنِعُهُ
شَيْءٌ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ لَا يَنَالُهُ ، وَكُلُّ مُصِيبَةٍ يَخْشَاهَا أَوْ يَتَوَقَّعُهَا
فَكَأَنَّمَا هِيَ نَازِلَةٌ بِهِ أَوْ قَدْ نَزَلَتْ ؛ وَعِنْدَهُ أَنَّ كُلَّ
مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ؛ وَمَا هُوَ جَائِزٌ فَالَيْسَ مَا يُمْنَعُ
أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا ، وَمَا قِيلَ إِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ ، وَمَا
الَّذِي يُمْنَعُ أَنْ تَخْسَفَ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ تَقَعَ عَلَيْهِ السَّمَاءُ أَوْ يَنْحَدِرَ
إِلَيْهِ رَجْمٌ مِنَ الشَّهْبِ أَوْ يَنْهَبَتْكَ حِجَابُ قَابِهِ ^(١) أَوْ يَسِلَّ
الْبَلَاءُ خَيْطَ عِظَامِهِ أَوْ يُخَالِطَ جَوْفَهُ كُلَّ دَاءٍ دَوِيٍّ ثُمَّ مَا شَأْنُ
مَنْ أَوْ بَعْدَ أَوْ . . . إِلَى أَعْدٍ حَدٍّ مِمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ أَهْلُ الْفَقْرِ
فِي الْفَقْرِ وَأَهْلُ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَمْرَاضِ وَأَهْلُ الْأَحْزَانِ فِي

(١) كناية عن موت الفجاءة .

الأحزان وأهل المصائب في المصائب ؛ فيذهب العمر باطلاً بالذى عاينه والذى له ويجنى هذا الانسان على نفسه من أثر الخوف والطمع ما لا يستقيله أبد الدهر فلا يهنا بموجود ولا يطمئن الى مرجو ولا تكون آماله إلا مخاوف مستبهممة لا مأتى لها من الحقيقة فيجد روح التعاسة في أشياء كثيرة ولا يكاد يُصيب العزاء في شيء قليل .

وهنا يابى الحفرة التى يُقبر فيها بعض الأحياء ليعيشوا عيشة وهمية أو ليموتوا موتاً وهمياً تلك الحفرة التى يقضى الأحمق شطراً من عمره واثباً فى الأوهام بين شاطئ الدنيا والآخرة حتى اذا انتهى اليها تردى فيها وكان الرأى لو ادّخر لها بعض تلك الونيات . . .

وأما الحكيم الذى بعرف الحياة كما يمكن أن تكون وبعرف أن كل حي من الناس فانما هو حي على شروط لو اهب الحياة ، ثم للحياة نفسها ، ثم لأهل الحياة — فهو أدري بالمصائب من ذلك الأحمق ولكنه لا يُثيرها ولا يبحث عنها ولا يمتأق لها العليل^(١) من نفسه ولا يعترضها فى غيره . وما نزل به منها فانه يفتح لها من قلبه سيلاً تمر فيه بين العزيمة والجرأة ، والا فبين الثبات والصبر ، والا فبين

(١) يخرج ويستنبط

التوكل والایمان ؛ وما أهون مصيبة تفتح لانصرافها ثلاث طرق واسعة .

وهذا الحكيم يجد في محنته لذة تشبه لذة الدرس لمن هممه الحكمة واختيار الأشياء ومعاناة خواصها وأسرارها كأنه من مصائبه في « معمل » للتجربة والاختراع ؛ فانما هو يتلقى عن الله ما لا يصيبه به إلا هو وما لا يصرفه عنه إلا هو وانما يستعمل رأسه للفهم لا للوهم . وهو يعرف أن علم الله أزلي يسع الأزل كله وأن الأقدار من علم الله فهي مقسومة على الدهر كله وأنه هو في جانب الدهر لا يباغ أن يناله ماتنال الشرارة من ماء البحر اذا هي انطفأت في البحر .

هذا الحكيم يعرف أن الحياة ليست هي الانتهاء الى الموت على أى وجه ولا هي بالهرب من الموت في كل وجه ، فهو لا يبالى الموت ولا يخافه ولا يعبا بالحياة ولا يرجوها ولكنه يهوى على صراط من فضائله وعلى نور من ربه فا دامت فضيلته لا تنكسر وما دام قلبه مطمئنا بالایمان فكل ما بين الأرض والسماء وما بين الآخرة والأولى هو مادة العزيمة في نفسه ومادة القوة في روحه ومادة الابتسام على شفتيه ؛

فان نزل به هم وأدركه خور الطبيعة وضعف الانسانية فلم يستطع أن يخاض منه ، صرفه الى جهة غير جهته ، واستخرج

منه معنى غير معناه ، وفابيل بن راحة الرضا به وتعب السخط
 عايه ، ونظر في مبالغ شره وما عسى أن يكون حاله لو نزل به
 ماهو شر منه ، وجمع بين الدعاء لله أن يصرف عنه ما وقع وبين الحمد
 لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع ؛ ثم لا يزال يعالج الهم مستأنياً
 ربيطاً جاشه حتى تثوب إليه القدرة على نفسه فتسكن إليه النفس
 من نفرتها ، وحتى يرى هذا الهم كأنه مما لا بد منه في رياضة
 أخلاقه وتنزيه شمائله ، وكأن صدع الجانب الذى بينه وبين
 الناس أو بينه وبين نفسه إنما كان لتقوية الجانب الذى بينه وبين الله .
 وأشقى الناس من يتوقع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره
 ما الله صانع به ولا من مستقبله ما الله قاض فيه ، وكأنه يتظننى
 بالله فيرى أنه تعالى قد وكله الى نفسه وأياسه من رحمته وحرف
 عنه تيار الغيب المتدفع بالحوادث والأقذار ، بين شاطئ الليل
 والنهار ، فلا يدفع اليه جديداً ولا يصرف عنه قدماً ؛ وكأن
 الزمن كله يتحرك وهو ثابت فار قد حصره الهم من هذا الفلك
 في زاوية ، ووضع الدهر من بيت الأحزان موضع القافية ؛
 والمصيبة في مثل هذا أكبر من كل شيء لأنها لا شيء . .
 ولا ينفع المرء أنه من الناس اذا لم يكن من نفسه ، وهذا لانفس
 له أو كأنه لانفس له إذ لا ثقة به ولا قوة فيه ؛ ولو كان وجهه
 جليده مما بين عيني الأسد لما ظهر إلا جباناً ، ولو اختلط الحاضر

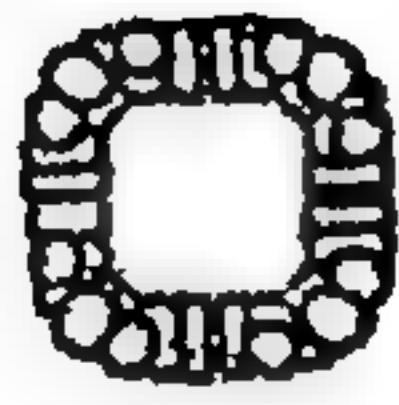
المستقبل على شيء لما اجتمع منها ما يجتمع من غُضُون جبهته في
تعاسته التي يظن أنه مُخَصُّ بها ؛ فهو يتوهم الخوف ثم يخاف
مما يتوهم ثم يخاف أن يكون الأمر أكبر مما توهم . ثم
يخيفه أن يتخذ له الأقدار فلا يقوى على ذلك ثم يكون أشد
خوفه من أن يستمر له ذلك . فن خوف الى خوف الى خوف
وهو تتابعٌ يصور الرعدة التي تعتريه لجبنه كما يصور ضحك القهقهة من
هذا الجبن (١)

وذلك يابى ضربٌ من ضروب استحالة النفس كأنها ليست
في صاحبها أو ليست له ، فهو يتمر على الحقائق فزعاً كما يمر الطائر
على الأخيصة التي تنصب له على الثمر ، ويمزع منها كما يجزع
الطفل من أرواح المردة والشياطين التي تسكن أفاظ التهويل
ونحوها مما يفرع به ؛ ثم هو من المصيبة الواحدة في مصيبتين :
أما الأولى فشدة الخوف التي تفقده لذة ما يكون فيه من النعم -
والنعم لا حصر لها - فلا يشتهيها ولا يجد لها مساعاً بعد أن لبدسه
مرض الهم : وأما الثانية فقوة اليأس التي تضعف قدرته على

(١) من المقرر أن الأفكار تتداعى ؛ فانذوف لا يحلب على الفكر إلا

ما يشبهه إن استمر به فتكون المصيبة واحدة ولكن انذوف يكون بها وبما
تتصل به وبما يمكن في العقل أن تتصل به فكأن النفس قد ركبتا رعدة

الحيلة للخلاص مما نزل به فكاً عما شدد عزمه وثاقاً ثم لا يكون
من اجتماع المصائب الثلاث ^(١) معاً إلا أن يورثه الذل وسقوط
الهمة وتخلخل الفؤاد واضطراب النفس حتى كأنه من هذه
الوساوس بين جدران وثيقة محكمة لنافذة منها على فضاء
الغيب والغيب ملء إلا بد، فيصبح جليداً بلا جلادة، وعظماً
أوهنت منه البلادة، ورجلاً لو أطاعته كل قوة في
الدنيا لأطاعته الإرادة، وصنماً من أصنام الحياة يعرفه العاقل
للتحطيم ويحسبه الجاهل للعبادة ...



(١) هو نفسه مع المصائبين مصيبة ثالثة ...

الفصل السادس

وهم الحياة والسعادة

قال « الشيخ علي » : ولقد عرفنا الحياة ماهي لأننا نحن أُمَمٌ مَيَّاتَةٌ عليها ولكن البحث في معنى هذه الحياة لم يَنْتَه بعدُ لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوق السموات ، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يَخْطُطُوا في كُتُبِهِمْ بِمِدَادٍ مِنْ أَضْوَاءِ النجوم التي يَسْكُبُهَا الْخُلُودُ كُلُّ لَيْلَةٍ عَلَى الْأَرْضِ مَلٌّ مَحْبَرَةٌ اللَّيْلُ لَكَانَ عَسَى أَنْ تَسْتَسْنِيرَ مَبَاحِثَهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ . وَأَنْتَى لَهُمْ ذَلِكَ وَلَيْسَ وَرَاءَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَّا الَّذِي هُوَ وَرَاءَ السَّمَاءِ وَلَا وَرَاءَ السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي هُوَ وَرَاءَ النَّفْسِ ؟

أَلَا فَاعْلَمْ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ مَا دَامَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ يَتَعَاقَبُونَ عَلَى تَفْسِيرِ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ وَلَمْ يَنْتَهَوْا بَعْدُ فَمَعْنَى ذَلِكَ عِنْدَنَا نَحْنُ الْجُهَلَاءُ أَنَّهُمْ لَمْ يَبْدُؤُوا بَعْدُ

وما هي الحياة ؟ أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ طَرِيقًا مَسَافَتُهُ كَذَا ، وَلَا قِيَاسًا ذَرْعُهُ كَذَا ، وَلَا وَزَنًا مَبْلَغُهُ كَذَا ، وَلَا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تَضْرِبُ الْأَقْلَامُ وَالْأَلْسُنُ فِي مَفَاصِلِهَا بَلْ هِيَ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ عَالٍ إِلَى بَعِيدٍ إِلَى غَامِضٍ إِلَى مُبْهِمٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى

منبع النور الذى تلتطم على ساحله مَوْجَةُ الأبد
وان أيتَ إلا ماهو دون ذلك وُضوحًا وانكشافًا وبَسْطًا
فى التأويل فقل إنها فى كلمة واحدة فتُح السَّماء بفكرة واحدة (١)
ولندعنى يابنى من لغة هذه الكتب فلها متى انتهت الى
السَّماء رأيتها أكثرَ ما تراها ألفاظًا لا معنى لها إذ ليس هناك من
جلال الله إلا ما يشبه أن يكون معنى لا ألفاظ له .

ودعنى أحدثك عن الحياة بما أفهمه أنا الرجل الطيبى من
فَلَقِ الصَّباح ومن رَوْعة الشمس ومن إقبال النّيل وإدباره ؛ وبما
أعرفه من هذه اللغة التى تنزل بها السَّماء ما يتصل بنا من معانيها ،
لغة القضاء حين يسأل ولغة القدر حين يُجيب ؛ وبما أستوحيه
من معانى هذه الإشارات التى تتحركُ بها أجوارح الطبيعة وهى
مزيجٌ من لغة البقاء والأرضى الذى يريد أن ينتهى ولغة الخلود
السماوى الذى يريد أن لا يفنى ؛ فالحياة يا شاعرى العزيز لا تخرجُ
من الدّواة ولا تقطُرُ من القلم ، بل أنا أحسبُ هذا المداد الكثيرَ
الذى أراه عاينها الناسُ هو الذى جعلها كما يقول الناسُ سوداء
ولا يكفى أن يعلم الرجلُ كيف يسوقُ المقدّماتِ وكيف يُحسنُ

(١) يكاد يكون المخ مادة سماوية أودعتها السَّماء هذا الإنسان تصل
روحها بها واتصافه هو بروحه فلو وقف على سر الحياة لفتح السَّماء . ولكنه
بتقدم أبدا ليكشف عن الروح والروح من ورائه فهيها

القياس وكيف يُخرجُ معنىً من معنى حتى تكون النتيجة على ما توهم والحقيقة على ما يقيسُ والصواب كما يستخرج . وفي علم الحياة خاصة - وهو العلم الذي لا مادة له إلا من الحوادث - أن بناءً من المنطق لا يتخذها بيتاً إلا ساكنٌ من الخيالات
لستُ أعرفُ الناسَ قد ذالوا بشيء قط مغالاةً لهم في قيمة هذه الحياة . فقد والله استجمعوا لها كل ما في الرغبة من الحرص ، وكل ما في الخوف من الحذر ، وكل ما في الالتماس من الترقب ، وكل ما في الحب من الخيال ؛ واستجمعوا فوق ذلك تلك المعاني التي لا قرار لها في الأرض ولا في السماء : معاني النظرات الوهمية التي تُرساها المخلوق من أرضه إلى عرش الله كأنه لا يجرؤ على أن يشك في نهاية الحياة إذ هي تنتمي على أعين الناس ، ولا أن يجزم بهذه النهاية إذ هو لا يريد الموت وكأن الحياة لا تكفيه .

ومادام للحياة غدٌّ يُرتقب وهو الذي يسمونه المستقبل ، فكلُّهم يسهل على الحقيقة أن يهاككها أو يمرضها أو يخذلها منه إلا تلك المغالاة الممقونة فانها أبداً في خصب وعافية ما يفي لها غذاء من ذلك المستقبل المحجوب .

« قال الشيخ علي : وأنت إذا سألت رجلاً عن مسألة فسدد الجواب وأحكم الصواب قات هذا جوابٌ يحسن السكوت عليه ؛ ولكنك إذا سألتني أنا ما هي الحياة كما يفهم الناس ؟ قات

لك هذا سؤالٌ يحسنُ السكوتُ عايه لان اللغة هي هي التي
أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيه من
أوهام الأحياء ، وكم فيما وراء السماء من معاني تملأ الأبد ولعابها
لا تملأ سطرّاً أو سطرين في معاجم اللغة . ولكن دع هذا وسأني
ما هو الزمن الذي يقضيه الانسان من يوم يولدُ فلا يقدرُ أن
يرفضَ هذه الدنيا الى يوم يموتُ فلا تستطيع هذه الدنيا الآن
ترفضه ؛ وما هو هذا المهدد الذي يكبرُ شيئاً فشيئاً حتى
يصير في الآخر قبراً ؛ وما هو هذا العمر الذي يمتلئ قليلاً قليلاً
حتى ينتهي الى الفراغ فيغيب فيه ؛ وما هي هذه الحوادث التي
تزلزل الناس (١) في طريق اقدار حتى ينخروا على وجوههم
فتتحول أجسامهم في الأرض الى تراب في طريق المنفعة ويتحول
ناربخهم تراباً على طريق الموعظة ؟

سأني كذاك بابي أجبك : هذا الفناء المحتوم وهذا السقاء
المقضي وهذا الأمل الباطل وهذا النصب الضائع وهذا العمل
الذي لا يراد لنفسه ولكن لما بعده ؛ كل ذلك هو الحياة .
أفلا ترانا نخادع أنفسنا اذا سألنا عن الحقيقة التي يسوءنا أن
نعرفها فنحرف السؤال الى جهة بعيدة لكيلا نرى الجواب
الصحيح مفبلاً عاينا ولكن مدبراً عنا ؟

(١) اسوقهم بمعرب يقال جاء بالابل يرارها

فما عسى أن تكون هذه الآمالُ وهذه المنافساتُ وهذا
النزاعُ وهذا الصراعُ وهذه الأفراحُ وهذه الأتراحُ وكلُّ ما إلى
ذلك مما هو من مدلول الحياة — إلا باطلاً نستمتع به قليلاً ثم
يظهر أنه متاعُ الغرورِ ؟

ما عسى أن تكون الحياةُ بكل ما فيها إلا مدةً محدودةً علي
ظهر الأرض تجعلها أوهامُ الإنسان ومطامعه وحماضه وجهله
وكبرياؤه كأنها لا بدُّ كَلِّه ، فيكدُّ ويكيدُّ ، ويعملُ ويدَّخرُ
ويهنأ ويحزنُ ، ويطمع ويحرصُ ، على نسبةٍ من ذلك لا من نفسه
أى نسبةٍ أبديةٍ لا إنسانية . ألا إنما مثلُ هذا الإنسانِ الغرورِ
مثلُ رجلٍ جمع الله عليه المصيبتين في باصرته وبصيرته فضلٌ
في مكان فهو يقبيلُ ويدُّبرُ في دائرة من فضاء الأرض لا يهتدى
إلى الوجه ولا يذهب على السمت ، فيتوهم أن الطريق لا ينتهي
وأنه وقع في صحراء لم تدرسها عكازته وليست من علم
رجايه في جغرافية هذه « المسكونة » وكما لا تكون الطرق
عند هذا الأعمى إلا من علم رجايه فأكثر طرق الحياة عندهؤلاء
المغفلين الذين يطمس الله على بصائرهم هي من علم بطونهم وما
أدراك ما علم بطونهم ... ؟ وما رأيت الحكماء أحداً قط جهل حقيقة
معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة في بطنه . . . ، ولذلك قالوا : من
كانت همته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه . . .

وانما البطنُ جوعٌ فَشَبَعٌ وشَبَعٌ فجوعٌ ، وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء الا جوعاً في الشهوات والآمال فلا يُطفئه إلا ما يُسعره ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لا مد أن يرجع التعب به ؛ جوعٌ في الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن لأن علم الحياة عندهم علمُ البطن لا بالعقل وكلاهما منلثة بهذا الانسان ^(١) وبالله كيف يريد الانسان أن يحيا كما يجب ثم يجب ما لا ينفق مع سنن الحياة ؟ من أجل ذلك شقي أكثرُ الناس بالعقل إذ يُقلَّبون به الأمور ويخالون منه الحيسل ويكرهونه أن يعمل على السخرة في لذة الجسم ويخضرونه من هم الشهوات الحيوانية ما لا قبل لهذا الروح الالهى أن يستكلب فيه ؛ ^(٢) وإذ يُخضعون به دلاً من أن يُخضعوا له ويسرون به بدلاً من أن يسير بهم ؛ فكان ذلك طغيان الحواس وطعنسها على الروح وتعفيسها على آثارها الانسانية ؛ ولا جرم كان من وراء ذلك طغيان هذه القوى المتراصة في الاجتماع وانبياقها بالمر من كل ناحية ؛ وندخلت حدود المطامع بعضها في بعض فصار الناس كالأمواج لا تقوم القائمة إلا من سقوط الساقطة .

(١) المنلة السكيل

(٢) أى يظهر من الحدة الحيوانية كأنما اصابه الكلب (يفتح

اللام) وهو حيون الكلاب

وكان الناس يتعلمون كيف يسبحون في بحر الدموع ليأمنوا
الغرق فيه وليستسكنوا الغرقى منه (١) فجدت بهم الحوادث
حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أن ينقذ نفسه يجتهد
أن يغرق غيره

الانسان حيوانٌ لولا العقل ، فلما أخضع لشهواته العقل
صار انساناً لا حدة له في الحيوانية فهو من هذه الجهة لا انسان ولا
حيوان ؛ وان كان الشيطان مطرودا من رحمة الله نفيراً ما يقال في
هذا الانسان أنه شيطانٌ فيه موضعٌ للرحمة

ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ضابط لها إلا العقل يحكم
تحديداتها ، وتولي أسديدها ، وتستعين في أمرها بكل على كل ،
ومن ثم يستقيم من هذا الانسان شيء معقول وبصريح قد ضربت
عليه الحدود لا يتعدأها ورسمت له دائرة في الانسانية لا يجاوزها
فيقر كل امرئ في حيزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس
منه وثائق من العقل وبيّنات من الحق اذا هو حاكم اليهم
ضلالة منهم أو حاكوا اليه ضلالة منه ؛ (٢) وهناك يرى كل

(١) كسايه عن المواساة في الأحداث والمصائب والاحراا ومساعدة

بعضهم بعضاً وهي من شروط الأيمان

(٢) متى لم يكن الانسان في حيزه وطغت به شهواته وأسرف عليه

حواسه ، انقطعت الصلة بينه وبين الناس من جهة أو من جهات ، وحينئذ

عمل طيب ثواب نفسه لأنه هو من فضائله كأنه شريعة لنفسه ومتى كان العمل الطيب مما يجزى في ثوابه عند الرجل من الناس أنه عمل طيب ، فقد أصبح ولا غرو من سعادته إذ لو لم يجد به سعادة لما لقي منه ثواباً ، وبذلك - بذلك وحده من دون كل الوسائل الاخرى - تصبح السعادة عملاً من الأعمال يمكن أن يُمارسه الانسان فيسعد ما شاء الله أن يسعد ، ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها فان تحققت أو لم تتحقق فإمّا دخلت على نفسه بسرورها وإما خرج منها بعذره وقد أبلى عذراً . ومتى صارت

لا يجد في الرذيلة معناها إذ هي رذيلة في تحديد الناس وفيها تواضعوا عليه من معناها وحدّها ، فيضع هو لها تعريفاً جديداً تكون الرذيلة فيه كل ما لا يوافق هواه ولا يساعف أعراضه ، ويصبح كأنه وحده دنيا وكأن الناس دنيا أخرى فكل ما اعترضه أو صادمه من مصالحهم ومراسد أمورهم عده عند نفسه رذيلة . . .

ومن ههنا ترى بعض (فلاسفة الشهوات) في التمدن الاوربي الفاسد يعدون حياء المرأة المحصنة ضعفاً وعفاقها مرضاً من أمراض النفاق ووفاءها لزوجها أنراً من العبودية ، ثم يرون الاديان كلها أوهاماً يقيدها بها الانسان نفسه ، ويتسابعون بمثل هذه الآراء في كل ما اصطاح الناس على أنه فضيلة أو انسانية . ولو هم حققوا ورجعوا الى ما أتى ذلك في انفسهم لرأوه أثراً من أعصابهم المريضة ولرأوا انفسهم في جنون الشهوات صورة أخرى من مجانين العقول

حياة رجل من الناس الى أن تكون واجباتٍ يتنَجَّزُها
وَيَسْتَقْضِيها من نفسه فما تَمَّ لشهوات البدن موضعٌ الا كموضع
النار من يَدَي المَصْطَلِي ، لا يُراد منها الا حرُّها ولا يُطلبُ
من حرِّها الا قَدْرٌ معلوم ، ولا يبتَغى هذا القدرُ الا مدةً بعينها ،
ولا تكونُ هذه المدة الا بمقدار ما يُصلِحُ أو يدفعُ الأذى
لا سرفَ في كل ذلك ولا هوانَ ولا مضِيعَةً

قال « الشيخ على » : ولكن كل شر العالم يابئٌ في لفظ واحدٍ
هو طغيانُ الحواس ، وبمعنى واحدٍ هو إِذْلالُ العقل ، ولغرضٍ
واحدٍ هو هذا الموتُ الادبيُّ الذي يسميه المغفلون سعادة الحياة .
منذ طَغَت الحواسُ أصبحت الحدودُ بين مطالب الانسان من
فضائله الى رذائله ولا أَرَاهَا لَان الشاطىء لا يُعرفُ تحت السَّيْل (١)
اذا طَمَّ عايه ، فما أنت ولا أنا ولا أحدٌ يدري ما هو حدُّ الكفاية

(١) كل الشر في هذه الدنيا أو ما نعتبره شرا يرجع اليه فكذلك الانسان
و بلاؤه - اما يأتي من زرع الحاسة في فرد فرد من الناس ، فتكون الطاقة
محدودة بمحدود كثيرة من قوة صاحبها ومن أحوال الناس ومصالحهم ،
ولكن الرغبة تجري مطلقة متخطية كل هذه الحدود ، ومن ثم يقع الاختلال
بين مقدار القوة وغاية القوة ، وبين الحقيقة الواقعة التي لا تتغير والحقيقة
المتوهمة التي لا تتحقق ، ولا يبالى الناس من ذلك شيئا لان الحدود قائمة
بينهم برسوخها والحقائق مقدرة بمقاديرها ، فلا يحل ضرر ذلك الا بصاحبه

في رغبات هذا الإنسان وأهوائه، بل صارت هذه الكفاية وما ينطوى تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما إليها ألفاظاً خيالية يُسائرُ ظاهرها ظلال الإنسان، فلاحداً لها مادام هو لا يثبتُ لنفسه حداً، ولا تتأخرُ مادام هو يتقدم. وأصبح أكثرُ الناس في رغباتهم الخيالية وما يعملون لها مدة الحياة كرجل ائتملى (١) أن يخطَّ دائرة مركزها ليس في محيطها فكلما رسم دائرة رأى المركز في داخلها فيجتاز به وراء المحيط ثم يدير يده فإذا واحدة أخرى تقاطعُ الأولى ولم يصنع شيئاً صحيحاً مما يحاوله. ويمضي على ذلك ماشاء الله ولا يصنع شيئاً فلا هو يُخطِّي رأيه ولا هو يرى من عمله شيئاً صحيحاً؛ وما بقي من الأرض فضاء لم يخطَّ عليه بعدُ فهناك؛ هناك يرى هذا الأحمق الدائرة المتوهمة

لا يعدوه وهذه مادة السخط والهم والكبد والنعاس في أكثر الناس حين لا يتحقق لصاحب الدرهم من قوة الملك في درهمه ما يتحقق لصاحب الدينار من دينار؛ و متى ما طفت الحاسة وفاتت مقدار الجهد والطاقة ورامت إلى البعيد البعيد، كان هذا البعد هو بعينه مسافة انحراف الفضيلة عن نهجها وسبيلها فتخلفها الرذيلة على مكانها. وهنا عمل الإيمان وهدته فهو تحديد الشهوات والرغبات والتخلية بين كل إنسان وحدوده التي بلغت إليها فصائله ومواهبه. وفلسفة الإيمان والسعادة والفضيلة تجدها كلها في قوله تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» (١) حلف وآلى

التي يخرج مركزها عن محيطها

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهماً من الأوهام إذ لم تعد في إشباع العواطف وتغذية الشعور ، وليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل ولكنها في إشباع جسد لا يشبع مادام حياً ، وفي تغذية حاسة لا يزيد بها الغذاء إلا نرها وخرآوة فلن تكفى إلا اذا بطلت ، وفي موضع مجهول بين هذه الحواس لا حد له إلا كالحدين ما يجد المعدم وما يتمنى . فالسعادة على ذلك هي دائماً في الاستعداد للسعادة . . . وكفى بهذا عبثاً .

ولعمري ماذا تكون الحياة بل كيف تكون ؟ أليس يعلم الانسان أنه سائر الى الموت ويعلم كذلك أنه طالب ما لا يموت ؟ فلا جرم كان شعوره بهذا التناقض مؤلماً وكان هذا الألم هو منشأ الهموم التي لا تدعه لنفسه ولا تدع نفسه له ، وكانت حقيقة هذه الهموم التي يجمعها كلها هي شعور الانسان - شعوراً فطرياً - جرى منه مجرى العادة - بالمنازعة بين ما يطلبه هو في الحياة وبين الحقيقة التي تطلبه هو من الحياة (أى الموت) . ومن ثم يضطرب كيانه العقلي ، فيؤثر كل شيء في نفس هذا الانسان تأثيراً كبيراً من حقيقته لأن حقيقة هذا الانسان لم تعد في نفسه بل في مطامعه .. فهو يابئ كالوعاء المثقوب تصب فيه البحر ولا يزال فارغاً ،

والحياةُ عنده دائماً هي طلبُ الحياة ، وكفى بهذا عبثاً . ولا تحسبن أنه لا يبالي بما مضى من عمره بل هو يستشعرُ فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذى مضى هو أكثرُ العمرِ وأطيبه ولذلك لا يبرح شقياً بما يُحاول ، إذ يُحاولُ أن يجمعَ طيباتِ الحياة ويستحوزَ عليها فى القليل من عمره ليستمتعَ بها فيما وراء ذلك ، كأن الحياة التى قواها من الغذاء لا تفارق الإنسان مادام الغذاءُ فى بيته وكأن الله يبيعُ المستقبلَ لمن اجتمع له من الدنيا ما يتوهم أنه يقومُ ثمناً للمستقبل

لا يبرحُ هذا الإنسانُ شقياً وهو أبداً من الهمِّ والغيظ والتوقُّدِ واشتعالِ الأمل والاضطرابِ فى أسبابِ الحياة كالسُّكَّةِ المحنَّةِ ، ^(١) يحسبُ ذلك من نفسه قوةً وفضلاً وسعةً فى الحيلة ولا يدركُ أن هذه النارَ المشبوبةَ فى صدره تقطعُ منه أكثرَ مما تقطعُ به ، وأنها كما تعطيه قوةَ المضيِّ فى هِناتِ الحياة وهَيِّناتِها تُعطي الأقدارَ الصَّائبةَ مثل هذه القوةَ عليه فلا تكاد تصدِّمُه من أى أقطاره ^(٢) حتى يتثلمَ ويتفَلَّلَ .

وهل تحسبُ مثل هذا يكونُ عِدَادُهُ فى أهل السعادة وهو من الحرص على الحياة يكاد يشتمُّ ترابَ قبره فى كلِّ حادثةٍ تلمُّ به؛

(١) نصل يحى فى السار فيكون ذلك أشد لمضائه

(٢) أى من أى جهاته فى الحياة كالصحة والغنى والامن ونحوها

ولا يزال يُصَلَّبُ على كل باب من أبواب الأيام حين يفتحها
الصباحُ وحين يُغلقها الليلُ ، ويُرمَى بالنَّبيلِ المسموم من
فُضُوح الدنيا وشهواتِ النفسِ الدنيئة ، ويُقتل ضميرُه كل يوم
قُتْلَةَ الكَذِبِ والغَدْرِ والإِنِّم لان ذلك من وسائل الحياة التي
تَبْسُطُ عليه الدنيا ؟

وما ظنُّك بسعادة أولها حبُّ النفس وآخرها بغضُ الناس ؛
ومن مقدّماتها منازعة الفردِ للمجموع ومن نتائجها منازعة المجموع
لل فرد ، ومن مبدئها درسُ الشرِّ علماً ومن غايتها منازلة الخُبثِ
عملاً ؛ ولها اسم السعادة وفيها معنى الشقاء ؛ ومن شروطها على صاحبها
أنها لا تُمتنعُ إلا بما يَمَكُّه ولا تَبْرُجُ له إلا فيما لا يَنالُه ولا تُظهره
للناس أبداً إلا ليرَوا فيه رذيلةً من الرذائل ؛ ثم لا تكون مع ذلك
في موضعها إلا كالْفقر في موضعه : هذا يوازن بين نعم السماء
التي تنزل على الضمير وبين هموم الأرض ، وتلك توازن بين هموم
السماء التي تنزل على الضمير وبين نعم الأرض ؛ وآخر أمرها أن لا
يعرفها صاحبها إلا على الضدِّ مما يعرفها الناس ، فهم يسمعون لها
الأصواتَ العالية من الأمر والنهي والجلال وما إليها وهو يعلم أن
هذه الأصوات لم تخرج منها إلا لأنها كبيرة فارغة

قال (الشيخ علي) : وبذلك يابني خسر الناس لذة الحياة فلا أدري
أهم بَشَرٌ أم آلهة لأنني أرى كل حي كأنما يريد أن يَرِمَ صَدْعاً

في السكون وأن يصلح من هذه الدنيا ونظامها ما لم يصلح له .
ولماذا ؟ لأن الدينار الواحد نواة ذهبية ولكن هذه النواة
لا تُخرج لكل انسان نخلة من الذهب ... ولماذا أيضاً ؟ ولأن
أكل هذه النخلة حين تؤتي أكلها لا يكون الا مرة .
ولكن ألبس في الأرض غير المال ما يمكن أن يستلذ
وأن يسمى نعمة ؛ وأين هي تلك السوق التي تعرض فيها النعم
الهيثة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار ؛
يبيعون المراض من أولئك الأغنياء عافية والضعيف قوة والحزين
مسرة والخائف أمناً والفرح عاطفة شباباً
والمهزول جسماً رويماً والميت رجعة أخرى

ألا فليعلم الانسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه
وما لا بد منه لنظام الحياة فسيأتي إن خيراً وإن شراً ، فكلنا سمي
الصحاب التي تعرض له في طريق الحياة عقبات لا ننال نبصر
ما وراءها ولا نعرف في أي موضع تقرب من نظام الحاضر أو نظام
المستقبل وهي لو تعلمون وسائل لما بعدها فما تراد لنفسها أكثر مما
تراد لغيرها ، وهي بأن تكون مقيدة بهذا الأخرى من أن تكون مقيدة
بذاك . وُرب صخرة حالت في طريقك لذئفيناك الى هاوية
من ورائها أو لننتفي بها عدواً يدلف اليك من ورائك .

والأعرج الذى يتأبطُ سِنَادَهُ (١) ويتخذ منه رجلاً تبدأ
 من الكتف لا يكاد يعرج بضع سنين حتى يستفيض صدره
 ويكتنز عضله ويتفتل ويصبح لحماً بادناً كأنما جمع في
 زنده حجم يده الى حجم رجله التى رعى فيها وكان مرهفاً دقيقاً
 متهدم الصدر بارز الأضلاع خاوى العروق ممسوحاً فى جلته
 ثم أنت لا تراه الا ساخناً منبراً يكاد يتحطم غيظاً وهو يلعن
 سِنَادَهُ وما حمل.... واليوم الذى حمله فيه والسبب الذى حمله به
 ويرى كأن العرج هو الذى قطعه عن شأو المعالي وكان سباقاً....
 ويظن عند نفسه أن هذا العرج قد جعله فى مشيته المشل
 المضحك على مسرح الحياة.

ولا كل هذا يارجل ؛ فهل نسيت ويحك أن السعال كان
 ينفضك نفضة الموت وان البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفاً
 يأوى اليه وأنت الأمراض لم تبرح ترمىك آونة بعد أخرى
 كأنها تليسن عظامك العاسية للضجعة الأخيرة وأنت كنت
 لا محالة هالكا تنفث رثتيك من شفتيك ، وتبصق روحك
 تحت رجلتك ؛ وأنه لو لا الداء الذى يسمى العرج لهلكت
 بالداء الذى يسمى السلل ؟ (٢)

(١) وضعناها لهذه الجملة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله

لأنها تسانده (٢) انتهى الطب اليوم الى معالجة الشلل باحداث المايريا

هذه واحدة يا بني وما من واحدةٍ إلا هي أختها، وحكمة الله لا تختلف بل هي هي في كل شيء وان كنا لانعلم وما خلق شيء عبثاً فتعالى الله الملك الحق، ولقد أعرف ان ما لم يقض لي فهو مقضى لغيري وأنه لا بد أن أذهب في هذه الحياة بقبس من مصائبها لأنه جزء من نظامها يتوقف على وجودي ويتوقف وجودي عليه، وهل أنا بدن يملأ الأرض ورأس طبق السماء فيكون الفلك عمّامتي، والقضاء غمامتي، وكل خير لها متي؟ إن أنا يا بني من هذا الناس في أقدار الحياة المكتوبة إلا كالجندي في العسكر نصيبته الحرب آلة حية تحركها الألفاظ والاشارات من حيث تأتي؛ فهو يندفع الى الموت ويشوي من لجه على النار متى أرادت خطة الحرب أن تنبعث وتتحرك، وإنما هو بجسمه وروحه وعقله نقطة صغيرة في خط صغير من خطط كثيرة مثله رسمت بها فكرة أمير الجيش على صفحة الميدان؛ فليس للجندي أن يسأل عند الحركة لماذا....؟ إذ هو لا يجد عندئذ من يقول له لأن....! ولكن متى ازفت الآزفة وحقت النهاية بالنصر أو الهزيمة رأى العمل الذي وراءه كأنما انقلب أحرفاً وكلمات يستوضح منها فكرة القائد كما رسمها.

قال «الشيخ علي»: ومن الأسئلة في هذه الحياة ما يولد حين

يموت جوابه كما رأيت (١) فهو حق من السائل ومضيعة
لأنه لا جواب عليه، وربما اعتداه لاحق مفضلة من
المعضلات وكد ذهنه فيه وقصر همه عليه وجعل يلتقى به الناس
ويفتح له الأحاديث، وذلك سخف لا يوجد به الجواب
الصحيح ولكن يضيع فيه السائل إذ يستنفد من وسعه وعمله
وحيلته ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة. وهذا أعزك الله
سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتبرهم بأقذارها لأن أكثر
أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال فما أقل من ينتهر من
يومه قبل أن يذهب يومه وما أكثر من يريد غداً قبل غد...
ولكأنى بهذا الإنسان يود لو أسرع الفلك في دورته
وجعل يرتجى به المرامي البعيدة لينهب ما في الغيب نهباً ولينال
الممكن كله وشيئاً من المستحيل أيضاً... فيحيا بعد ذلك حياة
طيبة عذراء لاتلد لياليتها من مواليد الغيب قليلاً ولا كثيراً...
دونك آمال الناس فانظر هل تجد في هؤلاء الحمقى من
يصب آماله إلا في قالب يسع ضعفها على الأقل وهو
يحسب أنه بتوسيعه لها يخفى جانب الاستحالة فيها ولا يدري أنه
يخفى جانب الممكن المعقول أيضاً. يصبها في قالب التمني
وما موضع التمني في عالم الحس وفي هذه الحياة الأرضية التي لا

(١) أى في مثل الجندى وسؤاله لماذا؟ عند ما يؤمر بالحركة الحربية

تزال تضربُ جِيلاً بجِيل . وتدفنُ قَبِيلاً بِأَيْدِي قَبِيل ، ويُهْمِلُهَا
الإنسانُ في الكثير وهي لا تُهْمَلُ في القليل . وهل التمني أن تكونَ
حوادثُ الحياة ما أريد أنا وما تريد أنت وما يريد فلانُ ، إلا كما
يتمنى كلُّ إنسانٍ من هؤلاء أن يكونَ غيرَ نفسه وكما يتمنى الطفلُ
حين يُجيبُ معلمَهُ خطأً ويعلم أنه أخطأ — أن يكونَ الجوابُ
حقيقةً كما أخطأ . . . ؟

وقد يقال إنه ليس في العلماء أحمقُ ممن يكيدُ ذهنَهُ في
ابتكارِ جوابٍ غريبٍ لمسئلة لا تقع لانسان ولا يحتاج أحدٌ
الى جوابها ؛ فكذلك لم أر في الجهلاء أحمقَ ممن يسأل الحياةَ
سؤالاً لا جوابَ عاياه ولا يفهم الجوابَ عليه . كلُّ ذلك حمقٌ وكلُّ
ذلك سخفٌ وكلُّ ذلك عبثٌ وباطلٌ ، ولكن يا أسفأ على الناس ؛
كلُّ ذلك أيضاً من مذاهب الحياة وكلُّ ذلك من الواقع .

فالناس من بين طامع جرىء إن نفعتَه الجراءةُ ذهبَ بمنفعتِها
الطمعُ ، وقانع ساكنٍ إن أفادته القناعةُ ذهبَ بفائدتها السكونُ
ومُستحيِلٌ على الغيب يستجمعُ له والواقعُ قد نفذَ فيه ، ومُتبرِّمٌ
بماضره يبني على السماء والأرضُ تهدمُ منه ؛ وقليلٌ من الناسِ
المؤمنُ الوثيقُ الذي يشعرُ بقوة الله في كل ضيق ؛ فان لم ينصره
الله على الحياة لا يخذله فيها ، وتراه لا يشك فيما يعرف ولا يريد
أن يعرف ما يشك فيه ، وهو يعلم أنه ليس شيء من المصائب والنعم

يمكن أن ينزل في غير موضعه المهيأ له إذ ليس في هندسة الله مكانٌ مختلٍ
(١) ، وأن النعمة الصحيحة ليست في لذات الانسان الحي
ولكن في حياة هذا الانسان إذ الحياة الصحيحة هي التي توحد
اللذة ، وأن القوة التي تسمو بالحياة حتى تُسخر لها الطبيعة تسخيراً
انما هي قوة العقل فان وهن العقل صارت الحياة طبيعية حيوانية
لأنه فيها مما خُصَّ به الانسان دون الحيوان من روح الله ،
بل تكون اللذة كلُّ اللذة هي فقدان الألم أو اطفاءه إن تسعَّر (٢)

(١) لو أن الله تعالى مد في نظر الانسان فاخترق الكون كله وأصبح
إن يرم بعينه يبصر كل ما وسعته الارض ، ثم بسط من سمعه مثل ذلك
فعادت الاذن الانسانية وعاء لكل صوت يتكلم به متكلم أو يصيح به
صائح في كل ما وسعت الارض - لو كان ذلك لما عاش الانسان لحظة واحدة
ولو عاش لكان من كثرة ما يرى ويسمع لا يرى ولا يسمع .

فكذلك هو في الشهوات يحدها الله بحدود من رحمتها فيما يوسع أو يضيق وما
يعطى وما يمنع ، ويأبى الانسان لحماقته وجهله إلا ان يعدها ويبسط منها أنواعا
وفنوناً وما يدري انه بذلك يزحزح الحجر الذي هو اساس بنيانه شيئاً فشيئاً
فيهلك نفسه ويفقد سعادته ويضيع انسانيته ويخر أعلاه على أسفله . . .

(٢) من سنن الطبيعة أنها تجعل اللذة شرطاً في كل عمل لا يقوم
الكيان إلا به . فاذا لم يحدث هذا العمل ضربت الآلام على الجسم .
فالطعام ضرورة من ضرورات الحياة اذا فقد كانت آلام الجوع واذا
تيسر كانت لذة الاكل ، فكأن هذه اللذة ليست في حقيقتها شيئاً غير
الطفاء الألم وقس على ذلك

وتالله لو أفرغت طيِّبات الدنيا في جوف هذا الحيوان
الإنساني الذي وصفت لك ممن يسمونهم الأغنياء والمستمتعين
وأهل الحظ والهناء مازادت في لذته على ما يكون من إفراغ
حقل من البرسيم في جوف حمار

قال « الشيخ علي » : وكما يفقد أكثر الناس السعادة في
كثرة الاستعداد لها والإغراق في وسائلها يجدوها بعضهم في
إهمالها حين لا يبحث عنها ويذهب باحثاً عن حقيقة الحياة .

ويأعجب الناس كأنهم ما سكوا الأعمار ، وضمنوا لأنفسهم دولتي
الليل والنهار ؛ فقلما يفكر أحدٌهم إلا في زاد الدهر البعيد والحياة
المتطاولة والأمد الواسع وهو لا يرتاب في أنه لا يعيش غير
عمر واحدٍ محدود ، ولكنه لا يدري أنه يحمل على نفسه من
تلك الأطماع شقاء بضعة أعمار طويلة عالية السن ويسوقها
بين يديه ظالعة عرجاء تطلب السعادة في طريق لا آخرة له ،
فهي تسير لأن بين يديها غرضاً ما ينفك ما ثلاً على بُعد منها
ثم تنبث لأن الطريق لا تنتهي ، ثم تقف عاجزة لأن الحياة قد
كَلَّتْ ، ثم تقع وما بها حركة لأنها انتهت إلى الحفرة المجهولة
التي تنشق تحت قدمي كل إنسان في الساعة التي هو رهن بها
ولو كان طريقه في النعم والذات على وادي الجنة بين الشمس والقمر .
كل شيء هو ما شئت أن تتوهم ولكن الحياة هي الحياة .

هي الحقيقة التي تريد أن تُعرَف ، والمدة التي تعملُ على أن تنقضي ،
والمعنى الذي تطير حوله الأقدارُ وتقع لتلُفست الناسَ إليه . هي
الحياةُ التي لا تتسعُ لآكثرَ من قضاء الواجبات ولا تحمِلُ جسدَها
إلا ريشَما تُبليهِ ، واسمُها الحياةُ ومعناها النجاح ، وهي الحياةُ
لا المالُ ، والحياةُ لا الشهواتُ ، والحياةُ لا المطامعُ ، وإنما قيمةُ
الحياةِ فيما تذهب فيه لا فيما يذهبُ بها ، فكلُّ لذةٍ لا تجدُ لروحك
أثراً فيها لذةٌ ميسرةٌ وحقيقٌ بك عندها أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو
من فضيلتك قد مات فيها (١)

ولقد نقلوا في أساطير الأولين عن (ميداس) أنه بلغ من
فرط الغنى أن لا يلمسَ بيده شيئاً الا استحال ذهباً فأرادت آلهةُ
الخرافات أن لا ينخدع الناسُ فيه ولا يسحرَ أعينهم أو يستترهبهم
وان يعلموا أنه انسانٌ وأن فرط الغنى مُدْلِلُهُ به فسخ « أبولون »

(١) السعادة في رأينا : هي كل ما استشعرت النفس أنها زادت به
أو زادت فيه ، وهذا التعريف يجمع كل أنواعها لا يشذ منه شيء فهي على
ذلك تكون في الاخذ وتكون في العطاء ، ألا ترى الاصل الطبيعي في الحب
يجعل سعادة ما يناله المحب من حبيبه كسعادة ما يبذله له حتى إنه ليبذل
روحه في ذلك اذا علم ان نفسه تزيد بها شيئاً ناعداً عن من بهواه ؟

ومن هذا فالتعاسة في كل ما استشعرت النفس انها نقصت به أو نقصت
فيه ، ومن ثم فكل فضيلة هي من السعادة وكل رذيلة هي من ضدها ولو كان الالم
والحرمان في الاولى وكانت اللذة والمنالة في الثانية ، هكذا (قال الشيخ على)

أُذُنِيهِ فَكَانَتْ أَذُنِي حِمَارٍ . وَلَعَلَّ فَرَطَ الْغَنَى يَأْنِي * لَا يَكُونُ
فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبُ إِلَّا مَعَ هَذِهِ الْأَآذَانِ وَمَا أَمْلَحَهَا نَادِرَةً
وَأَبْدَعَهَا إِشَارَةً وَأَحْكَمَهَا مُنْجَحَةً فَانْ كُلِّ مَا فِي الْحِمَارِ لَا بَدَّ مِنْهُ
لِتَكُونِيَنَّهُ حِمَارًا سَوِيًّا إِلَّا أُذُنِيهِ الطَّوِيلَتَيْنِ ^(١) . فَلَوْ جَمَعَهُمَا إِنْسَانٌ
كَمِيدَاسٍ رُزِقَ غَنَى الْحَيَوَانِيَةِ فَهِيَ بَرَهَانَانِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِإِنْسَانٍ
صَحِيحٍ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا حَتَّى وَلَا حِمَارًا مِنَ الْحَمِيرِ .
وَأَيُّ شَيْءٍ هَذَا الْغَنَى الَّذِي يَأْكُلُ وَيَتَمَتَّعُ وَلَا يَرْتَعَى مِنْ
لِذَاتِ الْحَيَاةِ إِلَّا الْخَضِرَاءَ النَّاضِرَةَ ، وَقَدْ سَلَّطَ عَلَى هَلَاكَةِ
مَالِهِ أَوْ سَلَّطَ مَالُهُ عَلَى هَلَاكَتِهِ ^(٢) فَانْ ذَهَبْتَ تَعْتَبِرُهُ إِنْسَانًا
لَمْ تَرْفِهِ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا النِّصْفَ الْأَسْفَلَ

أَهُوَ حَيَوَانٌ ؟ فَأَيْنَ عَمَلُهُ الطَّبِيعِيُّ إِذَنْ ؛ فَأَنِي لَا أَرَى هَذِهِ
الْحَيَوَانَاتِ ^(٣) كُلَّهَا إِلَّا عَامِلَةً لِنِظَامِ الطَّبِيعَةِ كَمَا تَعْمَلُ الطَّبِيعَةُ لَهَا
أَمْ هُوَ إِنْسَانٌ ؟ فَأَيْنَ عَمَلُهُ الْاجْتِمَاعِيُّ الَّذِي يُسْنِي مَنْزِلَتَهُ إِذَا أَصْبَحَ

(١) يَتَنَابَزُ النَّاسُ بِأُذُنِي الْحِمَارِ الطَّوِيلَتَيْنِ وَيَجْعَلُونَ طَوْلَهُمَا مَسْبَبَةً
وَيَقُولُونَ مِثْلًا : فَلَانْ حِمَارٌ بِأَرْبَعَةِ آذَانٍ ؛ وَمَا ذَا الْوَقْصِ الْحِمَارُ طَوْلَ الْآذُنَيْنِ ؟
لَا شَيْءَ إِلَّا اعْتِبَارًا أَدْبِيًّا يَجْعَدُ النَّاسُ فِيهِ هَمَّهُمْ بِأُذُنِيهِ الْقَصِيرَتَيْنِ الْمُرْهَفَتَيْنِ
أَنَّهُ يَشْبَهُ الْجَوَادَ الْكَرِيمَ فِي حِينٍ هُوَ لَا يَشْبَهُ إِلَّا . . . إِلَّا الْبَغْلَ الْعَقِيمَ . . .
(٢) يَرِيدُ أَنَّهُ مُتَلَافٍ أَوْ تَحْيِيحٍ

(٣) لَمْ يَعْرِفِ الْعَرَبُ الْحَيَوَانَاتِ بِالْمَعْنَى الَّتِي نَعْرِفُهَا بِهِ وَلَمْ يَجْمَعُوهُ عَلَى
حَيَوَانَاتٍ وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى قِيَاسِ كَلَامِهِمْ فَهُوَ إِذَنْ مِنْ كَلَامِهِمْ

الناسُ على منازلهم، وأين الحدُّ الإنسانى الذى يصله بمجد الماضى
أو يدلُّ عليه فى عمل الحاضر أو يلحقه بأمل المستقبل ؟
إن الطبيعة يابنى لا تغفل خطأ ولا تنسى مذنباً ولا
تصفح عن إساءة ولكنها تضرب بيدٍ لطف مساً من الهواء
وأخف موقعا من الضوء على حين أن صفتها زلزلة لا يقوم لها بناء
حي ؛ فلو أن مثل هذا الغنى قد أعطى مائدة حمار أو أعصاب
بغل أو قوة فيل أو نحو ذلك لم تمامه بالمال فوجد فى هذا المال
مسد حاجته كيف مسّت . غير أنه أعطى شره الحمار دون
معدته وأعطى فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل
دون ما يحصيل ذلك وما يبعث عليه فكأنما مسخ من باطنه
مسخاً على حين أن طبيعته الإنسانية لا تخلو على هذه الأبواب من هذه
الشهوات ^(١) ولا تصلح بها ولا تطعم فيها من الحياة . وقد حدثوا
عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى أمريكا اتخذت كلباً فوق منها
بموضع محبة شديدة فاستصفتته وتحفّت به وذهبت كل
مذاهبها فى ترفيهه وفتحت عليه من دنياها العريضة فنصت له
السرير ، وفرشت له الحرير ، وأبدلت له سماع الموسيقى من سماع الهرير ؛
ومنعته العظم يعالجه ويقرضه ، وحرمته على الجوع يقصده
وينهضه ؛ وما زالت به ترأثه وتحنو عليه فإذا هو يذوى ثم

(١) أى لا تقوم عليها ولا تصح بها

يضعف ثم يمرض ثم هلك؛ وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة ثم تقتله
وتصب عليه العذاب صباً من ألوان ذلك النعيم؛ فكيف بصاحبنا الغنى
حين تبالغ الطبيعة في ترفيه على ما يشاء له الهوى من سنة الحمار
والبغل والفيل وجماعتها كما بالغت صاحبة الكلب في ترفيه كلبها على
سنة الانسان؟

قال « الشيخ علي » : الحياة يابى مدة، والمدة ضائعة لولا
العمل، والعمل على مقدار المنفعة، والمنفعة بآثارها، وهذه الآثار
هى تاريخ الحياة. فالاحق الشره الذى يعيش مقبوراً فى بطنه، والغنى
اللئيم الذى يعيش مقبوراً فى خزائنه، والفاسق العاهر الذى يعيش
مقبوراً فى رذائله ومخازيه، والدنى السافلة الذى يعيش مقبوراً
فى جرائمه وآثامه؛ كل أولئك لا تاريخ لحياتهم ولا حياة لتاريخهم
فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب؛
يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس، وإنما يعان المخذول
منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغرور وما يطوع له؛ وما كان الغرور
وصاحبه فى عاقبة الحياة ورجع الامر إلا كرجلين من الحقيقى ضمهما
طريق فاصطحبهما أفضى بهما السير الى جبل قطع عليهما؛ فقال أحدهما
لصاحبه انى أراك شديد الأسر قوى البضعة وما أرى إلا
أن تحمل هذا الجبل وتلقيه بعيداً من هنا فلا مذهب لنا إلا
من ورائه... قال له صاحبه أما انى كما وصفت وان بى لقدرة على حمله

فما عليك أنت إلا أن تضعه على ظهري (١) فلا الحامل
أطاق فحسب ولا المسكين استطاع فأعان ، وإنما هما كحصارى
العبادى الذى قيل له أى حمارىك شر فقال هذا ثم هذا . . .

وهكذا يُعين الغرور على طلب الدنيا ويُزَيِّنُ للمغرور
فلا تراه أبداً إلا على زينةٍ من أمره (٢) حتى تذهب الحياةُ في
باطلٍ كالحق أو حقٍ كالباطل ، فإذا حسم الموتُ عنه مادةَ
غروره وجاءه باليقين الذى لا مِرَّةَ فيه قال ويحيى لو رجعتُ
لعملى أعملُ صالحاً فيما تركتُ ؛ وآيه لو عرفتُ حقيقةَ الحياة قبل
الموت أو عرفتُ حقيقةَ الموت وأنا بعدُ فى الحياة !

أيها المغرور : ما أراك إلا دائباً فى طلب الحياة حتى تفقدَها
من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ما هى ، فأياك وإياها ، لا تأخذُ
معنى الحياة من نفسك إن لنفسك أغراضاً حيَّةً تريد أن تكونَ
هى الحياة ؛ ولا من الناس إن فيهم أغراضٌ نفسيةٌ ؛ ولا من
مدة عمرِكَ فإنها لا تبلغُ طرفةً واحدةً من عين التاريخ .
ولكن أعدْ نظراً على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة

(١) سألنا بعضهم عن هذا المثل و ماأخذه يظنه منقولاً ؟ فهو من
كلام « الشيخ على » وقد وضعنا أمثالا عدة فى كتابنا « المعركة »
(٢) أى فرحا بما لديه

آلاف سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها^(١) ثم من عمر الأرض كله ثم من تاريخ الموت المجهول أوّلُهُ وآخرُهُ ؛ خذ معنى الحياة من هذه الاقواء الصامته التي لا تكذبُ لأنّها تحفظُ الحقيقةَ الانسانية ؛ من هذه القبور التي تملأُ الرَّحْبَ ؛ من هذه الهاوية التي ينصبُّ فيها فراخُ الحياة دائماً دائماً لأن تحتها مجرى التيار المتدفّع من النهاية الأرضية المعروفة الى الأبد الذي لا تُعرفُ له نهاية . خذها من هذه الكلمة التي وضعتها السماء للأرض ، هذه الكلمة الأزلية التي تحقّق الإخاء والمساواة في الناس جميعاً بلا شدوذ ولا تأويل ، الكلمة التي يكون القبرُ زاويةً في معناها ، كلمة الله عز وجل في قوله تعالى « كلُّ من عليها فإن ويبقى وجهه ربك » أيها المغرور . خذ الحياة حقيقة لا وهمًا وعملاً لأعلماناً واسمع للحياة ان كنت تعرف لغتها أو اسمع للموت الذي يعرف كل انسان لغته ؛ فإن كل ذلك يُعَلِّمُك أن الرجل الحرّ لا يعرف على أي حالة يعيش إلا اذا قرر لنفسه على أي حالة يموت ؛ وأن الحياة ليست في الوجه الذي تُوجد عليه من الغنى الى الفقر ولكن في الوجه الذي تنتهي عليه من العمل الصالح الى العمل السيئ ؛

(١) الغرض من تاريخ انعمران وهو فيما كشفوا لا يتجاوز هذا الدهر، اما مدة ما قبل التاريخ فيقدرونها في الحياة الانسانية بنحو مئتي الف سنة أكل إنسانها التاريخ فيما أكل ...

ولست في ترفيه الحواس الغليظة ولكن في النفس والضمير :
الضمير التقى ، لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير ؛ والنفس
الطاهرة ، لثواب الآخرة ونصرة الخلود ورحمة الله
قال « الشيخ علي » فلا تسأل يا بني ماهي الحياة ولكن سأل
هؤلاء الأحياء أيكم الحي

الفصل السابع

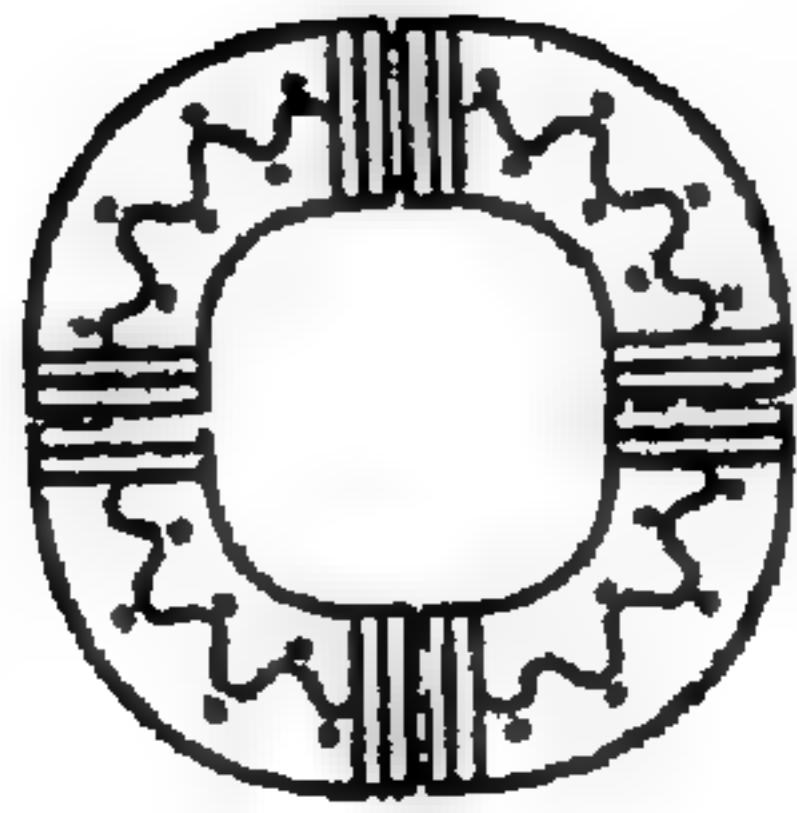
سحق اللؤلؤة

قال « الشيخ علي » : وإني مُحمدٌ ثك الآن حديثاً يشفي
نفسك من الخبَر ويفتحُ عليك أبواباً من العبرة والموعظة ،
ويُخَيِّرُكَ طرفاً من الدنيا بأقداره وعِلمه ومذاهبِ حكمة
الله فيه كأنما أنت شاهدٌ أمره ؛ فلتعلمن أن في المال مشغلة عما
سوى المال ، وإن الحرصَ عليه حقُّ الحرصِ لا يُدْخِلُ أمراً
من أمور الحياة فيعرضَ بين ورده وصدره الأساء أحدهما
أو كلاهما ^(١) وفسد الأمرُ فعسى أن يتصل بما هو أجلُّ منه
خطراً وأسنَى منزلةً فلا يكون ذلك الحرصُ إلا مضییعة ولا
تكون الرغبةُ فيما يُستَخَافُ إلا سبباً في ذهاب ما لا يُستخلف
ولتعلمن أن المالَ شيءٌ غيرُ الحياة وأن الحياةَ شيءٌ غيرُ المال
وإن ما يَخْتَدِعُ الإنسانَ فيتآوَنُ له من سرابِ هذه السعادة
إنما يكون أكثرَ ما هو كائنٌ من بريقِ المالِ مُحسَّبُهُ شيئاً
حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ؛ وعسى أن لا يكونَ فيما أقبلَ من
نعم الدنيا إلا ما يُدبرُ بصاحبها ، وأن لا تُصيبَ فيما زوى عنك

(١) أي الورد والصدر وهما كناية عن مبدأ الامر وغايته

من حظها الا ما يقبل بحظ نفسك على نفسك
ثم لتعلمن أنه إن كانت للقدّر فترة عن رجل من الناس
فقيراً أو غنياً أو بين ذلك فما هي غفلة ولا معجزة ولعل الرجل
إنما يمد له في الغنى مدّاً طويلاً حتى إذا جاء يومه انفجر عليه
بما لا يطيق له سداً ولا يستطيع له رداً . وأنه رب كلمة
تعارف الناس معناها وأجرّوها على مذهبها في كلامهم فإذا هي
نزّلت بعض منازلها من الحياة كان لها معنى آخر لا تفسره الا
الحياة نفسها ثم لا تفسره الا على ضدّ ما خذّم ومقصودهم ؛
فيقول الناس « فلان الأُمير » ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث
الحياة وأقدارها فلان النذل . . ويقولون « هذا الغني » ومذهب
الحياة أنه الشقي بغناه ؛ وفلان أعزه الله وإنما هي أخزاه الله بعزه ؛
ويحسدون فلانا إذ يرون أن الله عز وجل قد مكّن له وآتاه من
بسطة المال والجاه فهو يستعد للحياة بأفضل عدتها ثم تقع
الواقعة ويتغشّى فلاناً هذا ما شاء الله من الحوادث والأقدار
فإذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عدته
ولتعلمن كذلك أن الغاية من هذه الحياة كمال الحى في
جسمه ونفسه فان تم بالفقر فذلك غناه وان تقص بالغنى فذلك
فقره ، ولا شأن لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء وذات
نفسه . وهذا معنى بسطته لك آتياً ولكنى متلقّيك بمثاله من

رجل وامرأة ولا عليك أن لا تسمع حديثاً عن الباشا و«هانمه»
 أو أبي زيد وأم الخير، ولا على أن أجيبك بالمثلين على باخرة^(١)
 أجعل ذلك من صرّف الكلام وتزيينه^(٢) وما بلادنا من هذه
 المخازي بمنشزح ولكني أردت إمتاعك من لذة الحديث على
 مقدار إمتاعك من حكمة الحادثة؛ والكلام عن رذائل الحياة
 في بلادنا هذه كلام غث يتجافى عن الرقة في أكثر مناحيه،
 وإذا وجهته إلى أكثر قومك فانما أنت تشتتمهم به أو هم يتاقونهم
 من هذه الجهة، ولا مناص أن تقع بك ظنة السباب وإن
 كنت واعظاً ويقال عاف وإن كنت برّاً وغاش وإن كنت
 من الناصحين.



(١) من خارج البلاد لأن الرواية عن (فكتور ولويز)

(٢) صرف الكلام أن يزداد فيه ويحسن

(الرجل البخيل)

أما فلان هذا فهرمٌ بخيلٌ لو سبخ حجراً لتحطمت من
غيظها الأحجار ، ولو كان على بخله حديداً لما لآن الحديد في النار ؛
ولو صورته الله طيناً أجوف لما طن في يدٍ أحدٍ على نقر ، ولو
خافه مرةً أخرى من ترابٍ لما جمع هذا « التراب » إلا من
ثياب أهل الفقر

وهو نبي أمه البخل . أما معجزته فهي قدرته على أن
يستنشط غير المألوف من المألوف ، ويستغل الصفر
فيخرج منه ألفاً إلى ألف ؛ وإنه على ذلك لا ينفك فمراة المؤمنون
إلا قالوا اللهم غفراً ؛ ولا رآه الجاحدون إلا زادوا عتوا وكفرا .
وكم تنى وهو يتهاك حرصاً أن يكون كالبائس في أنه
لا يموت إلا متى هرم الدهر ، ولا يذهب من الأرض إلا حين
لا يبقى في تاريخ الأرض عام ولا شهر ؛ وإذا خوذته الموت
والحساب قال وبلك دع عنك ، وإذا علم انه سيُعطي كتاب
أعماله في الآخرة قال ياليت صحيفة من « ورق البناك » . . ؟

على أن درهمه في أيدي الناس هم ، واسمه في أفواههم هم ،
وكم لأمواله من قنيل فن (استكلف) ، فقد ذهب به التاف ؛
ومن افترض ، فقد انقض ؛ وكم من بائس قشعت غماته ،
م - ١١ المساكين

ثم غالت هَامَتَه ؛ (١) وقضت دَيْنَه ، ثم أبكت عَيْنَه ،
 فوالذى نفسى بيده إن دراهم هذا الخيـث لشعد من اللصوص ،
 وإنها للثيمة على العموم أما هو فلثيم على الخصوص ؛ يرسل
 الدرهم فى يد المحتاج فيذهب فيه دينارُه ، ويقدح فكره
 الملتهب فلا تقع إلا فى بيوت الفقراء ناره ؛ ولو كان مخلوقاً يوم
 عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن
 يحملنها لحمل وحده الأمانة ، وإذا كان مبلغ القول فى وصف
 كل غنى كريم أنه « صراف » فى خزانة الله فجهد القول فى
 هذا اللثيم أنه لص الخزانة (٢)

وهو على غناه كأنه فى الناس بؤس المفس فى القمار ،
 وكأنه لحقارته ذيل الحمار ؛ إن طلع عليهم فطالغ زحل ، وإن
 غاب عنهم فوبأه راحل ؛ ومتى ذكروه ، فكأنهم نكروه ،
 وإذا قضى عليهم أن يسّموه ، فكأنما شتموه ؛ وإذا وصفوه

(١) أى قتله والمعنى أنها تنفس كرب الحجاج حيناً ثم تكون له كرباً
 لأنفس فيه لأنها دراهم تأكل دنائير ودنائير تأكل أرضاً

(٢) الغنى الكريم الذى يعرف حق الغنى عليه إنما يعرف أنه مؤتمن
 على مال الله لانفاقه فى وجوه الخير على نفسه وعلى الناس ولكن البخيل
 يدخر ولا ينفق . وقد ظن بعضهم أن (الصراف) عامية عربيتها (الصيرف)
 ولكنهما صحيحتان فصيحتان

قالوا وَاجْعُ الْأَظْفَارَ ، وَذَنْبٌ بِلا استغفار ، واللهم قِنَاعِذابِ النَّارِ
أما وجهه فلو أنزلَ اللهُ مِرْآةً من السماء فنظرَ فيها
أَصْدَرْتُ من قُبُوحِ خياله ، كَصَدِّ ذلك المخزون من ماله ؛
وأما رَوْعُهُ فلو خَرَجَ على الحسانِ لابتلاهِنَّ بما يَفْجَأُ
الطِّبَاءَ من رُؤيةِ الفَهْدِ ، وامتلكهنَّ بما يَعْتَرِي الرُّضْعَ إذا
كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبانَ في المَهْدِ ؛ وأما أَجْهًا منه
فلو نظر اليه البدرُ لَغَرَبَ ، ولو اطلَّعَ عليه الفجرُ لَهَرَبَ ؛ وأما
رُوحه الخفيفة ... فلو بُعِثَتْ في خَلْقٍ آخِرٍ لما كانت إلا
بَقَّةً صَيْفَ ، في رَقَبَةٍ ضَيْفَ ؛ أو بعوضةٌ تَلْسَعُ العاشقَ
المهجورَ فتوقظه وقد ظفرَ بالطَّيْفَ ؛ وحياته كالبلاء المحتوم ،
وغناه كالكنز المحتوم ، وأما هوفُ القبرِ المكتوم .

وأَحْسَبُ لورسمه أمهرُ المصورين فأبدعَ في خُطْبِهِ (١)
والوانه ، وأنطقه من عَيْنِهِ وعُنْوَانِهِ ، (٢) وجعله آيةً فَنَّهُ
وافْتِنَانِهِ ؛ وتركَ من يراه لا يحسبُ إلا أن المصورَ قد سَرَقَهُ ،
أو أن الله تعالى مَسَخَهُ على وَرَقَةٍ ؛ لَبِثِي مع ذلك في رسمه
مَغْمَزٌ لا تُصْلِحُهُ إلا يدُ الشيطانِ الرجيم ، ولا تَلَوُّهُ إلا

(١) أي الخطوط (٢) أي جعل خفيات نفسه ودخائل طباعه ظاهرة في

نظره ومعارف وجهه من الصورة ، وعنوان الشيء ما استدلت به مما يظهر

على حقيقة هذا الشيء

شُعَاعَةٌ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ ؛ وَمِنْ لَهْـوٍ بِسْرَارَيْنِ مِنْ
الصَّاعِقَةِ يُنْزَلُهُمَا فِي الرَّسْمِ لِنَظَرِ بَيْهَمَا عَيْنَاهُ ، وَمِنْ لَهُ بِرَقَبَتِي
الْبَخْلِ وَالرَّذِيلَةِ يُطْبِقُ عَلَيْهِمَا يُسْرَاهُ وَيُغْنَاهُ ، وَمِنْ لَهُ بِلُونَيْنِ مِنْ
غَضَبِ اللَّهِ وَنَفَمَتِهِ يُظْهِرُ بِهِمَا فِي الصُّورَةِ مَعْنَى فَقْرِهِ وَغِنَاهُ ؟
وَلَسْتُ أَطِيلُ فِي الْقَوْلِ فَمَا أَنَا بِبَالِغٍ مِنَ الْقَوْلِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ ،
وَهَيْهَاتَ أَنْ يَصِفَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ لُغَةَ الْمَلَائِكَةِ فَيَنْقُلُ
إِلَى لُغَةِ النَّاسِ كِتَابَ سَيِّئَاتِهِ

قال « الشيخ علي » : ذلکم هو (الکوونت فیکتور) . رجل
أَمَّا قُ أُمُوالِ النَّاسِ وَزَادَهُ فِي مَالِهِ ، وَجَمَعَ بَيْنَ سَوْءِ خَلْقِ الْبَنِيِّ وَسُوءِ
حَمْلِ الْجَاهِ ، وَعَرَفَ النِّعْمَةَ وَنَسِيَ الْمُنْعِمَ بِهَا فَمَا تَمَّا فَوَضَّحَ اللَّهُ عَلَيْهِ
مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَكَّنَ لَهُ فِي أَبْوَابِهَا وَأَفْنَى جَاهَهُ وَنِعْمَتَهُ عَلَى
مَا ابْتَلَاهُ بِهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ مِنَ الْبُشْقِ لِيَجْعَلَهُ وَاحِدًا مِنْ أَوْلِيَاءِ
الَّذِينَ يُخْرِجُ لِنَاسٍ مِنْ تَوَارِيخِهِمْ فَصَاصًا فِي الْأَخْلَاقِ مُكَرَّمَةً
السَّبَبِ فِي نَسَقِ الْبَالَيْنِ الْإِلَهِيِّ الْمُعْجِزِ الَّذِي يَأْتِي بِالْحَيَاةِ
إِلَى مَوْضِعِهَا حَبَّةً وَمِئْتَةً ، وَبِزُلْ السَّكَاةِ فِي مَسْنَعِهَا
مِنَ الْمَوْعِظَةِ وَلَوْ أَنَّ فِيهَا ذَهَابَ نَفْسٍ وَإِدْبَارَ نِعْمَةٍ ، وَيُدْرَأُ الْمَسْأَلُ
وَالْفَالُكَ بِأَسْلُوبٍ وَاحِدٍ .

وَقَدْ أُسْنَدَ هَذَا الرَّجُلُ فِي حُدُودِ السَّبْعِينَ وَكَادَتْ

تَحْمِلُهُ السَّنَنُ وَلَا يَزَالُ مَنَابِدًا (١) لَمْ يَسْتَرْ سَقْفُ بَيْتِهِ امْرَأَةً
وَلَا فَتَكَتِ الشَّمْسُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ طِفْلِ بِتَبَسُّمٍ . وَقَدْ نَشَأَ عَلَى
أَنْ حُبَّ الْمَالِ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِبَيْضِ النِّسَاءِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا يُجْمَعُ
لَهُنَّ وَأَكْثَرُ مَا يَنْفَقُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَا يَرَى فِي الْمَرَأَةِ إِلَّا أَنَّهَا « بَوْرَةٌ
مَالِيَّةٌ » وَسُوقٌ فِي الْبَيْتِ » وَ « أَزْمَةٌ يَخَالُ الرَّجُلُ لِلْخُلَاصِ
مِنْهَا بِالْوُقُوعِ فِيهَا » . وَبِقَوْلِ إِنْهَا مِنْذُ أَكَلَتْ مِنَ الشَّجَرَةِ
الْمَلْعُونَةِ فِي السَّمَاءِ جَعَلَتْ الرَّجُلَ شَجَرَتَهَا الْمَلْعُونَةَ فِي الْأَرْضِ ، فَهُوَ
مَاعَاشٌ يَنْبُتُ وَيَنْمُو وَهِيَ مَاعَاشَتٌ تَحْصُدُ وَتَأْكُلُ وَقَالَ
مَرَّةً « إِنْ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ عَقْلًا حَتَّى يَتَزَوَّجَ فَإِذَا هُوَ فَعَلَ فَقَدْ صَارَ
مِنْ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ سِلْسَلَةً بَطُونٌ فَقِيلَ لَهُ وَلِمَ لَا يَكُونُ
بَوْمُئِذٍ مِنْ زَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ سِلْسَلَةً عَقُولٌ ؟ قَالَ إِلَى أَنْ يَصْبِحَ أَطْفَالُهُ
الْقَدَمَاءُ رِجَالًا يَكُونُ هُوَ قَدْ صَارَ طِفْلَهُمْ الْقَدِيمُ

وَجَاءَهُ بَوْنًا سَمْسَارٌ بِسَاوِمِهِ فِي أَرْضٍ لَهُ وَجَعَلَ يَرَاوِغُهُ
وَيَتَرَقَّى إِلَى خَدِيعَتِهِ بِمَا أُتِيَ السَّمْسَارَةُ مِنْ خَبَثٍ وَدَهَاءٍ وَتَقَبَّلَ
بِهِ مَرَّةً وَيُدَبِّرُ بِهِ مَرَّةً ، وَالْكُونَتِ فِي كُلِّ ذَاكَ يَعْبَثُ بِهِ
وَيَنْمَرُ لَهُ (٢) نَحْمُ صَرْفَهُ عَلَى طَمَعِ كَالْيَاسِ ، فَهَذَا ذَهَبٌ مُدْبِرٌ قَالَ

(١) يُقَالُ نَابِدٌ إِذَا طَالَتْ عَرْسُهُ وَقِيلَ أَرَسَ فِي النِّسَاءِ ، وَيُقَالُ حَطَمَتِ

السَّيِّدَةُ إِذَا أَبْلَاهُ الْهَرَمُ

(١) يَرْكَبُ فِي قَنَاطِرٍ أَلْمَاحًا حَتَّى يَسْلَمَ أَقْصَى الْأَطْأِ

ويحي لو أن هذا السمسار كان امرأة جميلة إذن لأدارني في يده كما يرقصُ الدينارُ على الظفر؛ فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل في هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب

ولما بلغ الخمسين — بعافية من الله — قال أحسبني لو كنت متزوجاً يوماً فان امرأتى في هذه الساعة تلتقم ثدي أمها فساءً أنتظر حتى تصلح لي . فأجابه بعضهم وحتى تصلح لها أيضاً .. وتواصفوا عنده الجمال مرة وأفاضوا في حديث النساء والنعمة بهن ، وقد تعالَم الناسُ ذلك البغض منه — فلما أضجروه قال حسبكم يا قوم ما أراكم إلا تخلقون إفسكاً ؛ إن هذه المرأة في حقيقتها غير تلك المرأة في وهم الرجل ؛ فهي هي حتى يبعث عليها وهمه وبصيفتها بألوان نفسه ونسختي به فكانها منه مام الفانوس السحري . إن المرأة خصمٌ عنيدٌ لا يقتل بالغضب ولكن يقتل بالضحك ، وسرُ ما فيها أنها إن لم يكن منها قتلٌ فليس معها حياة (١)

تقولون إن الرجل محتاج إلى المرأة . فقد كان ذلك أيام كانت المرأة كأنها في عملها للرجل رجلٌ آخر فتلك حاجة اليد إلى اليد وحاجة الظهير إلى الظهير ، وكهي منألة طبيعية في

(١) يريد بالتي لم يكن منها قتل المرأة لا تكون جميلة فاتة فاذا هي

لم تكن جميلة لم تطب معها الحياة في رأيه

الجنسين بين قوة تحتاج الى ضعف يُخَفِّفُ من سورتها وبين ضعف يحتاج الى قوة تَشْدُّ منه؛ فلو كان العالم كله رجالاً إذن لطالت أنيابهم كثيراً ولما وجد على الأرض من يمتنع مقصداً للاظافر

أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعي وما هي بهولة من الهول^(١) ولا مسخ من المسوخ ولا أنا آسف على خروج آدم من الجنة بذنبها فاني رجل اقتصادي ولقد كان من هذا الذنب رأسٌ ما كبير؛ فأيّاكم وإيّاي لا تظنوا أنني أكبر أو أمارى ولا تحسبوني جلفاً يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلاً من رأسها النحيف المكمل رأس جاموسه ... وبدلاً من يدها الرخصّة الناعمة ظلف بقرة^(٢) ... حسبكم يا قوم — حسبكم الله — لا أطيق هذا العبث بي ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدّثون وتصفون، بل أرى مخلوقة غريبة الاطوار في هذه المدينة وارى خرقاء ان لم يكن معها الا فلاس فلا أقل من أن يكون معها الندم أو الغيظ أو السخط، وربما كانت بلائاً ما حقاً يُزَفُّ الى الرجل يوم زواجه باحتفال يُخَيَّلُ اليها من الفكر في المال أن الرجل

(١) الهولة كل ما يفزع به الصبيان

(٢) انظر كتابنا (السحاب الاحمر)

هو مال أيضاً وتريد أن تنزوج ولماذا ؟ لأن المحراث لا يلتصع أصله
إلا بعد أن يجدوا له النور

امرأة متأنقة لا تريد إلا أن تطلع الشمس كل يوم على زى
جميل ليكون لزوجها كل يوم هم جميل . هم هي أحسن ما تكون
حين تخرج من بيتها كأن بيتها منخل لا يمسك منها إلا
الحبالة . . .

إننا يقوم لقاء المرأة لا لقاء معجزة من معجزات الأنياء .
فنحن نستطيع أن نقول هذا خطأ فيها وهذا صواب منها ولكنها
على أى أحوالها لا تريد أن نكون معها أبداً إلا على حالة واحدة .
تريد أن نُسبها نفسها لأنها لا ترى أكل من نفسها ، أما الرجل
فهو إذا رأى فيها نقصاً فذلك عندها لأن عينه عين رجل وتكاد
أهدابها تكون من شعر اللحي والشوارب (١) فن هنا
لا يرى الخبيث تلك الحسنات النسائية التي تترقرق من المرآة
في كل شيء صافية جميلة كنور القمر .

ترى هذه المرأة أن كل حسن في أعمالها لا يكون إلا
أحسن شيء لأنها حسنة ؛ ولكنها لا تنقر أبداً أن كل قبيح في
أعمالها ينبغى أن يكون أقبح شيء . ولماذا ؟ لأنها حياء أيضاً . . .

(١) مبالغة في خشونة الرجال لأن اللحي والشوارب من خصائصهم
فكان العين النقية من أسرار الجمال في الجسد هي في الرجل أيضاً حسنة

هذه المرأة الجميلة قد ظننت عند نفسها أنها شيء مقدس
ولذلك لا تريد أن تعمل عملاً كبقرة البراهمة ؛ فيا ليت الرجل كان
شيئاً مقدساً أيضاً كعجل المصريين المدماء ولكن البقرة
المقدسة في المرأة لا تعرف العجل المقدس في الرجل
يا هوّلاء إنما الرجل مخلوق قوي ولكن معظم قوته منصرف
إلى حواسه ، فمن ثمّ كان في يد المرأة ضعيفاً لأنها على ضعفها
ينصرف ما فيها من القوة إلى عواطفها فلا يلتقى الخصمان إلا كانت
الهزيمة على الرجل وقد كان لولا سفاه رأيه في منظر عن هذا
ومستسمع (١) ، فما رأيت قط رجلاً يهوى امرأة إلا اعتدّ
سلطانه في أنه يشعر بسلطانها عليه ، وكان رضاه في أنها راضية
عنه فهكذا هكذا . جعل الرجل حاجته الكبرى في المرأة
وبالغ في توهّ هذه الحاجة وافتنّ في تصويرها ألواناً وضروباً
جذبت المرأة حاجته إليها سبب كل حاجة لها ، وبالغت في الطاب
واحتكمت فيما نطاب ، وانصاع الرجل في بدنها كالبيهة السائمة
وجعله التمدن الفاسد في رأيها كآلة الساعة ، علامة ضبطها وإيقانها
« أن لا تقدم ولا تؤخر » .. وإن تعجب فعجب أن هذا
الرجل نفسه إذا هو كبحها مرة عن حاجة نطابها ، أرضاها بحاجة
أخرى لم تطالبها ؛ فكان هذا المسكين إذ نعبّد لها بأبي إلا أن

(١) المراد عيدا عنه

يكونَ عبداً بشهود وأدلة وتحسب المرأةُ اليومَ أنَّها غيرُ المرأةِ من قبلٍ وغيرُ ما كانتَ حالها ، كأنَّها رُقِيَتْ في التاريخ فقد غيّرتَ نفسها بالفنون والعلوم والأزياء وبهذا التحكُّم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة ، وأنا أولُ المؤمنين أنَّها غيّرتَ نفسها ولكن هل غيّرتها الطبيعة ؟ (١)

أيها السادة : إن مع كلمة هات كلمةٌ خُذْ ؛ لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتَقَاَصَرَتِ الأمورُ والأحوال ؛ وكلُّ عملٍ وكلُّ عاملٍ يتركبُ منهما فالدنيا كلمتان « هات وخذ » ، والحياة كلمتان « هات وخذ » ، والمرأة التي تصفونها كلمتان أيضاً ولكنها « هات وهات »

قال « الشيخ علي » ومرَّ هذا الكونت في فلسفته يَمْضُغُهَا مضغَ الماء ، وربما أصاب شيئاً ولكن ماذا تنفع كلمة الحق يُرادُ بها الباطل ؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابنُ شجرة لا ابنُ امرأة ... ! على أن من تَعَلَّقَ شيئاً من أمور الحياة وكلِّ إليه ؛ وهو بعْدُ لم يعرف غيرَ المالِ يجمعه ويُدَّخره وقد خاقه الله رجلاً مالياً ويسرَّه لما خلق له ؛ وكثيراً ما رأى وجهه في المرآة فكان يُعجبه من مَنْشُورِهِ أنَّهما في تَقَرُّطِهما « كحافري حصان الجنية الانجليزى »

(١) أنظر في كتاب (السحاب الأحمر) رأينا في مثل هذا من مثل هذه

ولما استوفى عمر السبعين وأصبح في يَبْسِهِ وموته كأنه
جذر قرنٍ من الزمن ؛ خرج في عيد مولده الى سواد المدينة (١)
منحدرا الى قرية يملكها ؛ وانطلق يَجْتَئِلِي مناظر الطبيعة فكان
لا يرى في السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شبابا وطفولة
وكان وحده منظر الهرم المستتميت في هذه الطبيعة كلها .
وأعجبه شجرة قائمة على مسيل الماء وأعجبه أن يتفيا ظلها وقد
تحفى بروحه المستعبدة برذها ونسيمها ، فانطرح يتشاءب هنيئة
وأحب أن يسافر الى شبابه البعيد على مطية النوم فكبس
رأسه على ذراعه فاذا هو نائم كأنما جرع السم فحمد من فوره .
ورأى فيما يرى النائم كأن الأرض ترقصه على أعشابها لتسح
عن أعضائه التعب ؛ ثم أبهر السماء في مثل تحاسين الطاووس من
ألوانها وأصباغها كأنما أشرف على الأرض فجر يوم من أيام الجنة ؛
ثم نظرا فاذا ضوء رطب يتندى وقد ترقرق فأصاب شفتيه
الذابلتين ، ولمس على أثره وجه حساء كأنها فائقة القمر فكان
ذلك الضوء قبلتها وابتسامتها وكان على قلبه « بردا وسلاما » ؛
فنصب لها يديه يتناولها فاذا هي تتخطى الغمام هابطة اليه ،
واذا هي على الأرض نحوه مقبلة ، واذا هي أمامه ضاحكة واذا
هي ملء صدره وذراعيه ؛ فارتجف جسمه رجفة شديدة

(١) ريفها وما حولها من القرى

كَأَن فِيهَا شَوْقَ سَبْعِينَ سَنَةً مِنَ الْهَجْرِ وَمَا لَبِثَتْ عُقْدَةٌ أَجْفَانَهُ
 أَنْ انْحَلَّتْ فَنَظَرَ فَإِذَا يَدُ فِتَاةٍ قَرْوِيَّةٍ نَاعِمَةٌ تَهْزُهُ بِرَفْقٍ .
 فَانْتَهَضَ الْكَوْنَتُ كَأَنَّمَا كَشِطَّ مِنْ عِقَالٍ ، وَلَمَّا تَصْنَحُ
 عَيْنَاهُ مِنْ سَكْرَةِ الْحُلُمِ ، فَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى جَمَالَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ مَعًا فِي طَلْعَةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ عَلَى غُرَّتِهَا . ثُمَّ كَشَفَ لَهَا عَنْ رَأْسِ
 كَفَرَوَةِ الْأَرْنبِ الْبَيْضَاءِ وَانْحَنَى مُتَأَدِّبًا وَقَالَ بِلُطْفٍ : أَشْكُرُكَ
 يَا سَيِّدَتِي .

أَمَّا هِيَ فَابْتَسَمَتْ لَهُ وَقَامَ فِي نَفْسِهَا أَنَّهَا هِيَ رَدَّتْ عَلَيْهِ رَوْحَهُ
 وَأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَنْبِهِهِ لَمَّا انْتَبَهَ آخِرَ الدَّهْرِ كَأَنَّمَا حَسِبَتْهُ مَيِّتًا ، وَظَهَرَ هَذَا
 الْفِكْرُ فِي ابْتِسَامَتِهَا فَأَكْسَبَهَا شَيْئًا مِنْ قُوَّةِ رَوْحِهَا وَجَعَلَ لَشَفَتَيْهَا
 الْحُمْرَ أَوْيْنَ جَمَالَ الشَّفَقِ إِذَا افْتَرَّ عَنْ نَوْرِ الْفَجْرِ .
 وَنَأْمَاهَا الرَّجُلُ بِمَبْلَغٍ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ لَذَّةِ الْحُلُمِ وَمَا فِي صَدْرِهِ
 مِنْ ضَجْجَةِ تِلْكَ الْحُورِيَّةِ الَّتِي تَلَوَّتْ عَلَيْهِ وَتَقَابَسَتْ فِيهِ ؛ « وَبَعَثَ
 عَلَيْهَا وَهْمَهُ وَصَبَّغَهَا بِالْوَانِ نَفْسَهُ وَاسْتَضَاءَتْ بِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْهُ
 أَمَامَ الْفَانُوسِ السَّحَرِيِّ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَذَّةً أَهْنًا لِلنَّفْسِ مِنْ
 لَذَّةِ الْأَحْلَامِ فَكَأَنَّمَا تَرَى فِيهَا النَّفْسُ شَيْئًا مِنْ تَحْقِيقِ الْمُسْتَحِيلِ ؛
 وَإِنْ فِي أَعْقَابِ هَذِهِ اللَّذَّةِ بَعْدَ الْيَقَظَةِ مَا يُشْعِرُ الْمَرْءَ بِالْأَمَانِيِّ
 كَيْفَ جَاءَتْ وَكَيْفَ ذَهَبَتْ ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي حَيَاةٍ أُخْرَى ، وَكَأَن
 نَفْسُهُ تَتَمَسَّكُ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ وَلَا تَرِيدُ أَنْ تُسَلِّمَ بِهَا فَتَكُونَ ذِكْرًا

الحالم أرواح للنفس من الحالم نفسه على الحقيقة ، لأنها نتاج ما بين
لذة لم تكن شيئاً ولذة صارت شيئاً .

ونبتت صورة الفتاة في عينه على ما اشتهى ، وكانت زهراء
اللون ، حوراء العيين ، ساجية الطرف ، أسيلة الخد باسمة
الشعر ، حسنة التكوين كأنها ربحانة ترف رفيفاً ، وتكاد
من فرط رقتها تتكلم ابتساماً حتى لا يحسب من رآها أن الشمس
طاعت يوماً على أبداع من ثغرها وانثزلت ، ولا أحسن من خدها
والورد . وكان الطبيعة يعتريها أحياناً من سوء الحرص وسوء الخوف
وسوء الحيلة بعض ما يعتري السحبيح الذي يخبأ أنفـس ذخائره في
أخس الأمكنة وأقبحها منظرأ وفيما لا حنـل به من الأداة
والمتاع ، فكانت « لويز » على ما وصفنا من الجمال والظرف ولم تكن
مع ذاك إلا قروية

أما صاحبها فما أشبه به بعنق الأسر . شيخ مضعوف ،
كالعرق المنزوف ، والعظم الملتوف ، مفسوخ العضدين ،
(١) ناسل الفخذين ، كأنما يتوكأ منها على عصوين . . .
غير أن له عيناً يتوقد فصحها ويسـتـنـفـض الناس طرفها (٢)
فلا يملك من تقع عليه أن يضرب وكذلك اضطربت الفتاة .

وما كاد الرجل يأسح اضطرابها حتى طبع الله على بصيرته
(١) ليس تليهما لحم وكذلك بعده (٢) اذا رأوها أرعدوا هيبة

فحسب ذلك معنىً من الغزل وانطلق وراء خياله يمرُّ به على آمال
الشباب الفانية ؛ وكان لحظُ الفتاة ينسأبُ في عروقه دماً يغلي فحسب
أن جسده قد ثابَ إليه ^(١) وأنه بُعثَ خاتماً جديداً لهذا الحب
الجديد . ويبالغُ في التطرف ويجلسُ قريباً منها يستنبيها
وهي تُطرفُ له من أخبارها ^(٢) ؛ فعلم من روايتها أنها شريفةُ
النسب خالصةُ العرق وقد نبأ بها المنزل وانحطَّ الدهرُ على أهلها
فهي ذاهبةٌ إلى المدينة تلتبسُ حياة التقوى في دير العابدات .
وعامت هي من رؤيته أن في هذا الموت المائل أماً لها حياةً وأنه
لامذهبَ لها من ورائه إذا هي أفلتته إلا مذهبُ القدرِ المجهول
ورأته كأنما يستشربُ لفظها ولا يسمعُه وأبصرت هواها في
حمايلق عينيه فجعلتُ حيناً تبسمُ له وتلحظه ؛ وحيناً
تأحظه وتبسمُ له ، وما تافظُ من أنةٍ في بثِّ حزنها إلا أحسَّ
المسكينُ أنها تقرةٌ على أوتار قلبه ، ولعل الإنسان لا يمكنه أن
يحب إلا إذا هيأت له الطبيعةُ مجلسَ الحب على ما يشتهي وعلى
ما هو مذهبُ الحب في نفسه .

وقد مذَّعتُ له الفتاة من خبرها ^(٣) وكتمت عنه أنها طريدةٌ

(١) تذكر له طرفاً منها وتخفي عنه ما بقي مما لا يحب أن يظهر عليه

(٢) رجع إليه بعد الهزال مما أثر في أعصابه ودهه

(٣) ذكرت له قطعة منها دون سائرها .

منبوذة استزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان منها
معتقة فؤادها زمنا ؛ ثم طوح بها عارُهُ وغدرُهُ ولؤمُهُ جميعاً
فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تطرح الثمرة إذا
دب فيها الفساد من عبث الطير .

قال « الشيخ علي » : واقلب الاثنان كلاهما صيدٌ وصائدٌ .
أما هي فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حب الجدد والأب والزوج
والعشيق ، فان تاب إليه عقله من جهة بقي مجنوناً من ثلاث جهات ؛
وحسبت أن الموت مصباحه أو ممسسه فهو همها عشيّة
أو ضحاها . ولقد كانت من الضائقة والعوز وشدة الاختلال بحيث
لو عهد إليها أن تغسل الزنجى حتى يبيض لقاء درهمين لطعت
فيهما وأما هو فقد ظفر في زعمه بالمرأة الطبيعية التي نبتت
مع الأزهار ، وطلعت في سماء الحياة مطلع ضوء النهار ؛ وحسب
أن هذه الفتاة التي تناهز العشرين إنما هي زيادة عشرين سنة في
عمره ينتهبها من القدر انتهاباً ، ويقضى بها دين الحب طفولة وشباباً .
ولست أدري كيف عزب العقل عنه ولا كيف خذله
رأيه ولا كيف وهى ركن فاسفته وكان من قبل وثيقاً ، ولا
كيف أحب منذ الساعة وقد كان يتصاون عن النساء ويحسب أن
بعضهن عقد لا يحمله إلا من يحل عقدة نفسه

ولكن الحب يابى لا يكون عجيباً بلا شيء يعجب منه ،

وكثيراً ما يتساءل الرجل بغضاً ليجب بعد ذلك بمقدار ما أنقض^(١) فدلله كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة طارق المغاطة التي لا تؤدي إليه فتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراج العجيبة أشد منها في البرهان نفسه .

وهي الأرواح ما يزال بعضها يتسلط على بعض وما يزال في كل روح معنى هو الوسيلة إلى هذا التسلط ومنه مسأله وماتاه ؛ فلو قات إن في مسأله ذلك الرجل معنى الحمار لما كان في الثمالة إلا معنى العصا ؛ وكذلك انطلقت وهي نسوقه في طريق مصائبه ، وعند العصا تفرغ حيلة الحمار ولو كان الحمار أياً .



في (الحب)

من هذه الطيفاء التي تستميل ولا تميل ، وقد استبدت بالجمال فلا يرى في غيرها سوى جميل ؛ طالعة كالضحى فكل نجمة من ذوائها كاسنية ، لاهبه كالنسيم وفي كل فاب من حبها عاصفة ؛ وقد تبدد العنقاء بادالاً كما يعبد المجوس الشمس ، وتنه في دلالها الجبال كما ينهى المرء من أمس ، وكتسب عايمهم هواها اليانوم ، « جند ما هنا ممرزوم » .

(١) ما أنقض (رسائل الأحرار) (والسحاب الأحمر)

وكم تمنوا لو ان لين أعطافها ، يتعدى الى انعطافها ؛ ولو أن
بعض ابتسامها ، تُشرق على ظلمات اليأس من غرامها ؛ وهي
تقتل منهم برضاها وغضبها على السواء ، كأن حبها الموت متى قضى
جاء به الداء ، وجاء به الدواء ؟

(في الحفلات)

وَمَنْ هذه الطالعةُ في غلائلها ، المعروفةُ في الحسن بدلائلها ؛
المشرقةُ كالبدْرِ في ظلمةِ الحلك ، الضاحيةُ كالشمس في مُقبةِ
الفلك ؛ تعترفُ بالهوى في الحاظها ، وتكبره في الفاظها ؛ وتقبيلُ
بعينها سائلةَ عما بين جنبيك ، وتلتفتُ بجيدها مائلةً عن جوابِ
عينيك ، وقد حسرت عن زنديها ، ووضعت رمزا للحب تلك الوردة
على نهديها ، فلاحَت للمحبين كأنها رُوحُ القُبُلَاتِ من خديها ؟
(في الرقص)

وَمَنْ هذه الزَّهراءُ كالنار المشبوبة ، الحسناءُ كالدمية (١)
المنصوبة ؛ المشرقةُ في زينتها كغرةِ الدينار ، اللائحةُ في ميناءِ
الدموع كإلواحِ المنار ؛ وقد شفَّ قلبُها عن الجوى ، كما يشفُّ
الزجاج ، وتدافعت من طرب الهوى ، كما تتدافعُ الأمواج ؛ وهي
ترقصُ على حركات القلوب في الضلوع ، وتسترسلُ في سهولةِ كأنها
جسمٌ خُلِقَ من الدموع ؛ والأبصارُ قائمةٌ على قوائمها ، والنفوسُ

(١) التمثال الجميل

حائمةٌ منها على حمامها، وما هي في عين الحب إلا خَطَرَاتُ الطَّيْفِ،
أَوْ رِقَّةٌ نَسَبَاتِ الصَّيْفِ، وَلَا رَقَصُهَا إِلَّا مَعْرَكَةٌ فِي الْحُبِّ قَامَ
فِيهَا اللَّحْظُ مَقَامَ السَّيْفِ ؟

(في الموسيقى)

وَمَنْ هَذِهِ الْبَاسِمَةُ كَالْأَزْهَارِ، السَّاجِدَةُ كَالْأَطْيَارِ، التَّارِكَةُ
عِشَاقَهَا كَالشَّمْسِ بَيْنَ طَرْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ الْقَائِمَةُ كَالْكَاسِ فِي
الْيَدِ، النَّاعِمَةُ كَالْحُمْرَةِ فِي الْخَدِّ؛ وَهِيَ تُحْيِي بِالصَّوْتِ لِأَنَّهُ
يَخْرُجُ مِنْ صَدْرِهَا، وَتُسَكِّرُ بِاللَّفْظِ لِأَنَّهُ يَمُرُّ مِنْ نَغْرِهَا؛ وَيَكَادُ
يَخْلُقُ مِنْ سِحْرِ نَعْمَاتِهَا الْقُلُوبَ الْمَفْتُونِ، وَمِنْ حَرَكَاتِهَا نَامِلُهَا الْعَقْلُ
لِجَنُونٍ؛ إِذَا صَدَحَتْ فَحَمَامَةٌ، وَإِذَا رَقَصَتْ فَعِجَامَةٌ، وَإِذَا
أَرْسَلَتْ مِنْ يَدِهَا (صَيْحَةً) الْأَوْتَارِ أَقَامَتْ لِلطَّرْبِ (الْقِيَامَةَ) ؟

تلك هي دُرَّةُ الصَّدْفَةِ الْمَطْرُوحَةِ عَلَى سَاحِلِ الْمَوْتِ؛ وَهِيَ
حَمَامَةٌ ذَلِكَ الْقَفْصِ الْبَالِي الْمَصْنُوعِ مِنَ الْعِظَامِ؛ وَهِيَ خَطِيبَةٌ
الْكُونَتِ فَيَكْتُور... !

وتلك هي « لُويز » الْقَرْوِيَّةُ السَّاذِجَةُ؛ كَانَتْ نَبْتَةً فِي الطِّينِ،
فَأَصْبَحَتْ زَهْرَةً فِي وَعَاءِ ثَمِينٍ؛ وَلَآنَ تَكُونُ نَبْتَةً مُهْمَلَةً
وَتَسْمُو، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ زَهْرَةً مَرْعِيَّةً وَتَجْفُ.

ولقد رأى الكونَتِ أخزاه الله أن أحسن ما يكونُ

الاستمتاع بالجمال حين يكونُ الجمالُ فناً وفتنةً ؛ فأما الفتنة ففي عيني لويز وجمالِ تكوينها ، وأما الفنُّ فلا سبيلَ إليه من هناك ولا من فلسفته وليس إلا أن يبسطَ يده كلَّ البسط حتى تنبتَ له تلك الزهرة من أغصانِ الذهب والجوهر ؛ فأنفق واتسع في الإيفاق وجعل آمالَ شيخوخته كلها مُقترحاتٍ في زينة الفتاة ؛ فبرعت البراعة كلها في الرقص والموسيقى ، وأحسنت من الفنِّ النسائي في أساليب الظرف والجمال والزخرف على جسمها ، ما ترك هذا الهرم المتصابي المفتون يفاخرُ الناسَ كافةً بأنها خارجةٌ من قريحته

وأعجبُ ما في أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل ما بذل ، لم يكن يرى أنه أنفق على لويز ما لا بد منه لمثل لويز وهو منذُ أصبحت في كنفه استبدلَ من الحرصِ على المال بالحرص على الحياة ، وعرف أنه لا بد في الحب من وسيلة وأن قلب المرأة ليس في يد أحدٍ ولا في يد المرأة نفسها بل هو يحتكم فيما يختار ويختار على ما يحتكم ؛ وأنه ليس أشدَّ عنفاً من هذا القلب ، فهو ان لم يُحْيَ قَتَلَ . يحب المرأة عاشقٌ غير محبوب منها ويريد مراً غمته على حبه فيقتله قلبها لوعةً وضنىً بما يطوع لها من صده أو بغضه ؛ وتحب المرأة ثم يمنعها قومها ويرغمونها على غير من تحب فلا يقتلها إلا قلبها وان (فكتور) ليعرف أنه فارغُ الخلقة من وسائل

الحب كلها ويعرف أنه في أحض أنواع الهوى . . . لا يعدل .
أكثر مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة ، فكيف به في الثمر الجلو
وكيف به في حب لويز !

لم يبق إذن إلا أن « يُخرج الوسيلة من يده » والمال أضعف
الوسائل في الحب الصحيح وإن كان أقواها في الحب المكذوب ،
على أنه لا يجعله قويا من ضعف إلا أن يظل يمد بعضه بعضا .
فاذا أنفضت اليد أو أمسكت فلان يقبض الحب على الريح
أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة . . .

ومن أجل ذلك توسع الكونت في البذل حتى كأنه كيس
مخروق ، ولم يعرف لها طلبا إلا بلغ فيه رضاها وحسب أن في
رضاها محبتها فكان يأتي بالحاجة التي تطلبها والحاجة التي لم تطلبها
ويجعل كل شيء شيئين « وأبى إذ تعبد لها إلا أن يكون عبداً
يشهود وأدلة » .

وبقيت « لويز » تتربص به الأجل فكانت له كحرف
التسويق ، ولا تزال تدافع عنه عن نفسها وتروضه على الصبر
وتتمنيه أنها تستتم فنون الجمال من أجله وأن هذا القمر متى تم
فسيدخل معه في المحاق لا محالة . وتظن باطلا أنه لم يبق منه
إلا كما بقي من ذنب الوزغة ^(١) تضرب به يميناً وشمالاً ثم

(١) هي دويبة معروفة وهي وسام أبرص جنس واحد ولكن

تموت ، يَبْدَأُ أن الموتَ لم يستنقذها منه وإن كان يرأفُ بها أحيانا
وتدُخلُ الرقةُ عليها فيُنِيبُ عنه (الروماتزم) ^(١) ليريحها
بضعة أيام

وكان الرجلُ يخشى غضبها ويطامعُ في رضاها فكان يستعين
بعضه على بعضه ، ويعلم أنها ترى الصبرَ أحسنَ مافيه فيترك أقبحَ
مافيه جانبا ويصبر . فلما استوت فتنتها ولم يبق من باطالها
ما تتعللُ به أو تمتدلقُ به علةً ، ورآها قد أخذت زُخْرُفَها
وازيّنتْ واهتزّت ورَبّتْ ، صار منها كحرف الجر ^(٢) لا يريد إلا
أن يكون الجارُ والمجرور (متعاقين) . . . وفرغَ صبره واستيقنَ
أن له آخرةً وأن صاحبته لا تزالُ في أول دلالها ، وكانت تحسبُ
الدهرَ نائما عنها فاذا عينه قد انتبهتْ في أجفان هذا الشبح فنظر
إليها نظرة لا صوابَ فيها .

وبأغتها الرجلُ فخيرها بين أمرين خيرُهُما شرٌّ : إما طريقُ
إلى صدره ، وإما طريقةٌ من غدره ؛ ومع الأولى الوصية بالمال ،
ومع الأخرى أن تذهب في الحال .

سام أبرص كباره وهذا الأخير هو ما يسميه العامة (البرص) وإذا قتلت
الوزغة حرّكت ذنبها قليلا ثم ماتت

(١) هو في العربية الرثية بفتح الراء وسكون الراء وكسرها أثرنا

هذه اللفظة لموضعها (٢) سبق أنها كانت له كحرف النسويف . .

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر في معركة كان لا بد أن يخسر
فيها أحدهما صريعا. وقد استحال أن يكون المغلوب غيرَها، وإن
عشرة تذهبت منهن منها بعد حين خير من عشرة لا تستقيلاها؛
ورأت الظبية أن لا مناص، فوقعت في يد القناص

(باليل)

الليل مُسَدِّلٌ كآته حجابٌ مضروبٌ بين الحياة
والأحياء، مجتمعُ الظلمة كآئها هي ذُنُوبُ الناس في نهارهم جعلت
الملائكة تُرسلها إلى السماء؛ وتغشى الأرض معنى من خشية
الله فتفرّت له دموع المساكين، وأقبلت عليه أنفاسُ المحزونين،
وبرزت له في آتار الظلم دَعَوَاتُ المظلومين؛ وقد ارتفع إلى الله
صوتٌ يتقطع زَفَرَاتٌ، ويتلهَّب حَسَرَاتٌ، ويسيل من الدمع
قطراتٌ؛ وكان صوتُ «لويز» وهي تزفر الزفرة تكاد تنشق لها
وترسل الأنة تكاد تدفن فيها؛ وما بها الغيظ فتسكت به
عنها ولا بها الحزن فتمسح به دمعها ولا بها الهم ولا بها الغضب
ولا أمرٌ مما يتواصفه أهلُ البلاء ويبدئون به في شكوى أحزانهم، وإنما
ذلك بئى إن يكن من الحياة فليس بالحياة وإن يكن من الموت
فليس بالموت، ولعله منازعة الحياة والموت على قلبها

ما بك يا لويز وقدبت زوج الكونت الذهبي وهو عما قليل
أخذ ما أمه وتارك ما وراءه؛ وما بك أيتها المسكينة وقد كنت

فقيرة بائسة لا تملكين قوتَ يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة
تجمع المال وتكثره ؛ وما بكِ عمرُكِ اللهُ وقد خرجت من الكوخ
الى القصر وصعدت من العرش الى العرش ، وان كانت حواءُ قد
طُرِدَتْ من الجنة فقد طُرِدَتْ أنت الى الجنة .. وفي الجنة قومٌ
يقادون اليها « بالسلاسل » .. !

قالت المرأة وهي تناجي ربها : إلهي ماذا قضيت علي ؟ لقد
وضعت الدنيا على راحتي وكان مملكة آلامي مرسومة في كفي ،
ولكن أي فرق بيني وبين تَمثالٍ من الذهب الخالص في منزل هذا
الرجل . لقد رددتني من فقري وذلتني الى رجل رددته أسفل
سافلين (١) فما يُريني الدنيا التي أعرف أنها الدنيا ولكنه
يُريني الآخرة

يا وَيْلَتَا إن لم ينجل الرجلُ من شيء أفلا ينجل من أنه
لا ينجل ؟ . أُنبي هذا الموتُ لشقائي إلا أن يتخذني زوجتهُ
وكنتُ خائفة أن أجعله أسعدَ رجل في الدنيا لو اتخذني ابنته .
اللهم إنك رزقتني العافية في كل جوارحي ولم تصبني إلا في القلب .
يا ويلتا ما أنا إلا لعبة في يد هذا الطفل لا يلذه شيء أكثر
من تحطيمها في طرق لذته ، وقد خلقت يارب من يحطم القلوب
الصحيحة ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة ،

(١) أي بلغ الغاية من الهرم أو التلف أو الصلال أو ما إليها

وأنه ليس فيما برأت وذرات مخلوق أشدّ تعباً ممن يفتش في قلبه عما ليس في قلبه ، وهل في الممكنات أو في أشباه الممكنات أن أجد في ناحية من قاي حب هذا الزوج ؟

لقد عرف الناس أن قلب المرأة كثير العيب ، وهذا الذي يسمونه دلالاً ويحبونه في الحب إنما هو شيء من عبثه ؛ وأن هذا القلب إنما خلق ليحب ولذلك أُعطي قوة يخلق بها الحب من العدم ؛ غير أنهم جهلوا فيما يجهاون من أسرار المرأة أن ذلك القلب إنما جاءه العيب بالرجال من أنه لا يطيق أن يعيب به أحد من الرجال ، ومتى وُجد من هؤلاء من يُريده بتأديته ويجعله من هزله معرض السخرية وموضع العيب لم يكن في الدنيا أحد أبغض إلى المرأة منه وإن كانت الدنيا كلها في طلعتته وإن كانت مخلوقاً من روث الشمس .

أليس النساء يُحسبن حتى الكلاب ويرفهن بها ويعنّين بها وينزلنهن منزلة الولد في الحب والانعطاف والتوجع والتحزن ، فسبحانك اللهم إن هذا القلب الذي يسع حب الكلب بضيق عن حب كنير من الرجال إذ يحبون المرأة حباً ليس فيه شيء من روحها — حب الزينة أو الاستمتاع أو الخدمة — فكأنهم بذلك يعضونها بغضاً فيه كل روحها . يا ويلتنا أعجزت أن أجد في هذه العاجلة نفساً أرى فيها نفسى ؛ وهل حرمت

على كلمة الحب فلا يفيض بها صدرى ولا ينطلق بها لسانى ،
 وهل خلقت لؤلؤة لأكون قى عقد من الحصى ووسمى
 الله بهذا الجمال ليعذبى بهذا القبح ، وما عسى أن ترد علي هذه
 النعمة مادمت لا أجد لها سبيلاً الى قلبى ومادام هذا القلب لا
 يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يعامل بالمال . ؟

ضل ضلالكم أيها الناس إذ تحسبون النعمة حق النعمة فى
 الغنى وحده وتمضون الأمر على ما تخيلتم من ذلك ولا تدرون
 أن الله ينتقم بالغنى أشد مما ينتقم بالفقر . فلو أنى ابتليت بالمصيبة
 وأنا امرأة خاملة لا حملتها وقلت خول عرفته فما يبلغ بى ولا
 يزيدنى بنفى ولا بنفسه معرفة . ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين
 أن فى كل بلاء يعثر بهم ما يعينهم على حمل بلاء أشد منه ؛
 ولكن الضربة اليوم لا تصدع الصدفة بل تسحق اللؤلؤة .
 فاللهم لا قوة إلا بك .

وما أشبهتنى إذ قتل هواى هذا الكونت ، بزنجى من
 زنوج أمريكا اغتال سيّدا من البيض فلم يجدوا له عذابا إلا أن
 يشدوا قتياله فى وثاقه وتركوه يبأس تحت عينيه ويسيل جوفه
 تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره ؛ وهكذا يقتله القتل وحده
 بالرعب والجنون قتلة لا وصف لها فى لغة الحياة .

ولقد كنت بائسة يطير بها القضاء ويقع فلا تزال دهرها

تحت جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل في رحمته ؛ فلما وجدتُ الغنى واستشرفتُ للسعادة شغلني الله بهم نفسي ، فشغلتني نفسي عن النعمة ، فلا تزيدني النعمة إلا همًا . وقد كتبَ الله عليَّ أن يقتلني بغضُ هذا الرجل فوهبني الغنى من يده وحسبَ الناسُ أن ذلك لكما أستمعَ به وعلمَ الله أن ذلك لكما أتصلَ بقاتلي . فاللهم قد أحبطَ بي وليس ورائي مُنفسَسَحٌ فمن حيثما التفتُ لا أرى غيرَ ماقضيتَ عليَّ أن أرى ؛ وهذا امتحانُ أينما أتوجهُ في الحياة لا تقابلني الحياة إلا بمسألة من مسائله المعضلة .

إن كلمات القضاء لا تقرأُ لأنه لا ينزلُ بالناس إلا معانيها . على أن الكلمةَ الأُزليةَ التي يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لا بد أن تكون جملةً كاملة من غضبِ الله في السماء لا يقابلُها إلا سيرةٌ كاملة من ازدراء الناس في الأرض .

* *

قال « الشيخ علي » : وتفرَّتْ دموعُ هذه المرأة تحفُّف من يأسها وإنه ليأسٌ أكبر مما تحملُ نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده فكيف به ومع ذلك الوجه شبابُها الهالكُ ، وآمالها الضائعةُ ، وغصَّةٌ من شماتة الناس وازدراءهم ، وبلاءٌ من نعمةٍ سابعةٍ ستقلبُ فضيحةً وسخريةً ؟

واهاً لك أيتها المسكينة . إن مصيبة الأغنياء اتسكتشف
ففسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها ، وإن المصيبة لتكون
واحدة ولكنها ترتد اليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم
والمتربصين من حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكأنها
مصائب كثيرة لا تعد

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط ؛ فإن
كان في الغنى تلك النعمة ففي الغنى هذا الهم ؛ وما رأيت أيسر
اضطراباً من الماء الراكد قذف بحجر ، إلا الغنى الغافل
قذف بمصيبة .

ويحكم أيها الأغنياء ! متى رأيتم ثمرة لا تسقط أبداً من غصنها
الأخضر ، وثمره تسقط من الغصن ثم ترد إليه فتعلق به
وتنضج عليه ، فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزية
فيه ولا مصيبة ، لأن هذا الكون حينئذ يكون فوضى لا نظام
له ولا قرار .

*
*
*

وانصدع الفجر وأقبلت الحياة تنفس من مباسم الأزهار ،
وتسغنى بالسنن الأطيوار ، والفتاة موجهة أن ترى طلعة
شيخها كأن هذه الطلعة صبح غير الصبح ؛ وودت لو وقف
الزمن ، فإن لم يمكن فوقوف الأرض ، فإن لم يمكن فوقوف

قلب هذا الشيخ ؛ وُخِيلَ إليها أنها ستُقَرَفُ بِإِثْمٍ منكِرٍ إذا هو
بادَرَهَا قُبلةَ الصُّباحِ على مثلِ شَفَقِ الشَّمسِ من خَدِهَا ، وَأَنَّهَا
لَا تُرْمَى بِمَسَبَّةٍ أَوْجَعَ وَلَا أَمَضَ من قولهِ حَبِيبَتِي
وَأَنسَلَخَ اللَّيْلُ ، وَطَارَتِ الْأَحْلَامُ ، وَأَفْصَحَتِ الْحَقِيقَةُ ،
وَاسْتَيْقَظَ الْكَوْنُ .

(على المائدة)

زَهْرَاتُ نَاضِرَةٌ كَأَنَّمَا اخْتَبَأَتْ فِيهَا ابْتِسَامَةُ الْفَجْرِ ، عَاطِرَةٌ
كَأَنَّهَا رِسَالَةُ الْإِقْمَاءِ بَعْدَ الْهَجْرِ ؛ بَدِيعَةُ التَّنْمِيقِ تَحْسِبُهَا قَصِيدَةً مِنْ
شَعْرِ الْأَلْوَانِ ، مُتَفَتِّحَةٌ لِلْحُبِّ وَكَأَنَّهَا لِكِتَابِ الْحُبِّ عُنوان ؛
مُتَلَاذِمَةٌ مُصَصِّفَةٌ ؛ مُتَلَاذِمَةٌ كَالشَّفَةِ عَلَى الشَّفَةِ ؛ قَائِمَةٌ
فِي جَلَالِهَا وَحُسْنِهَا ، كَأَنَّهَا فِي خَلْقَةِ الْجَمَالِ آيَةٌ ؛ وَكُلُّ زَهْرَةٍ فِي
لَوْنِهَا ، كَأَنَّهَا لِدَوْلَةٍ مِنْ دَوَلِّ الْحُسْنِ رَايَةٌ ؛ وَقَدْ جَلَسَتْ إِلَيْهَا
غَادَةٌ فَنَانَةٌ كَأَنَّهَا فِي رَقَّتِهَا رُوحُ النَّسِيمِ وَفِي نَضْرَةِ شَبَابِهَا رُوحُ
الْحَدِيقَةِ ، وَلاَحَتْ الْأَزْهَارُ كَأَنَّمَا هِيَ خَيَالَاتُ جِوَاهِرِهَا وَظَهَرَتْ
الْغَادَةُ كَأَنَّهَا هِيَ الْحَقِيقَةُ .

تلك هي « لوز » في صَبِيحَةِ عُرْسِهَا عَلَى الْمَائِدَةِ وَقَدْ أُثْبِتَتْ
فِي كُلِّ زَهْرَةٍ لَحْظًا مِنْ لِحَظِهَا ، وَلَا بِشَكٍّ مِنْ رَأَاهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ
وَهِيَ تَرْتَقِبُ ظُهُورَ زَوْجِهَا أَنَّهَا تَتَنَفَّسُ عَلَى هَذِهِ الْأَزْهَارِ شَبَابَهَا
وَنَضْرَتَهَا وَحُسْنَ مَلَأَمَتِهَا وَتَحْسُدُهَا عَلَى أَنْ لَيْسَ فِيهَا أَعْوَادُ

من الخطب تفسد نظامها وتتكسر بهجتها وتغض من
 حسنها كما ابتليت هي بزواج من عود (١) وإنها لكذلك اذا
 خفق أقدام وضوضاء وموكب وثى كالوسيقى ، فالفتتت
 جيدها حتى أبصرت الكونت داخلا يتوكأ على خادمين وله
 نغم مختلف وآهات وأنات ، ومع هذا النغم سُعال كقرع
 الطبل . وكان (الروماتزم) قد دب ديبه في مفاصله تلك الليلة
 وبات يفتيل في عروقه وأعصابه ، وعسكرته الحمى واجتمعت
 اليه علل الشيخوخة كلها تهتهه بالزفاف غير أنه لم ينس مع
 هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة ، فحفزه الشوق
 وعاوده الصبي فطار اليها بجناحين من خادميه
 ولما بلغ ظامها أفلتت الخادمين ثم ارتقى عليها يقبلها رياء
 ومُصانعة ، ثم تمسك بها بستند اليها ، ثم انحط الى يمينها ، وما
 كادت تناوله قدح اللبن يرتضيه حتى غمره الألم
 وهاج داؤه ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات
 وأنات ومع هذا النغم سُعال كقرع الطبل
 ورأت «لويز» ذلك فرقصت أحشاؤها .. ! فلم تملك المسكينة
 أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة الى حجرتها

(١) في المثل (زوج من عود خير من قعود) وقد أصابت الكلمة

حقها في هذا الموضع الذي وضعناها فيه

وانطرحت في غمرة أخرى من الألم ؛ وبقيت هناك ملتقاةً يُدارُ بها وكانت لم تغتمض في ليالها فاصطاح على جسمها هم الليل والنهار

— ﴿ فصلٌ خامسٌ في السنة ﴾ —

وزالت هذه الغَشِيَّةُ عن الكونِ بعد أيام كانت العروسُ فيها من رَوْحِ الأملِ كالمختلعة^(١) إذا أخذت كتابَ طلاقها ، أو الأُمة إذا وُعِدَتْ بعتاقها ، وكانت دعاؤها لله كلماتٍ لا تعدُّ وهُنَّ ؛ تقول اللهم رَحْمَاكَ فَأَنْتَ المصِيبُ وأنا المصابَةُ ، تلك قوَّتُك وهذا ضعفي . وكانت إذا حمدت الله تَوَارَدَتْ مع زوجها فيما يحمد الله به من حيث لا يشعرُ أحدهما أو كلاهما ، كأنَّ للحبِّ الشديد والبغض الشديد لغةً واحدة . فكان هو يقول الحمد لله إذ لا تراني ، وتقول هي الحمد لله إذ لا يراني

وباعتها الرجلُ مُنْصَبِّباً عايبها فلو أن ميتاً طالعها من قبره ما كان أروعَ لها منه . قابٌ حيوانيٌّ يسكنُ من أضلاعه الخربة في شقوق ، وظهرٌ كالقوسِ يحملُ من روحه سهماً ليس له إلا المروق ؛ وعروقٌ نائرةٌ كأنها في جلده المتغضنِ خُيوطٌ في خُرُوق . . . ودخل عايبها كما يدخلُ الشتاءُ بكُلُوحِهِ وبرْدِهِ ، على

(١) هي التي تذكره الرجل فمختلعه لتتزوج بغيره وهذه السكامة في

الأصل يراد بها الطلاق ببدل

الروض النضر والبقية الضعيفة من وزده ؛ ونظرت اليه فلم يقع
من نفسها الا موقع الهموم على الهموم ، ولم يكن في عينها الا كما
يكون الحلم في رأس المحموم

وجلس اليها الشيخ يتطفل ويقترح ؛ وكانت لويز تعرف أن
السنة أربعة فصول ، أما سنتها هذه فكانت فصولها بعد اقترح
هذا البغيض خمسة : الربيع والصيف والخريف والشتاء وشهر عسل
الكونت فقد لج الرجل في عناده وأبى إلا أن يكون له
ولها «شهر عسل» ؛ ومما زاده جالجا وعثوا أنه كان يخشى أن
ينسلخ الشهر فقد ذهب نصفه في تجرع «الدواء» ولم يبق
«للعسل» الا ريثما يتمحق القمر ياماً معدودات . ثم انصرف
من لدنها على أن تُرصد للسفر أهبتها وأن ينطلقا على
جناح غراب^(١)

واستقبلت العروس ليلتها وجعلت تقاب وجهها في السماء
وترنو الى النجوم بعينين قد ثبتت في انسانيهما خيال ذلك الرجل كما ثبت
خيال القاتل في عين المقتول ؛^(٢) فلم ترفى هذه النجوم الا هرام الدهر
وتحجر الايام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة^(٣) وكأنما

(١) أى باكراً جداً . (٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت في

انسان عين المقتول حتى يمكن علاجها ونقلها بألة التصوير .

(٣) أى ذاهب الضوء قد مات وانطفأ فلاحظ لها

خَرَجَ عَنِ الْفَلَكَ ، وَضَلَّ فِي ذَلِكَ الْحَلَكِ .

وما هي إلا خطرةُ الفكرِ حتى لاح في مرآة نفسها خيالُ
ذلك الشاب الذي اختَلَبَها أياماً بالهوى ، وكان لها منه الداءُ وكان له
منها الدوا ، وأغواها في عُرفِ الناسِ ولكنه هو ما ضلَّ وما
غوى . وكان هذا الفتى قرّوياً فحسلاً ظريفاً الهيئته مستوى القامة
عريض الصدر تام الخُلُقَة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله
واستحكم نسجه وله مع ذلك خلا به ، وفي لسانه دُعابه ، فما أطلَّ
حديثه وأنداه ، وما أحلى خبره إذا كان من الغزل مُبتداه .

وقد أحبَّ الفتاةُ أكثر مما أحبته ولكنها كانت غريرةً
لا تتيسن منزلة ما بين الحب والاستسلام ، وبين ما يعدُّه الرجلُ
وعدا بالفعل وما يراه وعداً بالكلام ؛ ولم تعرف أن هذا الحب
سلاحٌ ذو حدين فالمرأة تقتل به من ناحية الرجلِ فإن غفلت
مرة عن نفسها قتلت هي به أيضاً من ناحيتها ؛ وأن حب الرجل
حبٌ مجنونٌ بطبيعته فإذا لم يكن حبُّ المرأة عاقلاً انقلب كلاهما
حيواناً طامس القلب ^(١) لا يبالي ما جنى على نفسه ، وإن الرجل
يُقَاد من رغبته ما دامت أملاً في قلبه فهو يمدُّ المرأة ما شاءت
وشاء لها الهوى حتى إذا انقطع هذا الزمامُ انقطع ما بين لفظ الوعد
ومعناه فأخذ منها ما أخذ وترك في يدها ما أعطى ؛ وما عسى أن

يكون قد أعطاهما إلا آمالاً ومواعيدَ وغروراً من زُخرف القول؟
وكذلك أمرُ الرجلِ والمرأة ؛ تحسبُ الفتاةُ إذا هي أُحِبَّتْ
فاستأسرت لصاحبها أنها تبذلُ في مرضاته أعزَّ ما تملكُ
وتنزلُ خيراً ما استؤمِنَتْ عليه وتُعطيهِ مالا تستعيبُ
منه آخرَ الدهرِ، وأن ذلك أحرى أن يؤدَمَ بينهما (١) وأن
يكون ميثاقاً للحب غيرَ منقوض . ويحسبُ الرجلُ أنها لم تُنلِهُ
إلا شيئاً هيناً قريبَ المسألة هو عندها وعند كل امرأة ؛ فان
كان سريّ الخلقِ نبيلَ النفسِ رضى لها مما صارت اليه وندمَ
كما يندم على الإثم ولا يكون همّه إلا أن يلتبس المخرجَ من أمرها،
فان طارحته حديثَ الزواج رأى أن من فرطت له حرية أن
تفرط فيه، وبهتتها بهذه الكلمة (٢) وسلم وقد مات الذي بينهما ؛
وان كان لئيمَ الطبع خسيس النفسِ شدَّ على رقبها واتخذ من ضعفها قوةً
ومن خوفها أمناً حتى إذا ماها تنكَّر لها ثم أنكرها فان
استقضتْ ما وعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوأاته...
فلم تعد تصلحُ له ولا يصلحُ لها . وكلا الرجلين سافلٌ دنيءٌ
زمرُ المروءة (٣) وان قال الناس فيهما سريّ ولئيم .

فالسحابة تنهلُ بمائها، ثم تجتمع مرة أخرى في سماءها ؛
والزهرة تقطف لحسنها، ثم تنبت مرة أخرى في غصنها ؛

(١) المراد المحبة والاتفاق (٢) اتهمها في وجهها (٣) قليل المروءة

ولكن العذراء حين تُفَرِّط في خدورها ، وتضع نفسها دون
 قدرها ، لا تبرح شقية حتى تنزل في قبرها .
 وهكذا لا يزال الرجل في عُتْهِ وظُلُمِهِ كالساحل ، ولا
 تزال المرأة في ضعفها ولينها كاللوجة ، فلو أن ألف موجة عاتية
 يصدم من الساحل لاستباحهن وما سلبنهن مقدار شبر
 من الرمل . وما اعتراك رجل وامرأة في خلق العفة الا
 كانت هي الساقطة وحدها في الاعتبار ، لأن العفة انما عرفت
 بالمرأة من أصل الخلقة وانما يتساوون الرجل تشبهاً وتقاييداً ،
 فان هو زل مرة وقارف الاثم فقد أخطأ في التقليد ولم يفقد
 شيئاً من طبيعته ؛ ولكن المرأة متى فعات ذلك فقدت من نفسها
 وغيّرت في تكوينها وأخطأت في الأصل الذي بُنيت عليه
 طبيعتها وقامت به شرائع الله ومر فيه نظام الأمم ؛ فلا جرم
 كان عقابها على الخطأ عقاباً نفسياً يجمع من شدة الطبيعة الى عنيت
 الشرائع الى قسوة الاجتماع ، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب
 فضيلتها الخبيصة بها (١)

قال « الشيخ علي » : وانطلقت نفس « لويز » لمسمرى خيال
 حبيبها وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مسعدها ومُشقيها

(١) انظر فلسفة هذا الباب في فصل (الرابطة) من كتابنا

« السحاب الالهي » والربيط المراد تنوم مقام الزوجة (mariesse)

فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب إذ لا ترى لها سعاداً غيرَ
 ذكراه ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غيرَ الكونت .
 ولما ذكرته انهمات دموعها فجعلت تبكي حتى انحلت
 سحائبُ همها ثم أشرقت كما تصحو السماء في أعقاب المطر ، فلو
 رآها أشعرُ الناس في ذلك الجالِ المشرقِ الحزينِ الذي تورَّدَ حتى
 التهب ، لوقف عندها وقفة العابد في المحراب يشعر بالقوة الأزلية
 ولا يُحسن أن يصفها . وأى شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء
 الذي رفعه جماؤها الساحر من بين آلام الأرض وألحقه بذلك الألم
 المنفصل من السماء الذي لم تشهده الأرض إلا مرة واحدة يوم
 جاست حواءُ تبكى أولَ بكائها بعد خروجها من الجنة ؟

ويا لله ما أروعَ الجمال حين يتألم ويحزن ويخضر الجميلة
 همها . إنَّ مثلَ من يُحاول أن يصف دموعَ هذه الجميلة
 وحسراتها وصفاً ناطقاً يتنفس به القاب كمثل من يريد أن
 يخاق من سحر البيان زلزلة ترْجُفُ بها الأرض حين يبالغ في
 وصف الزلزلة ، وما اللغة إلا أداة فكيف ويحك تستعمل
 هذه الأداة في صفة قوة تعجز عنها كل وسيلة حتى الشعور
 الذي أبدع اللغة ؟

لقد جمعت المقاييس بين أقطار الأرض ، وطوّت ما بين
 الأرض والسماء ، وداخلت ما بين أنجم السماء بعضها من

بعض ؛ ولكن أية أداة تعين لنا درجة الاحساس بين نفس عاشقة مدتفة تشهد آلام نفس معشوقة ؛ وبين عيني شاعر غزل وثاب الخيال تنظران في عيني امرأة جميلة باكية ؛ وبين ألم جامد جاف يضطرب في نفس الرجل وألم سائل متدفق تضطرب فيه نفس المرأة ؟

إن هذا الألفاظ إنما تشعر بمقدار ما فيها من الاحساس لا بمقدار ما في الحقيقة من مادة الشعور ؛ وكأني من رجل أبلة مستغفل يدور مع الآلام والأوجاع دوران الغبار في العاصفة فإذا رأيته توجعت له وداخلتك الرقة عاياه وثارت نفسك من أجله نورة السخط على هذا الاجتماع الانساني ، وتمر بالرجل ثم تنساه . ولكن هناك طفلة صغيرة قريبة العهد بالغيب ^(١) قد ضلّت بيت أبيها في المدينة المترامية فشت ذليلة ضائعة يتحير الدمع في عينيها ، كما تحير الألفاظ بين شفيتها ؛ وقد ساورها الخوف ، وترثبت نفسها فزعاً لهول ماهي فيه ، وجعات عيناها تنوسلان الى الناس بالبكاء ، ولسانها يتأرجح بألفاظ متعددة كأنما ينفض عاينها قابها الصغير ؛ وهي في ذلك لا تبرح تتمثل أبيها فتضطرب اضطراب الفرخ اذا سقط من وكريه ولم ينهض ؛ وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس فنبكى بكاء

(١) كناية عن صغر سنّها وحدائرها عهدها بالوجود

تَكَادُ تَنْشَقُّ لَهُ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى التَّوَسُّلِ بِعَيْنَيْهَا الدَّامِعَتَيْنِ وَبِأَفْظَاهَا
 . الْمُتَاجِلِجَةِ ؛ (١) فَانْظُرْ وَأَنْتِ أَبُو مَنْهَا مَا عَسَى أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مِنَ
 الْحُسْرَةِ وَيَتَغَشَّاءَكَ مِنَ الْهَمِّ إِذَا رَأَتْ إِلَيْكَ هَذِهِ الطِّفْلَةَ مِنْ وَرَاءِ
 دُمُوعِهَا تَسْأَلُكَ أَنْ تَدُلَّهَا عَلَى بَيْتِ أَبِيهَا الْمَائِلِ فِي رَأْسِهَا الصَّغِيرِ ،
 وَهِيَ تُحَاوِلُ بِذِلَّةٍ وَمُسْكَنَةٍ أَنْ تَقْلَدَهُ إِلَى نَفْسِكَ وَتَبْنِيَّةٍ
 فِيهَا بِالْفَظَاهِ وَأَشَارَاتِهَا الضَّعِيفَةِ لِهَدْيِ أَنْتِ إِلَيْهِ ؟
 فَالْمُصِيبَةُ لَيْسَتْ مُصِيبَةً بِمَادَّتِهَا وَلَكِنْ بِمَا يُفَالِ هَذِهِ الْمَادَّةُ
 مِنْ نَفُوسِنَا ؛ ، وَمَنْ تَمَّ فَهِيَ لَا تُؤْزِرُ فِينَا بِنَفْسِهَا وَلَكِنْ بِالْكِيفِيَّةِ
 الَّتِي نَقَابِلُهَا بِهَا .

« قَالَ السَّيِّخُ عَلِيٌّ : سَمِ سَكَنْتِ « لُوِيْزُ » هُنَيْيَةَ لِدَكْرِي
 أَيَّامِهَا الْأَوَّلَى وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ لَارْ جُعَى لَهَا فَقَدْ اسْتَيْقَنَتْ أَنَّ
 هَذَا الْغِنَى ذَرْبَ نَذَاهَا وَبَنَ الْفَقْرَ حَجَا أَوَاكِنَهُ رَفَعَ نَذَاهَا وَبَنَ
 الشَّقَاءَ حَجَابًا آخَرَ كَانَ ذَلِكَ الْفَقْرُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُهَا مِنْهُ ؛
 وَكَأَنَّ الْقَدَرَ لَمَّا اخْنَطَ لَهَا التَّعَاسَةَ رَسَمَ هَذِهِ الْخُطَّةَ بِقَلَمٍ مِنْ ذَهَبٍ .
 وَاسْتَمَرَّتْ نَفْسُهَا خَادِرَ غَرَابِ أُمِّهَا بِهَا فَأُضْحَكُهَا
 عَلَى مَا بِهَا مِنَ الْهَمِّ ؛ فَقَدْ أَحْضَرَتْ خَالَاتِهَا ذَلِكَ الْحَبِيبَ الْأَوَّلَ
 فِي شِبَابِهِ الْغَضُّ ؛ وَقَوْنَهُ النَّائِرُ ؛ وَفَرَرِيهِ الْعَنْبِقَةُ ، وَنَسَاطُهُ
 (١) أَطْرَى كِتَابِ « السَّحَابِ لَاحِرِ » الْمَصْلُ الَّذِي عَمَّوَاهُ

« الطُّفْلَانِ » وَارَ فِيهِ هُمُوهُ هَذِهِ الْمَعْنَى وَقَدْ بَيَّنَّ طَوَائِفَ ضَلَالَتِهِمَا

المهزوز وأرادته على حب امرأة في أرذل العمر وهو عمر « الكونت »
 يلوح وجهها في العين ، كما تلوح القفار ؛ ويمتد أنفها بين الوجنتين ،
 كأنه جحر في أحجار ؛ ويضحك ثغرها الأذرد^(١) فلا تشك
 أنه في تلك الصحراء « غار » ؛ وقد ثابرت عليها الأوجاع
 والأمرض ، حتى أصبح جسمها بين يدي الموت كالخيط بين
 شقي المقرض .

ثم جمعت ذلك الحبيب يتزوج منها لما لها وغناها وقد أصاب
 عندها ملء أطماعه ذهباً وفضة ؛ ثم وصلت بن شعلة فؤاده
 الملتهب هوّ وشباباً وبين هذا الجسم الفاني الذي يشبهه حطام
 اليبيس^(٢) ؛ ثم أرادته على أن يعتقد أنها « السكرّة » التي وضعت
 في كأس حياته انحأبيها ؛ ثم نظرت ترى ما يكون من أمره
 وأمرها من الحب حين لا يكون الحب الأمراً غمّة وإكراهاً فاذا
 الحائِم قد انهال ، واذا الوهم قد استحال ، واذا الشاب لا يحب
 تلك المرأة ولا في الخيال ...

فجهدت أن تذكر في تاريخ الناس من يكون قد
 اشحن بمل هذه المصيبة وصبر لها كما يصبر من ذات نفسه
 على آفة أو عاهة أو مثانة ، فأبى عايتها الواقع أن يخرج لها
 مثلاً واحداً .

(١) الذي سقطت أسنانه (٢) كالبن ونحوه من يبيس النبات

فكدت ذهنها في تصور هذه الحال وتقاييها على وجوه
 . مختلفة فلم تستقم لها صورةٌ صحيحةٌ، وثبتت عندها أن حب شاب
 قوى في الثلاثين لعجوز هالكة سبعين هلكة (١) ... أمرٌ يكاد
 يكون في استحالة الجمع كطرح السبعين من الثلاثين في حساب العدد .
 وعجبت أن يستأثر الرجل وحده بهذه الألفة ويلتمس
 لنفسه في هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره كأن هذه
 المرأة عجماء لا تبالي من صاحبها إلا العلف ، ولو انتهى بها إلى
 التلف ، وكأن كل امرأة إنما هي اسم ، على جسم ، فليس على الرجل
 إلا أن يختار اسماً ثم يثبتته في وثيقة الزواج بعد أن يساوم
 عليه ، أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لا تباي
 أن تتخذ أعواد فرشها ، من أعواد نعشها ، وأن تقيم لها قبرا في
 البيت ، وتنظر كل صباح في وجه ميت ، وإلا فكم من فتاة
 كالقمر أخفاها نهار المشيب ، وكم من عروسٍ للحب زففت إلى
 غير حبيب ، وكم من وجه صبيح ، يقبله ثغر قبيح ، وكم من
 كعاب ، سال عاينها الأعاب وكم من حسن هو رمز
 الحياة قرّن به الموت رمزه ، وكم من قد أهيف كالألف
 لا يرى إلا شيخاً أعجف كالهَمْز

وهنا انتبهت « لوز » إلى زوجها المتهدم الذي هو همزة

(١) كناية عن بلوغها السبعين .

الْقَطْعُ وَالِى تَصَايِيهِ الْمَضْحَكُ وَحِجَاقَتُهُ الْعَمِيَاءُ وَحِبُّهُ الْأَخْرَقُ ؛
فَانْتَفَضَتْ مِنَ الْغَيْظِ وَكَادَ بَعْضُهَا يَحْتَطِمُ بَعْضًا وَجَعَلَتْ خَوَاطِرُهَا
تَنْبِيضُ فِي رَأْسِهَا كَلَحَ الْبَرْقُ . وَأَخَذَتْ تَلْتَمِسُ الْوَسِيلَةَ لِرَدِّ
هَذَا الْبَلَاءِ عَنْهَا أَوْ مَدَافَعَتِهِ ، يَبْدَأُ أَنَّهَا كَلَّمَا ابْتَدَأَتْ فَكَّرَا
انْتَهَى بِهَا إِلَى قَوْلِهَا : مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعُ ؟

هِيَ لَا تَفْكَرُ إِلَّا فِي مَا يَنْبَغِي أَنْ تَصْنَعَهُ وَلَكِنْ الْفِكْرُ يُفْضِي
بِهَا إِلَى هَذَا السُّؤَالِ بَعِيْنُهُ فَدَا عَنْهَا مِنْ الْهَمِّ وَالْحَسِيرَةِ مَنْعَزَلَةً عَنْ
نَفْسِهَا وَقَدْ تَفَرَّ مِنْهَا فِكْرُهَا وَقَابَلُهَا وَحَظُّهَا جَمِيعًا وَلَمْ يَبْقَ مَعَهَا إِلَّا
رَوْحُهَا الْمَعَذِبَةُ ، وَهِيَ كَذَلِكَ يَبْنِيهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ الْقَدَرِ
وَلَبِثَتْ زَمَنًا لَا تَجِدُ مِنْ رَأْيِهَا إِلَّا قِطْعًا وَأَشْلَاءً حَتَّى لَحَتْ
مِنْ نَافِذَةِ الْقَصْرِ مَرْكَبَةً تَدْرُجُ فِي الطَّرِيقِ وَرَأَتْ سَوَاطِلَ الْحَوَذِيِّ
يَتَنَاقَى الْأَمْرُ مِنْهُ إِلَى الْجَوَادِينَ فَلَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمَا إِلَّا أَنْطَلَقَا مِلَّةَ
الْعَنَانِ كَأَنَّمَا يَحَاوِلَانِ الْهَرَبَ مِنْهُ وَلَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُمَا يَهْرَبَانِ بِهِ ؛ فَرَأَتْ
الْمُسْكِينَةَ لِلْبَهِيْمَتَيْنِ ثُمَّ كَأَنَّمَا حَشَرَتْ لَهَا كُلَّ مَرْكَبَةٍ عَلَى الْأَرْضِ
فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَلَمْ تَذْكُرْ أَنَّهَا رَأَتْ قَطُّ سَائِقًا لَيْسَ فِي يَدِهِ
سَوَاطِلُ مَا دَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَيَوَانٌ

وظَلَّتْ وَاجَةً عِنْدَ هَذَا الْخَاطِرِ هُزْنِيَّةً لِأَنَّهَا مَا بَرَحَتْ
تَتَنَاقَى مِنْ خَرَابَاتِ الْقَدَرِ وَهِيَ تَعْدُو فِي الْحَيَاةِ عَدُوًّا فِيهِ مِنْ
السَّرْعَةِ بِمَقْدَارِ مَا فِي هَذِهِ الْأَذْعَاتِ مِنَ الْأَلَمِ . ثُمَّ قَالَتْ

تري أي حيوان في مسلّاخ (١) هذا الهرم ؟ وما كذبت
أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر فتناولت السوط واستوت
على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها إلا سبيل الحياة وظهر
السكونت

وكذلك فاءت من غضبها الى رضا أقبح من الغضب
ورأت أن هذا الشيخ المأفون الذي يتطاول (٢) للصبي وقد
جاوز السبعين وهلك في الدهر ثم لا يستحي أن يجعلها مثلاً على
أعين الناس وأن يكون لها مخزنية ولا كالمخزيات — جدير به
أن يجد منها كفاء ما وجدت منه وجدير بها أن تبدله من شهر
العسل شهراً هو أحق به وأهلّه وهو على ذلك أقرب الاشياء
من العسل لأنه .. « شهر النحل » ...

« قال الشيخ علي » هكذا يفسد الرجل المرأة وهو يدرى
أو لا يدرى ، فهو يبتغيها متاعاً ويريد لها مآهة ثم لا يقدر فيها
غير الطاعة لما ابتغى وأراد ، كأن الطينة الإلهية التي جُبل منها
الرجل شديداً متماسكاً ، بقيت منها بعد هنة ضعيفة فتركت
حتى ركت وانسحقت ثم خلقت منها المرأة ذليلاً طائعة .. !
وإن أقدر خلق الله ليكون معه الدرهم فاضلاً عن حاجته فلا
يجد ما يمنعه أن يبتاع به الزهرة الناضرة ، ولكن العجيب من

(١) أي جلد (٢) يكاف حتى يستطيع

أمره أنه إذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يذنيها من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلًا قليلًا بل إنه ليستحي لفتنره من طهرها، ولنتننه من عطرها؛ فلا يحملها حتى يتجمل لها، ولا يظهر بها حتى يكون في الجمال أهانها؛ وما أدري كيف أدبته الطبيعة هذا الأدب مع شبه الجمال ولا تؤدب مثل ذلك الهرم الأحمق مع الجمال نفسه؟

ويعتمد الرجل متى أصاب مالا إلى الطيبات من صنوف الطعام ولذات الشراب فيستضع ويتملا وليس في ذلك من حرج إذ هو ماله ينمو في باطنه، فان ربح أو خسر فانما « المضاربة » في معبدته... ثم يعتمد أقبح خاق الله وجهًا وأظلم سنّة وأشأمهم طاعة، بذلك المال نفسه إلى أجل النساء فيرخي عليها أستار بيته^(١) ويساهمها قبحه وجمالها، وانما هي في رأيه بعض الطيبات وحذف شهية من طعام القلب، فتري في أي جهة ينمو هذا المال الذي بذله وتسدّى به فاني لا أرى له نموًا في قابه ولا في قاب تلك الحسناء؟

أما هو فما إن يزأ بعرف منها البغض، وأما هي فما إن تزال ترى فيه القبح؛ وأحسب لو أنفقت ما في خزائن الأرض كلها على التأليف بين الحسن المبعوض وبين القبح المحب ما ألّفت ذات

(١) كناية عن البناء بها أو احتفاظها

بينها ولا زدت كل واحد إلا من طبعه ^(١) وكيف يرى هذا
الدميم أن امرأة يئته التي اشتراها وبذل فيها واختارها على عينه
لا تظهره أبداً إلا دميماً وهو كلما بالغ في روتها وصقلها بالغت
هي في إظهار قبحة ودمايته ، ثم يريد أن لا تراها امرأة الحسناء
الفاتنة إلا جيلاً فاتناً ولا تكلمة إلا في الحب ولا تقبله إلا قبلته
الهوى ؛ كأنه هو الذي خلق لها عينين ولساناً وشفقتين . . ؟

ولعمرو الله لو أن في أضلاع هذه المرأة قلب رجل من
صيارفة اليهود قد جثم على منسكب الطريق وسرح الذمة
والدين ، والظن واليقين ، وجنود إبليس أجمعين ؛ في طلب الدرهم
يأكله سحبتاً ، وينحته من أيدي الفقراء نحبتاً ، لما رآته على
ذلك المال وذلك القبح إلا كاخترقة فيها دينار ؟ فهي لم تخرجها
قيمة الذهب الغالية ، عن كونها في اليد والعين خرقة بالية .

أريد الرجل لسعادته امرأةً لأنفُسَ لها ولا قاب ؟ لعله
يحاول ذلك ولكن كيف تسعده إذن ؟ إني رأيت في معاشره
الحزين للحزين شيئاً من الفرح يتنفس به الحزن على الحزن ،

(١) تشد الطبيعة في هذا المعنى أحياناً فيكون من بين النساء من
لا تعشق إلا المبيع الدلفه ثم لا تهواه إلا لتبجحه ؛ وذلك واقع ولكنه نادر
وله تعليل لا محل له في هذا الموضع

فليت شعري أي مهنياً^(١) أكثر لذة وأحسن إمتاء آمن معاشرة
اثنين كلاهما يهنئ الآخر ؟

أيها الهرم الأحمق الذي يستبد بالجميلة الفاتنة ، إنك تعبث
بذنب السفينة فإذا انحرفت هنا وهنا زعمت أنها تضل الطريق
لسوء تركيبها إلا فاعلم ويحك أنك لا تصاح أن تكون
ربان هذه السفينة ؛ وإذا كنت تستطيع أن ترفع شراعاً أو تحرك
جندافاً فما أنت وهذه الباخرة ؟ ماذا تصنع ويلاك في آلات
هذا القاب الذي صنعه يد الله ليخوض لجج الحب في بحر
الشباب إلى ساحل السعادة ؛ وليس بينه وبين الهلاك إلا أن
يرتطم في ذلك البحر بصخرة الموت التي لا تكون أكثر ما تكون
إلا من رأس رجل هرم .

عسيبت تقول إنك غني مملئ الأمل الواسع وإن هذه
الحسنة ستفضي من طريق مالِك إلى طريق حبك لأن المال
زعمت أوسع طرق الحياة وأدواؤها وفيه مَنزلة إلى كل طريق
شئت أو شاء الهوى ، فاعمري إن هذا المال تزعم ولكن
لا يذهبن عنك أنك لا تعرف إلا فاتحة الطريق إلى هذه

(١) هو ما يعبر عنه الناس بلفظ الهناء وما يرد الهناء في منقول اللغة

بذل المعنى الذي يسعمل فيه ولكن المولدين أجروده في أدبهم وفشت الكلمة

بذنبهم في الزام والدثر

الحسناء وان خُطِطَ الآمال ليست من « شوارع التنظيم »
أو الطرق السلطانية التي يُفَضِّلُ كلُّ منها إلى جهة بعينها أوجهاتٍ
لا يخطئها من انطلق بسبيلها ؛ فقد تبدأ تلك الحسناء من طريق
هذا الغنى الذي تفتح له أتم لا تلبث أن تنعطف إلى مذهب من
مذاهب قلبها ثم تأخذ من هناك في ناحية من نواحي مصائبك لأن
سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية ؛ ثم تفضي من كل ذلك إلى
طريق من الحياة إذا هي أبصرتك فيها رأيتك وليس من ورائك نابض
مذهب ورأت وجهك ثمّة كأنه صفيحة مما تُكْتَسَبُ عليه
أسماء الطرق ، وقد كتب عليها « شارع المقبرة »

أنت أيها الأحمق استنقذت هذه الحسناء من الفقر ثم
جعلت تباعد ما بينك وبينها ، فأخذتها خادمة وجعلتها سيّدة
وبصّرتها بما كانت تجهل من فنون الجمال وأساليب الهوى ، ثم
جعلت غاية كل ذلك إمتاع جسمك الفاني ولذة قابلك الخرب ،
فنسيت نفسك باديء الرأي ولم تذكر إلا الفتاة فاتخذتك
صديقاً ، ثم نسيت الفتاة آخراً ولم تذكر إلا نفسك فاتخذتك
عدواً . فلو لا تركتها على جهلها وغرارتها مادام العلم بالحب

لا يكشفُ منك للحب إلا عن خرافة ؟ ..

ويا عجباً من غرام الشيوخ بالفتيات : فإن أكثر من أنت
واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكبروذ كحوادث

حبه رأى فيها ما يسميه جهلاً وما يسميه حماقة وما يسميه غفلة وما يسميه خطيئة ؛ كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرمة إذ ينزع منها أوهام الشباب وغروره فلا تظهر من ثم الاحقائق ^{مخلصنة} فما عسى أن يرى الشيوخ فيما يسمونه غراما . بل ما عسى أن يرى الحب في هؤلاء الشيوخ « المتطفلين » ^(١) الا ما يسمي حماقة وجهلا وغفلة وخطيئة ؟

يحب الفتى الناشء حباً طاهراً يستو جف قلبه ^(٢) فيقول
أكثر الناس : أحب قبل زمن الحب . ويعشق الرجل
الهرم عشقاً فاسداً يستو قد ضلوعه فلا يرضى أن يقول مرة
واحدة ولا أن يقول عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب ، مع أن
الفتى رجل ^{يبتنى} والهرم رجل ^{يهدم} .
ولو لم يضرب الله على بصره لعلم مما تشرع الطبيعة أن
أحق الناس بالخيبة رجلان : رجل ^{ووجد} قبل زمنه فلا يحسن
أن ينفع أو ينتفع ؛ ورجل آتى بعد زمنه فلا يحسن أن ينتفع
أو ينفع .

متى كان الرجل ^{حقوقا فقط} وكانت المرأة واجبات لا غير ،
فقد خلا الرجل من العقل وخأت المرأة من القلب وخلا الاثنان
من هذا المعنى الروحي الذي يسمى الحب . فان لم يستطع ذلك

(١) من التطفل أو تكاف الطفولة (٢) يذهب به

العاشقُ المَهرِمُ أن يَستردَّ لِنَفْسِهِ الصَّبِيَّ الذَاهِبَ حَتَّى تَحِبَّهُ تِلْكَ
الْحُسْنَاءُ طَائِعَةً ، فَلْيَسْتَرجِعْ لِتَارِيخِ الْأَرْضِ وَحَشِيَّتِهِ الْأُولَى حَتَّى
تَلُوذَ بِهِ تِلْكَ الْمَرْأَةُ كَارِهَةً .

وَيَلُحُّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ فَلَوْلَا هَذِهِ الْحِمَاةُ فِيهِ لَمَا وَجَدَ
عَلَى الْأَرْضِ خَطَأً ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ حِينَ يَخْطِئُ ، فَإِنَّمَا يَرِيدُ حَقِيقَةً مِنْ
الْحَقَائِقِ غَيْرَ أَنَّهُ يَجْعَلُ مَرَكَزَهَا فِي رَأْسِهِ وَلَا يَعْتَبِرُهَا إِلَّا مِنْ
هُنَاكَ مَعَ أَنَّ مَرَكَزَهَا فِي الْعَالَمِ .

✽ شهر النحل ✽

قال « الشيخ علي » : كُلِّ خَطْبٍ عَظِيمٍ مَدَّةٌ هَانُ بَعْدَهَا
إِلَّا خَطْبَ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهُ مَتَى عَظِمَ لَا يَزَالُ يَعْظُمُ ؛ وَمَا رَأَيْتُ فِي
أَصْنَافِ الْبَلَاءِ كَالْمَرْأَةِ السَّالِيطَةِ إِذَا هِيَ اسْتَكَلَمَتِ^(١) فَكَأَنَّمَا
جَعَلَ الدَّهْرُ الْجَائِرُ أَيَّامَهَا خَطَأً مِنْ خُطُوطِ مَدَارِهِ ، وَاتَّخَذَ مِنْ
دَارِ زَوْجِهَا مَسْتَحْفًا ثُمَّ أَوْدَعَهُ تِلْكَ الْمَجْمُوعَةَ مِنْ آثَارِهِ .. وَيَارْحِمَةَ
لِهَذَا الزَّوْجِ فَهُوَ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ خَرَجَ خَزَانًا يَتَنَقَّبُ ،
وَكُلَّمَا انْقَلَبَ إِلَيْهِ انْقَلَبَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ؛ وَلَا تَزَالُ تَعْرِفُ فِي عَيْنِهِ
نَظْرَةَ مَغْلُوبَةٍ وَأُخْرَى مَسْلُوبَةٍ ، وَفِي قَلْبِهِ مَصِيبَةٌ مُسْتَقْرَّةٌ وَثَانِيَةٌ
مُجَاوِبَةٌ ، وَتَرَى عَلَى وَجْهِهِ سِمَةً اسْتَخْذَاءً^(٢) كَأَنَّهَا مَسْحُوحَةٌ .

(١) يُقَالُ اسْتَكَلَمَتِ الْمَرْأَةُ وَاسْتَسَعَلَتْ إِذَا اشْبَهَتْ الْكَلَابَ وَالسَّعَالَى

وَالْمُرَادُ الْمَذَاءَةُ وَالشَّرُّ وَسُلَاطَةُ الْإِنْسَانِ (٢) هُوَ الذَّلُّ وَالْخُضُوعُ

استهراء ؛ ولروحه ظلاً على قمه ، كانه ظل النخوة الهاربة من دمه ؛ ولا يزال مع امرأته المكابرة ؛ كأنها ذنبه وكانه ندامة ، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرة ، فكانه من خوفها في موت ومن لسانها في « قيامة » . . .

وما في خلق الله أعظم من المرأة فهي طبيعة وحدها غير أنها الطبيعة الدقيقة الحسنة ، وليس يدرك الرجل حقيقة نفسه قبل أن يخلطها بنفسه . فاذا رأيتها خاملة مغمورة ، أو ساقطة مزجورة ، أو ميتة في الأحياء مقبورة ، فلا ترين أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لاحتساسها ؛ وقد وفر الله عليها من القوة ما شاء ولكنه غمز منها موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وتري هي نفسها كأن لا قوة فيها ؛ وهذا سر من نظام الطبيعة فان أشجع الناس الذي لا يخاف شيئاً يخاف أشياء كثيرة من نفسه . فلولا أثر يد الله في إضعافها ما قامت للرجل معها قائمة .

وهذا الموضع الذي أسأسها ضعيفة مستخذية إنما هو جهلها بتعريف احساسها ، فليست القوة إلا شيئاً طبيعياً في هذا الوجود كائنة ما كانت ، وإنما الشأن كله في العلم بطريقة استعمالها ، وما من رجل يداري المرأة نوعاً من المداراة فترضى عنه وجهاً من الرضا ، إلا رآها في يده أضعف .

ما خلق الله هيئته ليئنة سمحة مطمئنة إن كانت دون الملائكة
فهي فوق الناس ؛ إذ هو إنما يستولي على إحساسها فيأمن أن
تصرفه في غير مرضاته ومحبته ، ومن ثم تصبح كأنها صورة
من ارادته وكأن في نفسها نفسه .

فإن جهل الرجل كيف يدرأيها واتقطعت الأسباب
المختلفة بينه وبين رضاها ولم يكن أهلاً منها لما هي أهله منه ،
استوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه فابتلي منها
بفتنة ما تهدياً وقدتها ؛ فما السابح في البحر إذا أراد أن يقيد
الموجة العاتية بالحبال ، ولا المصروع إذا حاول أن يدفع يده
مأفرعه من جن الخيال ؛ ولا الطفل يبتغي أن يمسك القمر في
الماء ، ولا المجنون يتناول فيقتلع النجم من السماء ؛ بأقدر ممن
تبغضه المرأة إذا زعم القدرة على إرغامها ، وتصريف زمايها ؛
ومن تمضغه المرأة إذا زعم القدرة على إسكاتها ، والسلامة من
بركاتها ... ، ومن تحقره المرأة إذا زعم القدرة على ردّها ،
وارجاعها دون حدّها ؛ ومن تصول عليه المرأة إذا ادعى القدرة
على إسقاطها ، والقوة على التقاطها .

فليس يعجز الرجل في سلاطة المرأة إذا هي سلطت
عليه ما يكون من حدة جنانها ، وشدة عنانها ، وشرّة لسانها ؛
فكل هذه وأمثال هذه إنما هي ضروب مما تحاول من إظهار

عَظَمَتِهَا الطَّبِيعِيَّةُ الْمَغْلُوبَةُ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَلَّمَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ السَّيِّطَةُ الْغَالِبَةُ إِذْ هِيَ نَفْسٌ مُنْفَجِرَةٌ .

وَلَقَدْ يَعْجِزُ الْإِنْسَانُ أحيانًا كَثِيرَةً أَنْ يَكُونَ نَفْسَهُ إِذْ لَا تَنْقَادُ لَهُ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَغْلِبُ بِهَا عَلَى الْحَوَادِثِ أَوْ يَجَارِيهَا أَوْ يُذَيِّبُهَا لَهَا الْحَذَرُ وَمِنْ ثَمَّ يُنْكِرُ نَفْسَهُ كَأَنَّهَا غَيْرُ الَّتِي يَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنْ الْمَرْأَةُ مَتَى ثَارَتْ لَا تَعْجِزُ أَبَدًا أَنْ تَكُونَ نَفْسَهَا وَمَا نَفْسُهَا إِلَّا أَعْظَمُ مَا فِي الْخَلِيقَةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

قَالَ « الشَّيْخُ عَلِيٌّ » : كَذَلِكَ صَارَتْ « لُويز » مَعَ زَوْجِهَا وَانْحَاذَتْ إِلَيْهَا طَبِيعَتُهُ الْغَالِبَةُ فَكَانَتْ قَوِيَّةً بِهِ وَبِنَفْسِهَا وَكَانَ ضَعِيفًا بِهَا وَبِنَفْسِهِ .
أَلَا وَإِنْ أَخْلَقَ الْمَرْءُ أَنْمَا هِيَ أَعْصَابُ أَعْمَالِهِ فَانْظُرْ وَيْحَكَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ فِي الْبَغْضِ أَشَدُّ مِنْ أَعْمَالِ امْرَأَةٍ أَبْغَضْتَ بِعَقْلِهَا وَبِقَلْبِهَا ، وَلِحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، وَصَارَتْ حَيَاتُهَا كُلُّهَا مِنَ الشَّرِّ وَالسُّوءِ كَأَنَّهَا لَعْنَةٌ يُصِيبُهَا اللَّهُ عَلَى رَأْسِ هَذَا الْمَهْرَمِ ؟

وَكَذَلِكَ إِنْ دَخَلَ فِي إِرَادَتِهَا كَمَا يَنْدَجُّ الشَّعَابُ فِي فُرُوتِهِ الْجَمِيلَةِ النَّاعِمَةِ . تَرْمِيهِ بِالنَّظَرَةِ حِينَ يَتَكَلَّمُ فَتَقِفُ الْكَلِمَةُ بَيْنَ حَلْقِهِ وَالْوَرِيدِ ، وَبِحَيْثُهَا وَقَدْ أَجْمَعَ النِّيَّةَ أَنْ يَأْمُرَهَا فَلَا تَأْخُذُهُ عَيْنُهَا حَتَّى يَسْأَلَهَا مَا تَأْمُرُهُ ؟ وَيَجْهَدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ زَوْجُهَا ثُمَّ يَنْقَلِبُ وَهُوَ يَتَمَنَّى لَوْ تَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ ... وَيُوسِّعُ قَلْبَهُ عَزْمًا أَنْ يَفْعَلَ وَيَفْعَلَ ، ثُمَّ يَرَاهَا فَيَخْشَى أَنْ تَكُونَ اطَّلَعَتْ عَلَى أَنَّ فِي قَلْبِهِ شَيْئًا مِنَ الْعَزْمِ ؟

. وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه ذلك الوجه الذي جعله الحب أقبح ما عرف من دائه، وأشد ما خاف من أعدائه ، وما أفضى إليها مرة وهو يحملُه ... إلا عرف أنه من ذنبه في حبها وأنه من عذرها في بغضه ، فيطرق إطراقة يتكلفها ويحسبها تشفع له عندها لأن فيها ذل الشئبة ، وألم الخيبة ، وشدة الهيبية ؛ ولكن وجهه يظهر وقتئذ مظهرًا ليس في معنى السماجة أسمى منه إذ يكون كالص الذي لا ينكر على مَسَلٍّ من الناس أنه سارق وهو مع ذلك يحرص على أن لا يؤخذ منه ما تجشم في سرقة . وقد عرفت المرأة أنها لا تغمر منه إلا مكاسر عظمه الواهن ولا تطأ منه إلا كل مفصل مرضوض ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه إذ حنَّها ما ليس في طاقته ، وظالم لها إذ أرادها على ما ليس في طاقتها ؛ فهو ظالم أشبه بمظلوم . وما مثله في حبها إلا كمثل الفراشة لا ترجع دون المصباح إلا أن تخاط نارَه فما تحتال من حيلة إلا أحسَّت منها حتفها وتلفها ؛ غير أنها لا تزال تنزع من ذلك إلى ما ينبغي أن تنزع عنه ، وكلماتها فتت انحص جناحها من ناحية ؛ ومع هذا كله لا تسكن مادامت فيها حركة تنبعث .

وما من شيء إلا وقد جعل الله فيه النفع والضرر ؛ فمن

التمسه على حالةٍ منهما لم تُؤدِّه إلى الأخرى، وما تُغني الأنسانَ معرفةُ الأشياءِ على حقائقها إلا إذا عرف مع ذلك فروقَ ما بينها وتبيَّن الحدودَ الفاصلةَ بين الشيء والشيء الآخر وبين الحالة والحالة في الشيء الواحد؛ فقد يكون الإفراطُ من الدواء داءً مع الداء؛ وقد يجتمعُ من طعامين بلاءٌ لا يكون من جوع يومين. والمرأة هي هي في حاجة الرجل إليها ولكن كل امرأة تكاد تكون جنساً بعينه في حاجتها إلى الرجل فمن ههنا أُحبت وأبغضت. ولو أن هذه المرأة مما تدرت الأرض وتسقي السماء لقد كانت تصدح مع كل رجل كما تصاح لكل رجل؛ ولكن لها قلباً؛ وحيساً مع هذا القلب؛ ونفساً مع هذا الحس؛ ورقّة مع هذه النفس، فهي إن لم تحب الرجل من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبتَه ذلك الحبُّ الروحي العجيب الذي يوصف بأنه حبُّ المرأة^(١)

قال «الشيخ علي» وقد رأيت «لويز» أن زوجها خرب من كل جهاته، وأكبر ما فيه أنه كالأرض الفضاء إذا ضرب عليها سورٌ وجعل في هذا السور بابٌ ووضع على هذا الباب قفلاً... فغناه العريض ولا مأله الكثير ولا اسمه في أهل الغنى إلا كتلك

(١) نحسب أننا استوفينا كثيراً من معاني الحب وأوصافه الجميلة في كتاب

«رسائل الأحرار في فلسفة الجمال والحب» وصنوه «السحاب الأحمر»

الحدود المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء .
 وكانت ترتفعُ لذلك وتترقُّ لخضوعه وتودُّ لو استطاعت أن
 تراه غير من هو فتعرفه غير ماعرفته وتجزيه غير ما جزته
 ولكنه لم يكن يحيئها أبداً إلا بادی المقتل ولا يريد مع ضعفه
 أن يعدل عن محزها ؛ وما أماتت من نفسه نزعاً إلا انبعثت
 فيها نزعاً أخرى كأنه رأى في غضبها جالاً لم يره في رضاها ،
 وأحس من سورة شبابها وفورة غيظها ما يعالج منه خود الهرم
 وبرد الموت في عظامه ؛ فاعتاد منها ما تجزیه ، واعتادت منه
 ما يخزیه ؛ ومرراً على ذلك دهرًا مات فيه الوفاء ، ومرض الحياء ؛
 فاذا تارخ هذه المرأة كلُّه لعنات ، واذا عرض ذلك الرجل كلُّه
 طعنات وأصبحت ملكة عليه وأصبح معها كما قال ذلك
 الحكيم : من أراد مصاحبة الملوك فليدخل كالأعمى
 وليخرج كالأخرس !

— ❧ وبعد ❧ —

فإن آلام النزع وإن لم تكن هي الموت ولكنها أشدُّ
 منه حتى إن الموت ليكون راحةً منها ؛ وقد مدَّ الله في نزع
 (الكونت) مدًّا طويلاً فكان يقظان العين نائم الروح وكأنه
 مقبور في جلده ، وكانت زوجته لاتألوه مونا فائس يراه أحد

الا ظن أنه لما به ^(١) ولكنه لا يموت لأن أيامه كانت بعض ما كتب في الأزل من تاريخ هذه البائسة ؛ وقد حمله الله على الأمل والأمل مطيئة دائبة لا تكل ولا تنقطع ولو ذهبت تنقطع مسافة ما بين الضدين لتجمع أحدهما بالآخر ، فما يزال يحسب أن لزوجته فيئة بعد شرقة الصبي ، وأن تقادُمه في الهرم وتقدمها اليه سيصالحان ما أفسد الدهر منهما جميعاً ؛ وليس في الناس أحق ممن يدفع نفسه الى ما يظن في حين دفعه نفسه الى ما يستيقن .

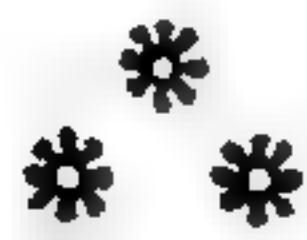
أما هي فرأت أن لا سبيل الى انهزامها أو تراجمها بعد ما أنزلت أخلاقها الى المعركة كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقع في هذه المعركة هالكة وليس ينفعها أن تخرج منها حية ؛ وكل شئ تستدرك منه الحيلة إلا ما أفادت المرأة من شرفها النسائي فانه ان فرط منه فارط لم يستدرك . فبسطت عنانها في يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة .

وقطع الفلك في دورته عشرين سنوات حتى تفرى الليل عن صبح لم يشهده ^(٢) فترك لامراته ما جمع وترك فيها ذلك الموت الحي وتركها في تلك الحياة شجرة

(١) أى في الموت كأن مابه لا بد آخذه

(٢) كناية عن موته

مرّداء (١) ؛ غير أن اللذات لم تُبقي عليها بعده فقد لا تقتل
الآلام إذا أسرفت على النفس ولكن اللذات لا بد قاتلة ؛ وكان
الطبيعة فرّضت على الانسان أن لا يلدّ بالعيش الا حيث تكون لذته
اختلاسا فأنما ركب على أن يشدّه ما يؤلمه ، ويبسّس منه
ما يحسب أنه يهدمه ، فان هو حمل نفسه على لذتها وأطلق لها
ما بين هواه ورأيه فقد أراد لبسّيته الضعيفة وضعاً ليس في هندسة
الحياة فلا تترك فيه اللذات الا أمراضا ولا تحمل منه الأرض
الا اتقاضا . ولو لم تكن هذه اللذة المُسْرِفة سبباً
الى الموت لما ركب في غريزة الانسان كره الموت من حب
الاستمتاع بها والحياة في « عمليتها الجراحية » المؤلمة لا تمحز إلا
بأساحة الآلام الحادة واللذات الحادة .



وبيع ذلك القصر وما ضمّه ، وكان فيما يحويه بعض رفوف
من الكتب يباهي الأغنياء بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها
رسم ليس في الحائط فاشتراها أديب تأدى اليه خبر
الكونت وامرأته فانه ليقرأ منها ذات يوم في كتاب يصف
البأساء والضراء من هموم الحياة إذ ندرت ورقة كانت بين

صُحُفِهِ ، فَالْتَقَطَهَا فَاذَا فِيهَا رُوحَانِ تَعْتَلِجَانِ (١) بَيْنَ هَذَيْنِ
الْطَرَيْنِ :

الْفَقْرُ خُلُوٌّ مِنَ الْمَالِ ؛ وَلَكِنْ أَقْبَحُ الْفَقْرِ الْخُلُوٌّ مِنَ الْعَافِيَةِ .

«فِيكَتُور»

وَالْغِنَى أَنْ تَمْلِكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ أَحْسَنُ الْغِنَى أَنْ تَهْنَأَ فِي الدُّنْيَا .

«لُويْز»



الفصل الثامن

الحظ

« قال الشيخ علي : وإن في نفسى أشياء من كلمة بين الكلام قد ضل بها الناس ضلالاً بعيداً ؛ لا أعرف كيف استُحْدِرْتُ ولا من أين انصَبَّت على الدنيا وقد خرج الناس من أن يهتدوا فيها الى حقيقة مُخْلِصَةٍ إذ لم تُوضَّع في لغاتهم موضع شرح وإبانة ولكن موضع غموض وإيهام .

ويا عجيباً للانسان كيف اهتدى الى التعبير عن المعاني الالهية التي يكون المعنى الواحد منها تاريخاً طويلاً لقَدَرٍ من الأقدار المستكنة في غيب الله من لدن يُقَضَى الى يوم يقَع ، وكيف تُلْقَى في نفس هذا الانسان معاني الغيب فيردُّها ألفاظاً يحمل منها السماء بأفلاكها على بضعة أحرف (١)

على أن أعجب ما فيه أن يُعبَّرَ عما تناله قوَّتُهُ بألفاظ صريحة خالصة لا لبس فيها ولا اختلاط ، فاذا انتهى الى ما لضعف عنده أو يعجزُ دونه أشار اليه بحروف مُبْهِمَةٍ لا يكون لها في نفسه من الدلالة الغامضة أكثر مما يدلُّ المجهول على أنه مجهول .
فالانسان متى أُحسَّ القوة رأيتَه كأنما يحاول أن يُسمع السماء

(١) كلمة « حظ » مثلاً فهي ثلاثة أحرف وتحمل الغيب

بطنين ألفاظه المكشوفة عن معانيها أنه موجودٌ على الأرض ،
 ويحاول أن يُظهر للأرض بصراحة هذه الألفاظ أن له إرادةً
 تعمل مع الأقدار في تسخير الطبيعة . ولكنه عند العجز والضعف
 وعندما يتخيل صفات من القوة الأزلية ولا يُحسّها ، تراه يرسلُ
 الكلمة الخفيفة التي تشير إلى كبريائه بشيء من الصراحة اللغوية
 المحدودة وإلى ضعفه وعجزه بإبهامها المطلّق ، فما إن تزال في هذا
 الوجود اللغوي خالية من المعنى على وجه التعيين والنص حتى يقع
 بها قدر من الأقدار فيكون هو معناها (١)

وضعفُ الانسان لا حدّ له فلا حدّ لما يستعمل من الكلام
 المبهم الذي يحملُ ما شئت أن يحمل ، ولو لا ذلك لما صحّ أن
 تكون الفصاحة نفسها وسيلةً من وسائل التعمية في محاوره
 الخصوم .

قال « الشيخ علي » : أما الكلمة التي أشرت إليها فهي لشمول
 معناها الطبيعي وإبهامه كأنها لغة للنفس الانسانية أين وجدت
 ولكن ليس الانسان أن يُفسرها بل هو يتعلّل بها ويتعلّقُ
 عليها ويعلم أنها كذا خلقت ، لأنّه إن قدر معناها قدره على
 قياس لا يبرح بطوى هو من طرفه ليعرف ماذا يبلغ وماهي

(١) حين ينصح الانسان يقول فعلت وفعلت ولكنه حين يخيب

يقول « الفدر » ويسكت

مسافته ، ويَعُدُّ القَدَرُ من طرفه الآخري فسد عليه ما عرف .
فهي كلمة يستوي عندها خطأ الانسان وصوابه ولهذا يراها
واقعة في موضعها وفي غير موضعها ولا معنى لها عند هذا الانسان
الا أنها اتجهت حركة القدر ، وهي « الحظ » .

الحظ يابى كلمة غامضة غموض النفس الانسانية يتعزى
بها أهل الارض جميعاً ويظهرون فيها ايمانهم الفطري الذي لا بد
منه للقلب ، فما دام هذا الكون على تركيبه العجيب ، وما دام
هذا التركيب على غموضه المعجز بحيث لا يمكن أن يُعرف بجملته ،
وما دام في هذا الإعجاز موضع حيرة للعقل ، فلا بد في اللغات من
ألفاظ تصور كل ذلك وتصفه على تلك الوجوه العجيبة بحيث تكون
اللفظة إقراراً من الانسان وان جحد وصورة لا يمانه وان كفر .
وهذه الكلمات من أوضاع الإلهام فلا تخلو منها لغة من
اللغات وهي بعد في تفاوتها وظهورها كدرجات الايمان من
أدناها الى أعلاها ، فمن لم يؤمن بالله وجد في لغته لفظاً للقدر
وهو الايمان بعمل الله ، فإن كفر بالقدر اعترضته نفسه بكلمة
الأمَل وهو الايمان برحمة الله ، فإن جحد هذه اعترضته طبيعته
الانسانية بكلمة الحظ وهو الايمان بقدرته الله . ولا أحسب أن
في الأرض رجلاً يكفر بهذه الأربعة جميعاً .

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من ايمان وكان الكافر

كأنه إنما يؤمن من أضعف موضع في الكون (١) ، وما أشبه الإيمان بجبل راسخ يحمل الناس كافة غير أن المؤمن يصعد مرتقياً من جهة والكافر ينزل منحدرآ من الجهة الأخرى .

والعجيب أن كلمة « الحظ » نفسها يضعف معناها ويقوى بعكس ما يكون في الإنسان من قوة الإيمان وضعفه . فالرجل المؤمن القوي في إيمانه بالله قائماً يفهم من هذه الكلمة إلا أضعف ما تريد النفس منها ، فهي تبعثه على تذكر قضاء الله والاستكانة أقصد ربه والتعزى عما فات بما لا يزال في الغيب ، ولكسبك واجد ضعفاء الإيمان لا يفهمون منها إلا القوة المسخرة لحوادث الدنيا ولا يريدون بها إلا تسخير هذه القوة في منافعهم ؛ ومن ثم تهيج الكلمة في أنفسهم من معاني السخط والارتماض أكثر مما تبعث في نفوس المؤمنين من معاني التسليم والاستكانة ؛ وهذا عجيب من طباع الناس لولا السبب الذي كشفته لك وما أراك تحسن معرفة هذا السبب ما لم تعرف حقيقة ما أريد بكلمة (الإيمان) ، فاستأربد بها ذلك المعنى الذي يتعاون على تمثيله البناء والشجار والحداد وغيرهم من أهل الصناعات حين يشيّدون المساجد والبسيع والصوامع ونحوها من أمكنة العبادة ، فإن هي إلا بعض مظاهر الدين الاجتماعية لا غير ولا يمكن

(١) أو هو اليقين على طريقه كما مر في الفصل الأول

أَنْ يُخَصِّرَ الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِي بَيْنَ حَائِطَيْنِ .
 وإنما الإِيْمَانُ هو ذاك المعنى الذى يُلْقَى عَلَى رُوحِكَ السَّكِينَةَ
 لِأَنَّهَا مُتَصِلَةٌ بِاللَّهِ ، وَفِي ضَمِيرِكَ الْمَحَبَّةُ لِأَنَّهُ مُتَصِلٌ بِالنَّاسِ ؛ وَهُوَ
 ذاك المعنى الذى يُعَلِّمُكَ مَا أَنْتَ مِنْ حَوْلِكَ وَمَا حَيَاةُ تِلْكَ مَمَاورِئِهَا ؛
 وَهُوَ ذاك الاعتقادُ الْكَبِيرُ الذى تَصْغُرُ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ بِمَا فِيهَا مِنْ
 الْخَيْرِ وَالسَّرِّ وَتَهْوَنُ بِمَا فِيهَا مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ ، لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى الْفِكْرِ
 الذى هو بَقِيَّةُ مَا نَفَخَ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ فِي الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ ^(١) فَلَا
 يَضْعَفُ أَبَدًا مَا دَامَ فِي الْكُونِ قُوَّةٌ ، وَلَا يَفْتَقِرُ أَبَدًا مَا دَامَتِ
 الطَّبِيعَةُ غَنِيَّةً بِجَمَالِهَا ، وَلَا يَسْقُطُ أَبَدًا مَا دَامَتِ السَّمَاءُ فَائِمَةً ، وَلَا يَمُوتُ
 أَبَدًا مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ بَاقِيَةً ؛ وَمَتَى خَضَعْتَ لَهُ اسْتَحَالَ عَلَيْكَ أَنْ
 تَذَلَّ لِصِغَائِرِ الْحَيَاةِ لِأَنَّهُ هُوَ لَا يَذَلُّ ؛ وَمِنْ مَظَاهِرِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ
 الَّتِي تَكُونُ فِي الْإِبْطَالِ فَيَسْتَهِينُونَ بِالْحَيَاةِ إِذْ هُمْ أَهْلُ الْمَوْتِ ؛ وَفِي
 الْعِظَاءِ فَيَتَنَزَّهُونَ عَنِ الدُّنْيَا إِذْ هُمْ أَهْلُ الْإِخْلَاقِ ؛ وَفِي الْحُكَمَاءِ
 فَيَزْهَدُونَ فِي حُطَامِ الدُّنْيَا إِذْ هُمْ أَهْلُ النُّفُوسِ .
 وَمَنْ سَمَّ كَانَ الْإِيْمَانُ الصَّحِيحُ حُرِيَّةً صَحِيحَةً لِأَنَّهُ يَعِصِمُ
 مِنْ ضُرُوبِ الذَّلِّ كُلِّهَا ؛ وَكَانَ مَنفَعَةً خَالِصَةً لِأَنَّهُ الْحَدُّ الْقَائِمُ بَيْنَ النَّفْسِ
 وَشَهَوَاتِهَا ؛ وَكَانَ عِزًّا نَافِعًا لِأَنَّهُ الْعَقْلُ السَّمَاوِيُّ الذى يُلْهِمُ

(١) يشير إلى قوله تعالى في خلق آدم عليه السلام « فاداسوите

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »

الانسان حكمة كل مصيبة أو يلهيه الثقة بالحكمة التي يجملها؛
ولو أن للفضيلة عبادة لكان لها من أخلاق كل رجل صحيح الإيمان
مسجدٌ تعبد الله فيه .

ولا يصح إيمان المرء حتى يتبين لنفسه طريقا إلى ربه فيرى
كأن قطعة من السماء في باطنه تُضيء له الحياة ، ومتى عرف هذه
الطريقَ وامتدَّ بها ضميره إلى حيث يتصل بجلال الله فمن هذه
الطريق نفسها يردُّ مصائبه إلى الغيب كما جاءت من الغيب لأن
للقدر طريقين : فواحدةٌ يندفع منها وهذه لا تُعرف إلا بعد أن
تقع الواقعة فتدلُّ عليها بنفسها ؛ والأخرى هي التي ينصرف إليها
القدر في حركة الدهر وهذه لا يوفق إلى معرفتها غير السُّعداء
ومن كتب الله لهم أن يكونوا مظهر حكمته أو مظهر حمده
فقومٌ يجدونها في إيمانهم الوثيق ، وآخرون يصابونها في
حكمتهم البالغة ؛ والمؤمن إنما هو صورةٌ قلبية من الرجل الحكيم
والحكيم إنما هو صورةٌ عقلية من الرجل المؤمن . فإذا
نزلت بأحدها المصيبة وبلغت منه ما لا يبلغ الصبرُ فتح لها طريق
السماء من باطنه فيُبصرها كأنها مدبرة ، والمصيبة متى وُجدت
كالحياء متى وُلدت لا محلَّ للعقل أبداً في أولها ؛ فإن هي ذهبت
مدبرةً اعترضها المرء على عينه فتكشف له عن معناها فيتبين
حكمة الله منها ويرى حينئذ كيف تُنقِّح يدُ الله في تاريخه .

وما أرى المصائبَ في نظام السكون الا حركات ظاهرة تسير بها نعمة مجهولة لا تزال من وراء الغيب ؛ وكثيراً ما يكون من هذه المصائب ما ينسبه الله به الناس من غفلاتهم حتى لا يقعوا في أشد منها اذا تركوا لما هم فيه . فليست النازلة هي المصيبة ولكن المصيبة من جهلنا وضعفنا ؛ ألم تر الى كل نعمة مع الجهل والضعف كيف تحمق^(١) وتضعف حتى لا تكون مع صاحبها الاقرباً مما تكون المصيبة مع صاحبها ؟

قال « الشيخ علي » : والحقيقة يا بنى أن من لم يكن كفوؤالما يناله هلاك بما يناله ؛ فالخط توفيق والتوفيق أن لا يكون لك إلا ما تصلح له فأنت بذلك مطمئن ، ومن ثمرة الاطمئنان الرضا ، ومن غاية الرضا أن تستمتع بما أنت فيه ؛ فأما رجل أصاب فاطماً أن فرحى فاستمتع فهذا هو ذو الحظ وان كان عند غيره لم يصيب الا قليلاً ولم يطمئن الا من ضعف ولم يرض الا من عجز ولم يستمتع الا بأهون المتاع

إن كل امرئ يريد لنفسه لا لسواه وإن أول التوفيق أن تريد ما يصلحك وأول الخذلان أن تريد ما لا يصلحك ، وما الطمع إلا فقر حاضر ولو كان طمع الغني .

وإن هذه النفوس تتبلسى من طول ما يلبسها قدره ويخلعها

(١) بمعنى تكسد من قولهم حمقت السوق بضم الميم أى كسدت

قدّر، فلقد رأيتُ غيرَ الموفّق حينَ يَجُورُ في إرادته ويضلُّ في مَسَمَّاتِهِ ويلتَمِسُ من الغيب ما يُقدِّرُ لنفسه دونَ ما قدَّرتُ له نفسه ؛ لا يبرحُ يكدُّ ويسعى وكلما لَبِسَ حالةً من دنياه فاضت عليه نَحَاسَتُهَا أَوْضَاقَتْ عَنْهُ فَخَلَعَتْهُ ، ولا يزالُ ذاك من دأبه ودأبُ القدرِ معه حتى يَهِنَ وَيَضْعُفَ وَيَصِيرَ إلى البلى في نشاطه وحزمه وفي طمَاحه ورغبته ، وقد أنفق من حياته ما لا يُردُّ في ابتغاء ما لا يندرك ، وهذا كلُّه هلاكٌ بطيء يأتي على العمر ، وما العمرُ بمقدار الرمن الذي تعيشُ فيه ولكنّه مقدارُ ما توفّق من عيشك

وهل سمعتَ برجل كان يحفر قبره منذ عَقَلَ معنى الموت وقد نَدَرَ أن لا يَحُولَ عنه ثم لم يزل يُوسِعُ الأَرْضَ من عمله ويُفَسِّحُ في جوانب هذا القبرِ وعُمُرَ طويلاً وغبرَ على ذلك دَهْرَهُ حتى أصبحَ قبرُهُ يا كلُّ القبورِ أَكْلاً^(١) ثم أدركهُ الموتُ فانطرح فيه رُمَّةً باليةً فاذا هو لا يملأُ من جوفه عملَ يوم واحد مما كان يعمل ، وبقيت الحفرة كأنها فمٌ مفتوحٌ تصيحُ منه الأبديةُ : أين الميتُ العظيمُ الذي أُعِدَّ كلُّ هذا لجيفته ... وما بالُ هذا الساعِدِ وما بالُ هذا المُنْكَسِبِ وفيم كان ذلك العَمَلُ وما هذا النبوغُ الميتُ الذي ضاعت فيه الحياة ولم يعظم به الموت ؟

« ١ » كناية عن السعة كأن القبور في جوفه

إنَّكَ إِنْ لَا تَكُنْ سَمِعْتَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَلَقَدْ رَأَيْتَ كَثِيرًا
مِنْ مِثْلِهِ يَعْمَلُونَ لِلْحَيَاةِ عَمَلًا ذَاكَ الْأَحْمَقُ بَعِينُهُ لِلْمَوْتِ ؛ فَهُوَ لَمْ
يَمِتْ بِمَقْدَارِ مَا أُعِدَّ لِنَفْسِهِ وَهُمْ لَا يَعِيشُونَ بِمَقْدَارِ مَا جَمَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ ؛
وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْفَقَ الْعُمْرَ فِي أَكْثَرِ مِنْ حَاجَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَضَاعَهُ فِي
غَيْرِ حَاجَتِهِ وَالْعُمْرُ لَا يُسْتَخَافُ ، وَكَلَا الْفَرِيقَيْنِ طَرَفٌ مِنْ
قِيَاسٍ وَاحِدٍ فِي الْخِذْلَانِ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا يَبْتَدِءُ مِنْ عَكْسِ
الْجِهَةِ الَّتِي يَبْتَدِءُ مِنْهَا الْآخَرُ .

لَا يَوْجَدُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ يَمْلِكُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُحْدُودٍ ،
وَلَكِنْ مَا مِنْ أَحَدٍ يَمْلِكُ طَمَعًا مُحْدُودًا فِي نَفْسِهِ ؛ وَمِنْ هُنَا كَثُرَ
مَا يُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ « سَوْءَ الْحَظِّ » وَأَمَّا هُوَ سَوْءُ التَّوْفِيقِ .

أَمَّا حَسَنُ الْحَظِّ فَمَا أَحْسَبُ النَّاسَ يَعْرِفُونَ مَا هُوَ ؛ وَمَا أَرَاهُ
إِلَّا رَغْبَةً مَجْنُونَةٍ لَا يُقْرِئُهَا الْعَقْلُ وَلَا اسْتَقِيمُ بِهَا نِظَامُ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا
عَرَفَ النَّاسُ فِي كُلِّ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ الْحَيَاةِ كَيْفَ تَكُونُ الْخَبِيَّةُ
وَكَيْفَ يَمْرُضُ الْأَمَلُ وَكَيْفَ يَهْلِكُ الطَّمَعُ ؛ وَاسْمُوا ذَلِكَ « سَوْءَ
الْحَظِّ » فَحَسِبُوا أَنَّ لَهُدِهِ الْأَحْوَالُ ضِدًّا وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ يَتَمَنَّى
لِنَفْسِهِ هَذَا الضَّدَّ وَبِصِفَتِهِ وَيُسَمِّيهِ « حَسَنَ الْحَظِّ » لِأَنَّهُ زَعَمَ
لَا سَوْءَ فِيهِ ؛ كَالَّذِي يَسْمَعُ بِالْمَوْتِ فَيَحْسِبُ أَنَّهُ يَعْرِفُ مَا هُوَ الْمَوْتُ ؛
وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مِنْهُ شَيْئًا وَأَمَّا عَرَفَ الْحَبَاءُ الْمَهَالِكَةَ .

يَا بَنِي كُلِّ أَحْمَقٍ إِلَّا أَنْ يَخْتِطَ اللَّهُ خِيَاةً يَبْنِي لَهَا بِهَا مَسْتَقْبَلَهُ ،

فكأنما يريد أن تمشي يدُ الله في التقدير على أجزاء الصورة التي في خياله ^(١)... ولو جمع الله بُنية الأمانى من أوهام الناس ومثلها وكشف عنها الغطاء فأبصرناها لرأينا ثم « مدينة المستقبل » التي لا يملك أنخم قصورها إلا الصَّعَالِكُ

أما أنا فلا أرى كلمة « الحظ » فيما نأمله وفيما نتعاسل به إلا لحناً من الألحان الطبيعية التي خافت في أفواهنا لتتغنى بها تحت الأجمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفس كي تجم الطباع وتُشْتَطَّ للسير بأجملها، فما الإنسان إلا دابةٌ للحمل وعليه أن يحمل من معاني المادة التي يعيش فيها أو يعيش بها، والزمن نفسه بحكمته وعلومه وحوادثه إنما يعايننا كيف نحتمل الأسواء والهجوم أكثر مما يعايننا كيف تتقيها .

قال « الشيخ علي » : ولكن يابنى ما هذا الذي يرتفع بالخامل ويتقدم بالعاجز ؛ ويجعل النكرة معرفةً والمعرفة نكرةً ؛ ويضرب وجه الحق عن مُستَحِقِّهِ وَيُفْجِجُ ^(٢) الضعيف وما يسمو به أملٌ ويحرم المُجِدُّ وما يشكُّ في الظُّفَرِ ؛ ويخالف في سبيل الأقدار بين نصيب ونصيب ؛ ويقطع في محاولة الأمور

(١) من كتابنا « السحاب الأحمر » في فصل الصديق : ما الخيبة إلا

رد الأقدار علينا حين نقول لا . وقد افضنا هناك في هذا المعنى فانظره .

(٢) أى يظفره بحاجته

بين الأسباب والغايات ؛ ويُبعدُ المنفعةَ مما به تمامُها فإذا هي
مَضَرَّةٌ ومُفْسِدَةٌ ؟

لعلك تقول : إن كل هذا يجتمع في كلمتين هما « السعدُ
والنحس » وهما تنطويان في لفظة واحدة هي « الحظ ». ألا فاعلم أن
هذا من وضع الانسان لا من وضع القَدَر وهي مذاهب لغوية
تمرُّ بين أنفسنا وبين أفهامنا ؛ وقد جئتنى بِجُمْلٍ تنطوي في
كلمتين ؛ وكلمتين تجتمعان في لفظة ؛ وأنا آتيك بِجُمْلٍ في كلمات
في صوت واحد ؛ فما هي صرخة الألم مثلاً ؟ أليست قِطْعَةً
طويلةً من كلام النفس يجمعها الحِسُّ^١ النَّائِرُ المتألم وينتفضُ فيها
فلا تكونُ إلا صوتاً واحداً . وانظر أين هذا الصوتُ وما يشرحه
لك الطبيبُ من أسباب ذلك الألم وعوارضه في كلام طويل
وعبارةٍ سَابِغَةٍ لا يتألم منها حرفٌ مع أن أحدهما إنما يفسَّرُ
الآخر كما ترى .

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء^(١) . لقد
خرجت من تاريخ النوع الانساني^٢ كاه ، فاز هذا الحيوان العاقلُ
كان يشعر بمعاني الاشياء قبل أن يضع ألفاظها ، وكان السخطُ
والغَيْظُ والحَسَدُ والمنافسةُ ونحوها من غرائزه الطبيعية ، إذ هي
المعاني التي بثَّها الخالقُ في نفسه لتُنشِئَ في الأرض تاريخَ هذه

(١) أي السعد والنحس والحظ

النفس . فكان اذا تعادى رجلان أو قسّتان فبغى بعضهما على بعض أحسّ الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه وأيقن المغلوب أن قوى الطبيعة عليه لأن الانسان لم يكن عرف نفسه بعد وكان هو وحده يمثل في هذه الطبيعة المخيفة الرائعة فكرة الخوف العاقلة . فهذه الثقة في القوى الطبيعية المجهولة من الانسان وهذا الشك فيها والخوف منها هما الأصل في تاريخ لفظتى السعد والنحس . ولقد كانت الأمم القديمة كلها تتوسّل الى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلّاسم والتمائم والتعاويذ ونحوها من الأعمال والعادات المأثورة في تاريخ كل أمة ، لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتدّ مع الانسان فخرج من مخافة الطبيعة الى الرغبة في إخافتها حتى تنزل على حكم الانسان في اجتلاب الخير ودفع الشر ، والزمن لا يأتي على الفرائز فيمحوها ولكنه يحوّل منها شيئاً ويهذب منها شيئاً ؛ ومن هنا كانت كلمة « الحظ » فاشية في المتمدنين لأنها آخر صورة مهدبة من تلك الفريزة الأولى .

أمّا إن في حوادث القدر أشياء لا نفهم وجه الحكمة فيها وهي الحظوظ والأقسام فذلك صحيح في نفسه بمقدار ما هو خطأ في أنفسنا ؛ والشّدوذ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريق القدر أمر معلوم ، ولكن لماذا لا يكون فاعده لأشياء نجهاها مادها نجهل الغيب كله ولا نعرف منه شيئاً ؟

ما رأينا قط في تركيب هذا الكون المعجز شيئاً خارجاً
عن موضعه ولا شيئاً زائداً في موضعه ، فلم نَظنْ مثل ذلك في
الجهة التي تتصل بنا من حكمة الله ، جهة السعد والنحس ؟

يا بني إنما قربت النعمة من فلان لأنَّ القدر بسوقها اليه ،
وانما بعدت النعمة عن فلان لأنَّ القدر بسوقها الى غيره ؛ واذا
أراد الله أمراً هيباً أسبابه فربما سعى المرء بكل سبب فلم يُفلح
ثم يقع له سبب لم يمتدِّد له وسيلة قط فاذا هو عند بُغيته
واذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يئس منه ، فلا يكون عجباً
كيف خاب في الأولى بأشد من عجبه كيف نجح في الثانية .

وهذا هو مظهر إرادة الله فان صادف من بعض النفوس الضعيفة
حسداً أو غيظاً أو سخطاً أو منافسةً أو نحو ذلك مما يكون مظهرًا
لضعف الإيمان في النفس تحول المني الى لفظ يحمل كل هذه
العواطف الوحشية فأيس الحكمة التي تسلب الإنسان قوة
نفسه وتكاد في إيهامها تسلب الأقدار قوة الحكمة أيضاً وهي
كلمة « الحظ » . ألا ترى أن أحداً من الناس لا يتعامل بهذه الكلمة
ولا يحتجُّ بها ولا يسكن اليها الا من غيظ أو سخط أو حسد
أو عجز أو ما هو بسبيل من هذه المعاني ؟

قال « الشيخ علي » : فلم يبق من معنى « الحظ » إلا أن يقال :
ولم وفق فلان ولم خذل الآخر وما هو بدونه وربما كان أحق

منه وربما كانت المنفعة به أكثر والنعمة عليه أظهر ؛ ولم كان
ذلك سعيداً وبأى شيء صار سعيداً ، وهذا شقيماً وبأى شيء عاد
شقيماً ؟ الى نسق طويل من هذه المسائل التي لا تجيب عليها السماء
ولا تكف عنها الأرض أبداً .

ولكن يا هذا لم تخفى أنت وحشيتك المهدبة وتكاتم
الغيظ والسخط والحسد ثم تحتال على أن تخرج هذه المعاني الخسنة
في ألفاظ ليّنة وأن تعترض على القدر في أسلوب من التسليم
والرضا وتطرح بينك وبين الله لفظة ان لم يكن معناها مخاصمة
القضاء فحاسبته ، والا فعتبة عليه .

وهل تعلم أنت ماهي شعوب الحوادث وفنونها ، وما الذي
سيفعله المجدود^(١) حين تقبل عاياه الدنيا والمحروم حين تدبر
عنه النعمة ، وماذا يكون مما يترتب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ ،
وهل ندري لم أساء بعض الأغنياء حمل الغنى دون البعض ولم
أحسن بعض الفقراء حمل الفاقة دون البعض ، ولم ابتليت
طائفة بالتمني وابتليت غيرها بالضجر مما تتمناه الأولى وحسب
الى تلك ما بغض الى هذه ؛ ولم انتزعت نعمة بعد أن استمكن
حبلسها ، وأقبلت الأخرى بعد أن استيأس أهلها ؟ أليس
من كل هذا يتبيها البقاء للحياة الانسانية في نظام لا يخف على نوع

الانسان، فيهمدته فيفسد به ولا يجور عليه فيستأصله فيذهب به؟
 وهل الناس الا خطوط في لوح الغيب، يستقيم ما يستقيم
 منها ويعوج ما يعوج لأن كل ذلك مما لا بد منه في جملة الوضع
 وإحكامه؛ فاذا أردت أن تسأل لم استقام هذا ولم اعوج ذلك،
 ثم ما قصير وطال، ثم مادي وجلي، ثم ماعلا وسفلا، ثم ما انفراد
 واختلط، فسل لم خلقت الدنيا ولم خلقت الناس، وسل
 الخالق ولا سل «الشيخ علي»

كل ذلك يابني حكمة وكل ذلك انتخاب، وقد ظفر العلماء في
 حركات النظام بما سموه «الانتخاب الطبيعي» وعرفوا أن ذلك سر
 من أسرار التقدم والارتقاء؛ فاعلم أن ما نحن فيه من معنى «الحظ»
 إنما هو «انتخاب الهي» وذلك سر من أسرار الحياة والبقاء؛
 وما من حركة لي ولك ولكل انسان إلا هي تمس قطعة من
 تاريخ الحياة وطائفة من الأحياء؛ فليس من حي هو لنفسه
 وحدها وليس من حقيقة هي لنفس واحدة؛ وان عرف الانسان
 بعض الحقيقة من نفسه فأكثر الحقيقة لا يعرفه إلا من سواه؛
 ومن أجل ذلك يقضى نظام الحياة بما نسميه «الحظ» وان كنا
 لا نفهمه كما يقضى به نظام هذه الحياة؛ وانما قوة الحركة وضعفها
 على حسب ما يراذ بها في الدفع والجذب. فكن وانما بالله مؤمنا
 بالقدر خيره وشره فالنقطة وحدها حظ عظيم، والله تعالى بصيب

الناسَ بِنِيَّاتِهِمْ إِذْ هِيَ حَقَائِقُهُمُ الصَّرِيحَةُ وَإِذْ هُوَ وَحْدَهُ الْمُطَّلَعُ عَلَيْهَا
فَهُوَ يَوْفِقُ السُّعْدَاءَ لِلنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ ثُمَّ يُسَعِدُهُمْ بِهَذِهِ النِّيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ
الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ سَعَادَتِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْحِظُّ الَّذِي يَرِيدُونَهُ
فَلَهُمُ الْحِظُّ الَّذِي يُسَلِّئُهُمْ؛ وَرَبَّمَا كَانَ زِمَامُ الْعَافِيَةِ يَدُ الْبَلَاءِ
وَكَانَتِ النِّعْمَةُ فِي عَاقِبَةِ الْمَصِيبَةِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَابِسًا مِنْ طُلْعَةِ
الْقَدَرِ وَالْقَدَرُ يَضْحَكُ لَهُ.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَقْدَارِ نَوَامِيسُ أَرْضِيَّةٌ تَجْرِي عَلَيْهَا وَتَقَعُ
بِحَسَبِهَا فَإِنْ أَقْرَبَ مَا يَصِحُّ أَنْ يُعَدَّ مِنْ نَوَامِيسِهَا فِيمَا أَرَى هُوَ
نِيَّاتِ النَّاسِ.

وَمَا النِّيَّةُ إِلَّا خُلَاصَةُ الْفِكْرِ وَالضَّمِيرِ وَنَتَاجُ مَا بَيْنَهُمَا؛
فَلَا تَنْطَوِ عَلَى مَا يَسُوءُكَ أَنْ تَنْيَمَ بِهِ أَلْسِنَةُ الْغَيْبِ وَأَنَّمَا الْحَوَادِثُ
مِنْ هَذِهِ الْأَلْسِنَةِ؛ وَلَا تَعْقُدْ هَوَى ضَمِيرِكَ عَلَى مَا تَحْسِبُهُ أَمَلًا
مِنْ حَيْثُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَسَدًا لِلنَّاسِ وَلَا يُعْتَقَبُ إِلَّا نَكَدًا
لِنَفْسِكَ؛ وَمَا تَظُنُّهُ عَزَمًا مِنْكَ وَهُوَ طَمَعٌ فِي اللَّهِ وَمُخَادَعَةٌ لِلْقَدَرِ
وَحَسَبُوكَ مِنَ الْمَتَاجِرَةِ مَعَ السَّمَاءِ بِضَاعَةً صَالِحَةً مِنَ الْإِيمَانِ
الَّذِي لَا غِشَّ فِيهِ؛ وَمِنْ الْمَتَاجِرَةِ مَعَ الْأَرْضِ بِضَاعَةً طَيِّبَةً مِنَ
النِّيَّةِ الَّتِي لَا دَنَسَ فِيهَا، فَإِنْ رَجَحَكَ مِنْ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الَّتِي
لَا تَكْسَدُ فِي أَسْوَاقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يُلْقِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ

محبة منه وتأيداً وسكينة؛ وإن رأى الناس أنك خسرت شيئاً من الغنى أو الجاه أو مستاع الدنيا فاعلم أنك يقيناً أنك لم تخسر إلا الهم والشقاء والتعب بالدنيا وأهلها.

ويومئذ يكون لك من حسن الإيمان ، وحسن النية ، وحسن الأخلاق ، ما تعرف منه كيف يكون « حسن الحظ »

الفصل التاسع

﴿ الحرب ﴾ (١)

رُقْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ كَأَنَّ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الطَّيْنَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ ، فَهِيَ تَسْمَطِرُ مِنْ دِمَائِهِ ، وَكَأَنَّمَا عَرَفَتْهُ فِي سَمَاءِ اللَّهِ فَلَا يَكَادُ يَنْزِلُ بِهَا الْجَيْشَانِ ، حَتَّى تَعِيدَ أَرْوَاحَ أَكْثَرِهِمْ إِلَى سَمَائِهِ ، يَنْجَذِبُ إِلَيْهَا الْجُنْدَىُّ لِأَنَّ فِيهَا تُرَابَهُ بَلْ لِأَنَّ فِيهِ مِنْ تُرَابِهَا ، وَيَنْطَرِحُ عَلَيْهَا لِأَنَّ اقْتِرَابَ مَنْبِئَتِهِ فِي اقْتِرَابِهَا ، وَلَا تَزَالُ تَصْرَعُهُ وَكَأَنَّهَا مِنْ شَوْقِهَا تَضُمُّهُ ، وَتُسَلِّقِيهِ عَلَى صَدْرِهَا مِيتَةً أَوْ جَرِيحًا كَأَنَّهَا تَعْلَمُهُ بِذَلِكَ أَنَّ الْأَرْضَ أُمُّهُ . وَهِيَ مَزْرَعَةُ الْمَوْتِ نَبَاتُهَا الرِّئُوسُ فَمِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَثَمَرَاتُهَا النُّفُوسُ نَمْنَاهَا دَانِي الْقِطَافِ وَمِنْهَا بَعِيدٌ ، وَقَدَرُوا هَاهَا بِالْدمِ الْحَيِّ فَتَبَّتْ فِيهَا الْعِظَمُ وَأُتِمِرَ فِيهَا الْحَدِيدُ .

بل هي ساحة الحرب ترفعُ عليها القوةُ رايةً وتُنْزِلُ رايةً ،
ويُخَسِّرُ إِلَى مَسِيرِ حَيْهَا النَّاسُ لِيُثْمِلَ لَهُمُ الْمَوْتُ كُلَّ يَوْمٍ

(١) هي الحرب العظمى التي ارتدَّ بس فيها العالم سنة ١٩١٤ للميلاد

وبلغ ما أنفقته الدول عليها مائة ألف مليار ذهباً وهلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة فكانت حصاداً للأرض وأهملها عمل فيه الموت والفقر والحرب جميعاً ، وقد كتب (المساكين) في سنة ١٩١٦ قبل الهدنة بسنتين .

رواية؛ وقد اضطربت فيها الآجال فكانها أمواج في بحر القدر
 زاخرة، وتناثر فيها الرجال فكانهم عظام في بعض المقابر ناخرة،
 وظهرت تلك الساحة وقد كثرَت عن أنياب من السيوف
 وأسنان من الأسنة كأنها لأهل الدنيا فم الآخرة.
 أما الجنود فاذا رأيتهم يلتحمون قات لا زل الأرض قد
 خلقت على ظهرها، وإذا شهدتهم يقتحمون خلّت نفوس
 الكرام قد حمت على دهرها؛ وقد أيقنوا أنهم إن لم يكونوا
 للموت كانوا للأسر، ومن لم يُبين منهم على «الفتش» بُني
 على «الكسر»؛ وما منهم إلا من يحمل رأساً كأنه لا يمسكه،
 على عنق لا يدري كيف يمسكه، في بدن لا يعرف أيأخذه
 الموت أم يتركه؛ فهو لا يبالي أظلمت الشمس، أم أظلم عليه الشمس،
 ونهض للتاريخ مع الغد أم ذهب في التاريخ مع الأمس.
 وإذا كان من صفة الميت أنه اسم في الحياة بغير جسم،
 فمن صفة هذا الحي أنه جسم يعيش بغير اسم؛ وما الجندی إلا
 عدد في حساب الحرب، فسيان قطعه «الطرح» أم أخذه
 «الضرب»؛ وإنما هو حيث يُتهيأ له انتظار الأقدار؛ فليس إلا
 الصبر، ولو في بطن القبر؛ وحيث يطبخ له النصر على «النار»؛
 فتسم المكان، ولو في جوف البركان؛ وآية عقله أن يكون كآلة
 المتقنة تعمل بلا عقل فلا يخشى الحيف، ولا يسأل لماذا ولا

كَيْفَ؛ وَمِنْ ذَكَائِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِحَّةِ الذَّهْنِ..... بِحَيْثُ لَا يَنْفَرِقُ
فِي الْمَوْتِ بَيْنَ الْجَمْرِ وَالْتَمَرِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ « خِفَّةِ الرُّوحِ » بِحَيْثُ
تَحْمِلُهُ اللَّفْظَةُ الْخَفِيفَةُ عَلَى جَنَاحِ الْأَمْرِ

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا أَنْ يَتَنَازَعَ النَّاسُ عَلَى الْحَيَاةِ فَيَقِيمُوا الْمَوْتَ
قَاضِيًا، وَيَطْلُبُوا مِنَ السَّرِيعَةِ الْمَدْوَنَةَ فِي صَفَائِحِ السُّيُوفِ حُكْمًا
عَلَى الْحَيَاةِ مَاضِيًا؛ فَكَيْلًا لِقَرِيبَيْنِ يُقَدِّمُ الْحُجَّاجُ، مِنَ الْمُهْجِجِ؛
وَيَتَكَلَّمُ بِاللِّسَنَةِ الرُّوحِ، مِنْ أَفْوَاهِ الْجُرُوحِ؛ وَيَأْتِي مِنْ بَلَاغَةِ
الْمَوْتِ فِي خِصَامِهِ بِكُلِّ « ضَرْبٍ »، وَيَجْرِي الْحَيَاةُ مَجْرَى
« الْأَسْنَمَارَةِ » فِي « بَيَانِ » الْحَرْبِ.

وَقَدْ تَوَاقَفَ الرِّجَالُ فِي يَوْمٍ أَطْوَلَ مِنْ يَوْمِ الْعَرَضِ، وَتَقَاذَفُوا
بِالْآجَالِ حَتَّى أَوْشَكَتِ السَّمَاءُ لِكثْرَةِ مَا يَنْزِلُ مِنْهَا أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ؛ فَالْخَيْلُ « مَنْقُضَةٌ » كَأَنَّهَا صَوَاعِقُ أُرْسِلَتْ لِلْمَوْتِ فِي
أَعْنَتِهِ، أَوْ تَوَازَعَتْ مِنَ السَّحَابِ بِرُوقِهَا الصَّوَارِمُ وَالْأَسِنَّةُ؛
مُسْرِعَةٌ كَأَنَّهَا تَسَابِقُ تِلْكَ الْمَنَائِيَا الَّتِي جَرَتْ بِهَا الْأَقْدَارُ، جَائِلَةٌ
كَأَنَّهَا تَحِيرَتْ كَيْفَ تَفِرُّ مِنْ سَاحَةِ الْمَوْتِ بِمَا حَمَلَتْ مِنَ الْأَعْمَارِ؛
وَعَلَى ظُهُورِهَا كُلُّ فَارِسٍ كَأَنَّهُ بَيْنَ الرِّمَاحِ أَسَدٌ فِي غَابٍ، وَكَأَنَّ
الْمَوْتَ مِنْ سَيْفِهِ سَمٌّ خَلِيَ فِي نَابٍ، وَكَأَنَّ الْعَنَانَ فِي يَدِهِ سَوْطٌ
وَلَكِنَّهُ سَوْطُ عَذَابٍ؛ لَمْ يُعَدِّ فِي الْفُرْسَانِ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ مِنْ
الْإِنْسَانِ؛ فَإِذَا صَاحَ بَقْرُهُ نَهَرَ عَرَفَتْ الْوُحُوشُ ذَلِكَ الصَّوْتَ، وَإِذَا

هاجته الحربُ لم يَفْتَهُ من ضروبِ النعمةِ قُوَّةٌ ، وإذا نظر الى
مَقْتَلِ عَدُوِّهِ حَسِبَتْ عَيْنُهُ تَقْطِيتَ عَلَى تَاءِ الْمَوْتِ .

وقد ثار الغُبارُ كأنَّه طريقٌ يُمَدُّ من الأرض الى السماء ،
أو كأنَّما أراد أن يُمَسَّلَ السحابَ وقد رأى المطرَ تُمَثِّلُهُ الدماءُ ،
أو كأنَّه أرضٌ ثامنةٌ بدأت تَخْلُقُ مِبعُثَةً في الفضاء ؛ أو
كأنَّه لما رأى الحربَ تتوقَّدُ هبَّ مستجيرا بالهواء من الرِّمضاءِ ،
أو هو قد فرَّ من الأرض لما خَشِيَ أن تَتَفَلَّقَ الأرضُ من
حِوَاكِفِ الخليلِ ، أو كأنَّه أِنْفَ أن يَأْتِيَ الناسُ أَعْمَالِ اللُّصُوصِ
في نورِ الشمسِ فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ قُبَّةٌ من الليل ، أو حَسِبَ عَقُولَ
الْجُنْدِ في أيديهم وأرجلهم (١) فطار ينظرُ أينَ تلكَ الهامُ ، أو
هو لما رأى المطرَ أَهْمَرَ خَشِيَ على الأرضِ فَنَارَ الى السماءِ ينظرُ
ماذا هي الغمامُ ،

وقد رَمَتِ الأرضُ تلكَ المدافعُ بَرَزَ أَلْهَا ، وآلَتْ على الجنودِ
صَوْرًا من شرِّ أفعالِها ، فتركتهم كالغابةِ الملتفَّةِ إذا اسْتَطَارَ فيها
الحريقُ ، وانحطَّ فريقٌ من أشجارها على فريقٍ ، وكأنَّهما انفضَّ عليهم
قَنَابًا بِهَا جِدَارٌ من الجَحِيمِ ، وكأنَّ كلَّ مَدْفَعٍ في صَيْحَةِ الحربِ
إنَّما هو عُنُقُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ .

يَجْمَلُ في بَطُونِهَا أَجِنَّةٌ من النارِ ترتعدُّ الحصونُ لَهُـوَلِ

(١) لأن أعمالهم كلها من البطس والفك بالأيدي والأرجل

مِيلَادِهَا، وَتَتَحَنَّى الْقِيلَاعُ مَخَافَةَ مِنْهَا عَلَى أَوْلَادِهَا ^(١) وَلَهَا صَوْتُ بَعِيدٌ كَأَنَّا تَنَادَى بِهِ السَّمَاءُ لَتُرْسِلِ الْمَنَآيَا الطَّارِقَةَ، أَوْ لَتَسْتَقْبِلَ الْأَرْوَاحَ الْمَفَارِقَةَ، أَوْ كَأَنَّهُ نَشِيدٌ فَخْمٌ تَفْتَخِرُ بِهِ الْأَرْضُ عَلَى الرَّعْدِ وَالصَّاعِقَةِ.

وَهِيَ « الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ »، أَمَّا يَوْمُهَا فَيَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ^(٢)؛ وَهُوَ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، فَانْه يَوْمَ تَحْصِيلِ مَا فِي الصُّدُورِ ^(٣)، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَوْمَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ فَانْه يَوْمَ يُبْعَثُ النَّاسُ فِي الْقُبُورِ.

وَهُوَ الْمِدْفَعُ حَسْبُهُ قُوَّةٌ أَنَّهُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَحَسْبُهُ مَا يَحْتَوِيهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »، وَحَسْبُهُ رُغْبًا أَنَّهُ شَكْلٌ « عَصْرِي » مِنْ عَذَابِ الْخَسْفِ الْقَدِيمِ أَعَدَّهُ اللَّهُ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْجَدِيدِ...؛ فَكَمْ مِنْ حَصْنٍ مَنِيعٍ اعْتَزَّ بِهِ أَهْلُهُ اعْتِصَامًا، فَتَرَكَهُمْ فِيهِ تَرَابًا وَعِظَامًا، وَكَمْ مِنْ قَاعَةٍ شَاخِخَةٍ اغْتَرَّ الْجُنْدُ بِقَوَاهَا، فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ^(٤)

(١) هم الجنود (٢) العهن الصوف وهذه الكلمات اقتباس من القرآن الكريم (٣) المراد هنا تحصيل الأرواح والكلمات أيضا اقتباس (٤) دمدم عليهم طحنهم فأهلكهم والجملة اقتباس من قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنوبهم فسواها)

وأما الرصاص فهو من سماء الموت حب غمامه ، وله صفير^١
 كأنه ترنم الشيطان ببعض أنغامه ، ولو أن عاصفة كذست^٢
 أرض الجحيم لما شوت الوجوه بأشد من ناره ، ولا حملت من
 هناك إلا ما تحسب هذا الرصاص من حصاه وغباره ، يشور كما
 تشور الأعاصير ، ويندفع كما تندفع المقادير ، ويقع على الأجسام
 بالأجل أو يطير ، ويتساقط فكان في السماء نجماً تفتت فسقط ،
 أو كأن قطعة ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه
 النقط ، أو هو فوج^٣ (١) من ذباب النار ، هبط إلى هذه الدار ،
 فلا هم له إلا الجلود وإنضاجها بلذعه ، والعيون وإخراجها
 بنزعه ، والعروق واستخلاصها ، والدماء وامتنصاصها ،
 والأرواح بعد ذلك واقتناصها .

وكأنه زفرات غير أنها لا تخرج من الصدر بل تنزل فيه ،
 ولولا أنها تشويه ولا تشفيه ، وهو أوقع في الرءوس من الأوهام ،
 وأنفذ في الأغراض من مكائد الأفهام ، وأحر على الأكياد من
 كل ما يضرم غضب الجبار المغيظ ، وما هو إلا العذاب الرفيع^٤
 إن كان المدفع هو العذاب الغليظ ...

وهناك من الروع مالا يحصيه الوصف ولا يحصاه ، وإن

(١) الطائفة أو الجماعة

عرفت آلة التصوير كيف يُجسِّمُهُ فليس يعرفُ القلمُ كيف يفصِّلُهُ ؛ ولعمري لو كان البحرُ الأَسْوَدُ في المحبِّرة ، لما بلغ في وصف هذه المقبرة ؛ غيرَ أنها الحربُ التي ابتدعها العلم لهلاك الإنسان ، والقوة التي رزقها العقلُ فكانت بلاءً على الأبدان .
قوة المعجزات التي أركبت هذه الذبابة الإنسانية على مِثْن الغمام ، وطوت لها من السماء بين جناحي النور والظلام ؛ فإذا سَمَت « الطيَّارة » خَفَضَ لها السحابُ جَنَاحَ الذَّل ، وأقبلت الملائكةُ تسأل ربِّها ما هذا الجزءُ من العالم بل ما هذا الكل ؛ وما هذه الجُرادة التي رأسُها في ظهرها ^(١) ، وسرُّها في جَهرِها ، بل ما هذه الحياةُ الأرضيةُ التي عَرَجَتْ في السماء فخرجت من حدود دهرِها ، وما هذا العقلُ الإنسانيُّ الذي لا يُوزَعُ جاشُهُ ^(٢) ، والذي يرفعُهُ إلى السماء ارتعاشُهُ ، وهو مع ذلك يندفعُ على أهله بالوَيْلِ اندفاعَ السَّيل ، ويطلع نصفُهُ كالنور على الأرض ^(٣) ليطلعَ نصفُهُ الآخرَ كالليل ؟

وهي الحربُ العامةُ كأنَّها نورةُ الدهرِ وقد ضَجِرَ من هذا العلم وطغياؤه ، وملَّ من سماجةِ إنسانه ، واشتاق إلى عصر

(١) المراد برأسها الطيار الذي يركبها لأنه يكون في ظهر الطيارة

(٢) كناية عن عدم الاضطراب والخوف (٣) كناية عن المخترعات

والاعمال النافعة مما به فوام العمران ومنه فولهم « العلم نور »

حيوانه ؛ فزفرَ زفرةً أيقظت الموتَ وكان نائماً ، وتركت هذا
الإنسانَ من الفزعِ لِجَنَبِهِ أو قاعداً أو قائماً ؛ واستنزلت من
القضاءِ ما كان في علم الله غيباً ، واشتعلَ من هولها رأسُ
الأرضِ ببياضِ السيوفِ شَيْباً ؛ وجعلت من البيوت قبوراً
لأهلها ، وساوت في معاشِ الناسِ بين صعبها وسهلها ،
وأظهرت لعقول العلماء أن أكثرَ علمها من فنون جهلها
فالأرضُ في بلاءٍ منتشرٍ لا يُعرفُ له حَجْمٌ ، والشعوبُ في ظلامٍ
من اليأسِ مُلتَهَبِ النجمِ ، والدُّولُ في عصرِ كليلِ الشياطينِ
كلُّه رَجَمٌ .. !

قال « الشيخ علي » تلك هي الحربُ القائمةُ اليومَ ولكن
كما ترى خيالَ النارِ في الماءِ ؛ أما الحقيقةُ فكلُّ حرفٍ منها جيش
وكلُّ كلمةٍ أُمَّةٌ ووراءَ ذلك معنى رائعٌ هو استجباعُ الحياةِ
الأرضيةَ لمقابلةِ الموتِ . ولو أن لهذا الكونَ مرضاً يعتريه
كما تعترى الناسَ أمراضُهُم لقلتُ إن شقَّ الأرضِ قد ضُربَ
بِالْفَالِجِ (١) فأصبحَ شَقُّها الآخرُ لا يكاد يجرُّ ظِلَّهُ حولَ الشمسِ
لأن الحركةَ مقسومةٌ بينه وبين ذلك النصفِ الميتِ ؛ فقد اشتبكت
العلائقُ بين دُولِ الأرضِ جميعاً إذ لا تعرفُ دولةٌ بين الناسِ

(١) هو المرض المعروف وهو استرخاء لأحد شقي البدن
م ١٦ - المساكين

ترعى شعباً من البهائم ، ولما بدأ الانسانُ يعرف نفسه في عصر العلم .
والمدنية عرف أخاه لأن أكثر حقيقته الانسانية فيه ، ومن ثم
اتصل به اتصال اليد بأختها في المعاونة على ما يُسّرَت له كلتاهما ؛
وجمع العلم بين هذه الأمم لأنه لا ينتسب لواحدة منها وليس له
في الأرض خال ولا عم ، ولا يُعرفُ شيء يقول للعلم « يا بني »
ويقول له العلم « يا أبت » إلا التاريخ الانساني .

ولهذا سَفَر بين أمم الأرض كل ما يخرج من رأس الانسان
وما ينتج من يده ، واتصل ذلك واستفاد حتى كأنما دارت
الأرض دورةً جديدةً من داخلها فما إن يقع الاضطراب في
ناحية منها إلا دخلها من الأثر في سائر نواحيها من هزة تر جف
الى زلزلة تهدم الى الخسف الذي يجعل عاليها سافلها .

واني باسط لك شيئاً من الرأي في كلمات قليلة ولكنها
كالمعركة الأخيرة التي يحق بها النصر فنكون هي تاريخ الحياة ولا
يكون ما سبقها الا تاريخاً للموت .

ألا فلتعلم أنه لو كان لحادث الدهر منذ نشأ الدهر تاريخ
صحيح يصف لنا ما كان سبباً في كل حادثة وما صارت كل حادثة
سبباً فيه لأثبت يقيناً أن ليس في الأرض شيء من خير أو شر
غير ما يازم لبناء هذا التاريخ الأرضي على الوجه الذي يتفق مع
بناء الانسان ؛ والتاريخ يطرد حيناً ثم يعطِف ههنا وههنا في

مجرأه من الغيب فلا يتحول إلا انشقت له ناحية من العالم .
فان خربت دولة أو سقطت أمة فهاهي بصاحبة الدهر كله
وقد كان لها قسمها منه ثم عاد الدهر يطلب قسمه منها . ولن
يُجدد البناء القديم حتى يكون الهدم أول العمل في تجديده .
فالْحَرْبُ شرٌّ لا بد منه لأنها من عوامل التحايل والتركيب
في تاريخ الإنسانية وهي بذلك سبب من أسباب استمراره، وكل
شر لا بد منه فهو خير لا غنى عنه . وهل يبتغي الإنسان أن
تضرب العصور والدول كما تضرب الدنانير والدراهم من
معدن معروف على وجه معروف ولغاية معروفة ؟ وإذا لم يكن
لنا مستقبل التاريخ وكنا في عمر محدود فما نحن والرأى في بناء
هذا المستقبل ، وكيف تقدم لله آلات البناء ثم نحكم الشرط
أن لا يكون في هذه الآلات ما يحتفر أو يكسر أو يرض
إنما يجعل للحرب ذلك الوصف الذي يطير لها في كل أرض
صوتاً (١) بالذم والسوء أنها لا تأتي إلا بعتة ولا تطبق إلا في
غفلات العيش، وأنها تشور في يياض الأمان هراء من لون الموت،
وتطاع في خصب النعمة سوداء من لون القحط، وتنبشيق
بالشر من حيث يكون الشر مأمونا وتصب الحنسة على من
لا يطيقها ثم لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تلف من

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بذهمها

جانبي الحياة لئلا ؛ وهي في كل ذلك البلية المكشوفة التي
تشتهرها الأحاديث^(١) وتضرب فيها الألسنة وتسيل عليها
الأوهام بما في طباع الناس من طبقات الأخلاق ضعفاً وشدة
وخوفاً وطمعاً وبخلاً وكرماً وحذراً واندفاعاً بحيث تصبح وكأنما
ترتمي على رأس كل انسان بالموت أو بالخوف من الموت أو بالخبر
عن الموت أو بما يشبه الموت أو بما يكون الموت خيراً منه.

وإلا فكم يترضرض الناس^(٢) كل يوم وكم يجدون من
صنوف الدمار في الأعمار ومن ضروب الآراء في الأرزاق؛
مالو جمع بعضه الى بعض في نسق واحد لطم على هذه الحروب
كلها ولا ظهر لك أن في السلم ما هو شر من الحرب وإن لم يصرخ
به صوت الموت .

وما البني والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها
كما يشمل أكثر وسائل الحياة الانسانية إلا ضروب من القتل
الخفي وربما عد الموت في بعضها راحة من الموت . . . ولكن
ذهب بآئنها في اصطلاح الناس أنها خطط موضوعة للمغالبة على
الحياة وأنها لا تنالهم إلا فرداً فرداً ، وكأن باطل الأمم غير باطل
الأفراد لأن الاجتماع قضى منذ أول العهد به أن تكون
الامة مظهر الشرع وأن يكون الفرد مظهر العقاب . ولكن

(١) تدمها ونشهر بها (٢) يتكسرون يقال ترضض الحجر اذا تكسر

ليت شعري لم يكون الفرد كذلك من الأمة ولا تكون
الأمة كذلك من أمة غيرها ؟

فالحرب هي عقابُ الجماعات وهي كذلك ضرورة اجتماعية
ولن يخلو منها تاريخُ الانسان إلا اذا رجع الناسُ أمةً واحدةً في
تركيب مستحيل لا يتهيأُ معه أبد الدهر ما يقسمُ هذه الأمة
على نفسها ، ولعمري إن ذلك التركيب الاجتماعي الذي يخلو من
الحروب ليُزهد الناسَ في جنّة الله ولا يدعُ للاديان محلاً على
الأرض ؛ ويحسبون أنه صلاحٌ في الطبيعة وهو يفسدُ الطبيعة
كلها فما هو إلا خيالٌ شعري في تاريخ الحقيقة الانسانية ، وما
أرى الحرب إلا البرهان الذي تُقيمهُ الطبيعة أحياناً على فساد ذلك
لخيال كما أوشك الضعفُ الانساني أن يتوهمه حقيقة .

واذا كان الله لم يخلق انساناً من النور فلا تظلم نفسه ،
ولا من النابح فلا يحمي دمه ، ولا من الصخر فلا يهين كاهله ،
ولا من الحق فلا يحيفُ على غيره ، ولا من الرضا فلا يطعمُ في
في سواه ، ولا من الكتمان فلا يخرجُ أضغاثُه ، ولا من السكون
فلا يتحركُ في نزاع ؛ فكيف لعمري يخلقُ بعضُ الكتاب
والفلاسفة هذا الانسان الجديد من عناصر السلم وحدها ؟

ألا إن الانسان لا يولد ساكناً ولا نظيفاً وإنما يخرج من
بطن أمه في ثورة دموية تتفجر من حوله كهنا وهنا ؛ وما

أرى الحرب أكثر ما تكون الا ولادة للتاريخ على هذا
الأسلوب فكان من التاريخ ما يولد على أسلوب الحيوان في
ثورة من الدم ومنه ما يوجد على أسلوب النبات في تحول
ساكن غير منظور .

قال « الشيخ علي » : والحركات المجهولة في نظام الأرض
كثيرة ، بعضها يجري على الطبيعة وبعضها يجري على الانسان ؛
فكما يُدَكُّ الجبلُ وتُخَسَفُ الأرضُ ويطنى الماءُ وتثورُ
العواصفُ وتنفجرُ البراكينُ ، يجري على الانسان من مثل ذلك
في القَحْطِ والوباءِ والحروبِ وغيرها ؛ لأن الانسان في الحقيقة
هو الطبيعة الرفيعة وما القوة المركبة فيه التي تخرج من مجموع
غرائزه الا تهية حربية في نفسه ؛ (١)

فلولا أن هذا الانسان مهيباً للحروب بأدواتها الطبيعية وأن
هذه الأدوات هي كذلك من أسباب بقائه اللازمة له لما قامت
في الأرض حرب قط . ولو أبعدنا في مطارح الفكر ونظرنا
من وراء النفوس الانسانية الى ميادين القتال لرأينا أن الحرب
التي تقوم بين الأحياء انما هي حرب قائمة بين مذاهب الحياة .
وكما يجتمع العلماء وأهل السياسة لتنقيح الأنظمة
والقوانين تجتمع الأمم المتحاربة لتنقيح الطباع والعادات ، وما

(١) لو لبست الغرائز الانسانية مادة لما لبست إلا الاسلحة ...

أعجب أن يكون القتلُ تنقيحاً في قانون الحياة ^(١) فلا
تنظرُ من الحروب الى هؤلاء المساكين والمتوجعين والمحزونين
فذلك كله الى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء، قلَّ أو كثر؛
ولا أحمق ممن ينظر ساعة الهدم الى آثار الهدم ولا يعلم أن
ذلك سبب لما بعده وأنه اذا لم يهلك يوم في سبيل الغد هلك
المستقبل كله .

(١) من تمام هذا المعنى ما ذكرناه في كتابنا «تحت راية القرآن — المعركة
بين القديم والجديد» في كلامنا عن فساد الحضارة الغربية ننقله توفية للفائدة:
الروح الانسانية متى اصبحت مounورة ساخطة متبرمة باسباب مختلفة
كاسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية ، لم تكن روح الحياة
ولكن روح القتل وما في حكمة ومن ثم فلا بد في هذه الحضارة من انفجارات
حرية مستمرة ولا بد لها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده . واذا
تجازت الدول وتنازلت زماما فأنما يسمن بعضها بعضا في مراعى السلم
والعيش وكل امة عينها على شحم الاخرى

ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحاً هلياً عنيفاً لهذه الحضارة الزائغة فوضع الله يده
عليها فمحت اكثر حسناتها ورقائقها وطرفها البديعة ، وأميتت طباع الترف
لتنبعث طباع القوة ، وقر في الرجل معنى الرجل وفي المرأة معنى المرأة وكأنا
قبل ذلك وإن الرجل نصف امرأة وإن المرأة ضعف نفسها . فكان الحرب
كانت مصفاة للحضارة ثقبها الخرائب والخنادق والقبور ، ومتى جمت الأوساخ
بعد زمن فالمصفاة باقية

ولكن متى تكونُ الحربُ حقاً ومتى تكون باطلاً ؟
فهذا مالا سبيلَ الى وجه الرأى فيه وربما كان الجوابُ عليه سؤالاً
آخر ؛ وهو متى تعرّضُ في حياة الناس تلك المسائلُ التي
لا يصلحون هم أنفسهم لحملها ؛ ومتى تكونُ الحركةُ العنيفةُ
التي يتحولُ بها الناريخُ الانسانيَ كلما وَجِبَ أن يتعرف ليتبجح
مجرّاه من الغيب ؟

أليس ذلك هو السببُ في أن العقلَ أحياناً يكون أولَ من
ينهزمُ في الحرب كما تراه اليوم ^(١) فيصبحُ الفلاسفةُ والعلماءُ
والمتفلسفون ولا هم لهم إلا ادارةُ حركة الموت هجوماً ودفاعاً، وترى
الصلوات والأدعية والتساويح تتصاعدُ الى الله وفيها ريحُ الدمِ
والنارِ والغازاتِ كأنها قنابلٌ صُنِعَت من العواطف ؟
وقد يقول بعضهم إن في الحربِ إسرافاً اجتماعياً بما تأخذُ
من الموتى وما تتركُ من المَرْضَى ؛ ولكن كم من الإسراف الطبيعيِّ
والأخلاقى في بقاء الناس موفورين بعلومهم وفنونهم وشهواتهم
ونعمتهم ومصائبهم ونحوها مما يؤدّي الى انطواء هذا المجتمع
الانسانى في الأدمغة والقلوب بما تبعثُ عليه تكاليفُ الحياة
الاجتماعية السامية التي تحاولُ أن تجعلَ الانسانَ حيواناً على

(١) كانت الحرب العظمى حرب محترقات فاتكة جهنمية لم يعرفها
تاريخ الاسانفة قدا. كأنما كانه المحنة أن نختره احسنه ...

شكلٍ مُخْتَرَعٍ .. ؟ فلا تُرَيْنَ يا بني هذه الوحشية التي تعترى
الناس في حروبهم إلا سبيًا في رجوعهم بعد ذلك إلى الانسانية
الخالصة التي أفسدوها بحضارتهم وضربوا عليها الحدود من
مصطلحات التمدن ومن أصول المعاملة فأصبح الانسان منهم يقضى
العمر وهو يتعلم كيف يصير انسانا .. ١

وأنا يا بني في خاصة نفسي أكره الحرب لأنني أراها
تُصور بكل ألوان الهلاك والخراب فكرة العدم المبهمة على
قطعة من أديم الأرض ؛ وأُمَّقَتُهَا لأنها تلوث الحياة بدماء الرجال
ثم لا تغسلها الا بدموع النساء والاطفال ؛ وأُبغضُهَا لأنها تدفن
تاريخها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر الا تاريخها المشوه
في أعضاء الجرحى ؛ ولكن البغض يا بني لا ينفي الحكمة مما
تُبغضُهُ ، وما سرور نصف الناس الا بما يكره النصف الآخر .
وأكبر شخص اجتماعي وهو الأمة كأصغر شخص
اجتماعي وهو الطفل كلاهما يبكي ويتألم حين يُضرب لتأديبه .
« قال « الشيخ علي » : وهذا آخر قول الشيخ علي ... »

على الكوكب الهاوى

﴿ حسناء أفقرتها الحرب ، وكيف تتلقاها الحقيقة ؟ ﴾

طريـدةٌ بؤسٍ ملٌ من بؤسها الصبرُ
وطالت على الغبراء أيامها الغبرُ
تسكرت الدنيا لها ورمت بها
على الكوكب الهاوى حواء فضاً قفرُ
وكانت كمشاءت وشاء جمالها
كاشتبهت العكيا كما وصف الشـعرُ
تلاؤلاً في صدر المكارم دُرَّة
يحيطُ بها من عقد أنسابها دُرُ
وما برحت ترقى السنين وتعتلي
وكلُّ المعالي في طفولتها حجرُ
فكانت كزهري نضر الفجر حسنة
ولما علت كالنجم أطفأها الفجرُ

* *

رمى الدهرُ أهلها بحرب ولم يرد
بها الشرُّ لكن الحروب هي الشرُّ

وَمِنْ مَحْطَمِ الْكَأْسِ الرَّوِيَّةَ وَحَدَّهَا
 فَقَدْ ذَهَبَ اثْنَانِ الزَّجَاجَةُ وَالْجَمْرُ
 تَقَاسَمَتِ الْحَسَنَ الْإِلَهِيَّ وَانْثَنِي
 يُقَاسِمُهَا ، فَلَا أَمْرُ بَيْنَهُمَا أَمْرُ
 فَلِلشَّمْسِ مِنْهَا طَلْعَةُ الْحَسَنِ مُشْرِقًا
 وَفِيهَا مِنَ الشَّمْسِ التَّوَقُّدُ وَالْجَمْرُ
 وَالزَّهْرُ مِنْهَا تَفْخَةُ الْحَسَنِ عَاطِرًا
 وَفِيهَا ذُبُولٌ مِثْلَمَا ذَبِيلُ الزَّهْرِ
 وَلِلظُّبِيِّ مِنْهَا مُقْلَتَاهَا وَجَيْدُهَا
 وَفِيهَا مِنَ الظُّبِيِّ التَّلَفُّفُ وَالذُّعْرُ
 وَمَا قِيَمَةُ الْحَسَنِ يَتَقَبَّحُ حَظُّهَا
 وَتَذَوِي بَرُوضِ الْحَبِّ أَيَّامُهَا الْخُضْرُ
 مِنَ الْحَسَنِ مَعْنَى يَهْلِكُ الْحَسَنُ عِنْدَهُ
 كَمَا أَهْلَكَ الْأَزْهَارُ أَنْ يُؤْخَذَ الْعِطْرُ
 فَمَا الْحَسَنُ نَخْرٌ لِلْحَسَنِ وَإِنَّمَا
 خَالِقُهُ فِيهَا يُرِيدُ بِهِ سِرُّ

ضَعِيفَةُ أَنْفَاسِ الْمُنَى بَعْدَ مَا غَدَتِ
 رِقَابُ أَمَانِيهَا يُغَلِّمُهَا الْفَقْرُ

وبين خُطى أيامها كلُّ عُرَّةٍ
 نُزَلُّ أقدامَ الحياة بها العُسْرُ
 وزجت بها الأُحزانُ في بحرِ دمعِها
 وليس لبحرِ الدمعِ في أرضنا برُّهُ
 يُقاذفُها موجُ الآيالي وما لها
 سوى زورقٍ واهٍ يُقالُ له العُسرُ
 وما التمسَتْ رأسَ الرَّجاءِ عند صخرةٍ
 فكان سوى رأسِ الردى ذلك الصخرُ
 إذا استنَبَّوْها أرسلت من دموعِها
 لآلئَ حزنٍ كلُّ لؤلؤةٍ فُكْرُ
 وإن سألوها لَجَلَجَتْ فكانما
 عرَا اللفظَ لما مرَّ من فيها سُكْرُ
 مُشَرَّدَةٌ حَيْرَى تنازعَ نفسَها
 فَرِيقانِ ذُلٌّ لم تعودَ والكِبَرُ
 وما قتلَ الذلُّ امرأً من عبيده
 وكم من فتى يرمى بهامته الفخرُ
 ولو أنصفَ الإنسانُ في قدرِ نفسه
 رأى قدرَها أن لا يهونَ لها قدرُ

فَلا تَسْأَلْ كَيْفَ تَقْدُ وَاِدْعَا
 وَلَكِنْ تَسْأَلْ كَيْفَ يَسْعَى بِكَ الذِّكْرُ
 وَكُن رَجُلًا كَالضَّرْسِ يَرْسُو مَكَانَهُ
 لَيْسَ طَحْنٌ لَا يَعْنِيهِ حُلُوٌّ وَلَا مَرُّ
 وَلَا تَتَوَقَّعْ أَىْ جَنِيكَ وَاقِعٌ
 إِذَا انْطَبَقَتْ يَوْمًا حَوَادِثُهَا النُّكْرُ
 وَلَكِنْ تَلَقَّ الدَّهْرَ غَيْرَ مُفْزَعٍ
 بِصَدْرِكَ وَلِتَعْرِ الْخُطُوبُ كَمَا تَعْرِ
 فَعِزُّ الْحُسَامِ الْهِنْدُ وَأَنَّى صَدْرُهُ
 وَذُلُّ الْعَصَا أَنْ الْعَصَا كُلُّهَا ظَهَرُ
 وَلَنْ يَهِنَ الْحُرُّ انْتَضَى عَزَمَاتِهِ
 وَصَالَ بِهَا مِنْ صَبْرِهِ الْخُلُقُ الْحُرُّ
 وَإِنْ تُغْلِبِ الْأَبْطَالُ فِي كُلِّ حَوْمَةٍ
 فَمَا عُرِفَتْ حَرْبٌ بِهَا غُلِبَ الصَّبْرُ

وَلَيْلَةُ هَمٍّ مَا يَطِيرُ غُرَابُهَا
 وَلَا انْحَطَّ مِنْ وَكَرِ الصَّبَّاحُ لَهُ نَسْرُ
 تُطِيلُ عَلَيْهَا الشَّهْبُ أَعْيُنَ تَقْمَةٍ
 تَطَايَرُ فِيهَا بَيْنَهَا النَّظَرُ الشَّرُّ

وَيَزْفِرُ فِيهَا اللَّيْلُ زَفْرَةً مَارِدَةً
 تَطِيرُ لَهَا مِنْ بَرْقَةِ الشَّعْلِ الْحُمُرُ
 وَيَخْفِقُ فِي أَحْنَائِهَا كُلِّ عَاصِفٍ
 خَفُوقَ فَوَادٍ بَاتٍ يُسَلِّمُهُ الصَّدْرُ
 وَيَغْضَبُ مِنْ آثَامِهَا الْمَوْتُ غَضَبَةً
 يُرَجُّ لَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ قَبْرُ
 دُخَانِيَّةٍ هَوَّجَاءُ لَوْ مُدَّةً نَقَعُهَا
 لَقَامَ عَلَى وَادِي الْجَحِيمِ بِهَا جِسْرُ
 وَأَهْوَنُ مَا فِي أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا
 عَلَى النَّاسِ هَاتِيكَ الْحَزِينَةُ وَالْبَدْرُ (١)
 ثَوَتْ تَحْتَهَا تِلْكَ الْفَتَاةُ عَلِيلَةٌ
 تَسِيرُ كَمَا أَزَتْ عَلَى نَارِهَا الْقِدْرُ
 وَفِي غُرْفَةٍ مِمَّا بَنَى اللَّهُ لَا الْوَرَى
 فَلَيْسَ عَلَى مَنْ حَلَّ سَاحَتِهَا أَجْرُ
 جَوَانِبِهَا شَرْقُ الظَّلَامِ وَغَرْبُهُ
 وَفِي سَقْفِهَا ضَاءَاتُ كَوَاكِبِهِ الزُّهْرُ

(١) حتى البدر لا بهجة له الا في ليالى الصفاء وفي غيرها يتصعلك

مَمْدَدَةٌ كَالسَّطْرِ فِي صَفْحَةِ الْمُسْنَى
وَأَطَارُهَا تَبْدُو كَمَا «سَطِب»^(١) السَّطْرُ
فَإِنَّكَ أَهْلُ الْأَرْضِ أَرْقَامَ حَاسِبٍ
فَتِلْكَ وَرَاءَ الْعَالَمِينَ هِيَ الصَّفَرُ
* *

رَمَتْ عَيْنَهَا يَمْنَى وَيُسْرَى فَلَمْ تَجِدْ
عَلَى الْأَرْضِ خُلُقًا فِي جَنْبِهِ غَدْرُ
رَأَتْ كُلَّ مَخْزَاةٍ مِنَ الشَّرِّ تَلْتَوِي
وَيَهْرَبُ ذُعْرًا مِنْ جَنَائِثِهَا الْعُدْرُ
رَأَتْ أَنَّهَا تَدْمِي بِهِ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ
وَلَيْسَ سِوَى الْإِنْسَانِ فِي جُرْحِهِ ظَفَرُ
رَأَتْ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ يَطْغَى بِعَاقِبِهِ
وَيَجْهَلُ أَنَّ الْعِلْمَ عَنْ جِهْلِهِ زَجْرُ
أَلَيْسَ يَرَى الْإِنْسَانُ فِي الْقِرْدِ شَبَهَهُ
فَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ تَكْبُرِهِ سُخْرُ؟
كَمَا عَاقَبَ اللَّهُ الْأَسْوَدَ لِكِبَرِهَا
فَجَاءَ لَنَا فِي صُورَةِ الْأَسَدِ الْهَرُّ

(١) هذه الكلمة مما استعمله المولدون وفصحها الترميج وهو
إفساد الاسطر بعد كتابتها وفي معناها الفاظ أخرى

ذَاتُ هَذِهِ الْحَرْبِ الصُّرُوسَ كَأَنَّهَا
 مَرَّاحِلُ يُطَوِّبُهَا مِنَ الزَّمَنِ الْحَشَرُ
 وَمَا حَمِيدَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ مِثْلَهَا
 وَلَا كَانَ لِلشَّيْطَانِ فِي مِثْلِهَا شُكْرُ
 وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا رَجْفَةٌ الْأَرْضِ رَجْفَةً
 يَمُوتُ بِهَا عَصْرٌ لِيَحْيَا بِهَا عَصْرُ
 وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَطَرَةٌ دَمَوِيَّةٌ
 إِذَا دَانَتْ رُوحُ الْوَرَى فِيهِ الطَّهَرُ
 وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا غَضَبُ اللَّهِ لَا مَسْتُ
 مَخَازِي هَذَا الدَّهْرِ فَانْفَجَرَ الدَّهْرُ
 فَيَارَبُّ جَاءَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ مَحْنَةً
 عَلَى النَّاسِ، لَا إِلَّا عَمَانٌ مِنْهَا وَلَا الْكُفْرُ
 فِي كُلِّ نَفْسٍ غَضَبَةٌ مَا تُسَيِّغُهَا
 وَفِي كُلِّ قَلْبٍ كَسْرَةٌ مَا لَهَا جَبْرُ
 وَبَيْنَ شِفَاةِ النَّاسِ لِلنَّاسِ لَعْنَةٌ
 إِذَا لَمْ يُثَرِّهَا الْحَقُّ ثَارَ بِهَا الْخُسْرُ
 وَمَا لَوَتْ الْأَسْيَافُ فِي الْأَرْضِ عُرْوَةً
 مِنَ الْبُغْضِ إِلَّا وَالرَّعُوسُ لَهَا زِرُّ

فَلَا تَخْذَعُوا الْإِنْسَانَ عَنْ نَزَاغَاتِهِ
 فَمَا النَّاسُ إِلَّا مَا أَسَاؤُوا وَمَا سَرُّوا
 بِكُمْ قِيلَ « إِنْسَانِيَّةٌ وَمُحِبَّةٌ
 وَعِلْمٌ وَتَعْدِينٌ » وَأَشْبَاهُهَا الْكَثِيرُ
 نَفِياً قَدَرًا يَجْرِي دِمَاءً وَيَلْتَضِي
 سَعِيرًا أَذَاكَ الْحَبُّ أَنْتَ أُمُّ الْهَجْرِ
 وَيَاهُذِهِ لَا تَجْجَدِي إِنَّمَا الْوَرَى
 كَمَا خَلَقُوا وَالْمَكْرُ بَعْدُ هُوَ الْمَكْرُ
 وَأَيْنَ مِنَ النَّاسِ الْكَمَالُ وَلَمْ نَزَلْ
 نَرَى السُّودَ سَوْدًا لَيْسَ يَغْسِلُهُمْ مَحْرُ
 وَلَا بَدٌّ مِنْ ضِدِّينِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
 وَبَيْنَهُمَا إِمَّا النِّجَاةُ أَوْ الْأَسْرُ
 بِذَلِكَ يَجْرِي الْغَيْبُ إِنْ طَارَ أَوْ هَوَى
 فَإِنَّ جَنَاحِيهِ الْمَنَافِعُ وَالضَّرُّ
 فَلَا تَطْمَعِي أَنْ تُغْفَلَ الْأَرْضُ أَهْلَهَا
 وَلَا مَدٌّ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا لَهُ جَزْرُ
 وَلَا تَطْمَعِي أَنْ « يَرْفَعَ » الْمَالُ أَنْفُسًا
 يُحَرِّكُهَا مِنْ ذُلٍّ مَطْمَعِيهَا (الْجَرُّ)

ولاتأملن الأيَّامَ خُضِرَ أَعْلَى الْمَدَى
ففي كلِّ حينٍ بَسْطُ الْوَرَقِ النَّضْرُ
ولا تسألن الزَّلْزَالَ تَرْقِصَ طِفْلاً
وأصغرُ ما في كَفِّهِ الْجَبَلُ الْوَعْرُ

* *

ألا إنما الدُّنْيَا سَلَالِيمٌ يَرْتَقِي
بِهَا النَّاسُ تُغْرِيبُهُمْ أَوَاخِرُهَا الْغُرُ
تَذَرُّوا عُلَاهَا لِلْكَامِلِ وَعِنْدَهُمْ
مِنَ الْعِلْمِ أَسْبَابٌ يُقْسِرُ لَهَا السَّحَرُ
فَمَا بَرِحُوا يَرْقُونَ كُلَّ بَعِيدَةٍ
وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَامِلَ لَمْ يَذَرُّوا
فَلَمَّا عَلَوْا وَاسْتَحْمَقُوا وَتَتَابَعُوا
وَغَرَّهُمْ بِاللَّهِ ذَلِكَ فَاغْتَرُّوا
تَهَاوَوْا عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَخَطَمَتِ
بِهِمْ دَرَجَاتٌ كَانَ مِنْ فَوْقِهَا النَّصْرُ
كَذَلِكَ سَلَالِيمُ الْحَيَاةِ فَكَلَّمْنَا
طَمَوحاً لِأَعْلَاهَا وَفِي الْوَسْطِ الْكَسْرُ

مصطفى صادق الرافعي

الفصل العاشر (١)

﴿الجمال والحب﴾

وكأَنَّمَا أَنْظَرُ الْآنَ فِي قَلْبِ رَجُلٍ لَا فِي وَجْهِهِ إِذْ تَهَلَّلَ عَلَى
السَّحَابِ وَجْهُ «الشيخ علي» شيخ المساكين
أَرَاهُ كَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ ضَاحِكًا غَيْرَ الضَّحِكِ الَّذِي يَلْبَسُ
وَجْوهَ النَّاسِ ، فَلَا بَضْحَكَ لشيءٍ إِنْسَانِيٍّ بَلْ مَا هُوَ إِلَّا أَنَّ تَرَاهُ
قَدْ تَهَلَّلَ فَرَفَعَ وَجْهَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَأَرْسَلَ مِنْ فَمِهِ مَنبَلَ نُورٍ
التَّسْبِيحِ فِي إِشْرَاقٍ جَمِيلٍ ؛ حَتَّى لَقَدْ كَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ حِينَ أَبْصُرُهُ
عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ أَنَّهُ لَا بَضْحَكَ وَلَكِنْ قَابَتُهُ يَرْتَعَشُ
بِعَضَلَاتٍ وَجْهِهِ .

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ خَيْرَ الْوَضْعِ فِي أَبْصَارِهِمْ أَشْعَةً نَزَبَتْ
فِي أَطْوَاءِ الْقُلُوبِ فَتَعْرِفُ أَلْوَانَ الْعَوَاطِفِ وَتُمَيِّزُهَا لَوْنًا مِنْ
لَوْنٍ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْوَجْهَ غِطَاءً عَلَى مَعَانِي الْقَلْبِ سَاطِطٍ
الْفِكَرِ عَلَى مَعَانِي الْوَجْهِ وَمَعَارِفِهِ بِصُورٍ فِيهَا مَا شَاءَ مِمَّا لَهُ أَصْلٌ
فِي الْحِسِّ وَمَا لَا أَصْلَ لَهُ حَتَّى لَا يَخْتَبِيهِ إِلَّا إِنْسَانٌ عَنِ الْإِنْسَانِ

(١) هذا هو الفصل الذي أسرنا إليه في تعلق صفحه ٣٤ نقله عن
كتابتنا «السحاب الأحمر» وقد وضع هناك «المساكين» الحب وهو
وأي من آراء كثيرة أسويهاها في ذلك الكتاب وفي صوره «الرسائل»

وهو مكشوفٌ لعينيه وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخير والشر صريحين فقد أوجد الإنسان ثالثاً لهما وهو تلبيس أحدهما بالآخر؛ وأراد الخالق ذلك ويسره للإنسان فجعل فيه آلة واحدة للصدق وهي القلب وآلتين للكذب: وجهه ولسانه

*

**

كان « الشيخ علي » يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته ^(١) وكانت الدنيا كأنما نسيت أنه فيها فتركت له روحه صافية منطلقة تتطعم الحياة غير مستقرة في شيء كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر فهو يتسحب عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر .

وما زالت روح هذا الرجل من منذ عرفته كأنها نضاجة عطر ^(٢) تمسح رشاشها على حياتي روحاً وعبيراً وندى ، وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قاي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولة ورقية ؛ ولو أن أحداً خلق من عيني الطفل الضاحكتين

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ اللسان ولا السانية

فيهم والشيخ علي لم يكن له من حظ اللسان إلا الجرء والقمة وغمضة العين

(٢) رشاشه العطر وهي ترجمة وضعناها للكلمة Vaporisateur ويسمونها

لكان هو (الشيخ على) رحمه الله ؛ على أنه كان رجلاً من سوسه
القوة معصوباً مُتَكَدِّساً (١) يملأ جِلْدَهُ كأنه جذلٌ من
أجذالِ الشجر (٢)

*
* *

وانقبضتْ نفسى اقباضةً شديدةً إذ تغير الرجلُ في خيالى (٣)
فنظر الى نظرةٍ يتقدحُ منها شررُ الغيظِ ، فلو أبصرتْ عيناك
طاراً ضعيفاً أراغته نسرٌ فاستطردد في نواحي الجوِّ هكذا وهكذا (٤)
ثم أهوى له بمخالبه ثم سدَّد اليه نظرةً غرزتْ هذه المخالبَ
وانفجرتْ بآلام لحمه ودمه ، فاعلم أن تلك هى كنظرة (الشيخ) الى
ولقد تبعثرتْ لها شياطينُ نفسى فانطلقتْ بمحاول كل
شيطان منها مهرباً وكانت تُوسوسُ في صدرى أن أُستَمِدَّ
من روح (الشيخ) قولةً فى الحب ، هذا الحب الذى مهما اعتبرته
لم تجده إلا كإحياء الخيالاتِ بقتل حقائقها . ثم ما لبثت أن

« ١ » المتكدر المتلى عصلاً والمعصوب الشديد طلى الجسم بعصاه

على بعض ومن سوسه أى من أصله وطبيعته أو كما يقول العامة « من عوده »

« ٢ » ما عظم من أصولها

« ٣ » أى هنا وهناك فرارا من الضعيف وطارادا من الهوى

« ٤ » أى حين طهر على السحاب الأحمر . وكما نستوحى ذلك

الكتاب من ارواح سخيلها في شعاع احمر كما وصفناه في أوله

استضحك وأطلق لي نفسى وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة
 فقلت ويحك يانفس ، إن عين (الشيخ) ترى من الجمال غير
 ما ترى ، ثم تعلم علمها مما نظرت فيه ، ثم تقدره على حساب
 ما تعلم منه ، فما يدريك لعل هذا الرجل الروحاني لا يرى إلا
 ما وراء تلك البشيرة الجميلة التي تكسو وجوه النساء الجميلات
 كما نبصر نحن من وجوه الموتى وقد تأكل جلدوها وتناثر
 لحمها وبرزت عظام كسائر العظم من كل حيوان ؛ فلا موضع
 قبلة ولا سحر نظرة ولا إشراق بسمة ، وما هو الا تركيب
 من العظم صنيع هذه الصنعة تيسيراً لما خلق له . ولعله يانفس
 لو حشر الله لعينيك أجمل الجميلات في صعيد واحد وحشر
 معهن إناث البهائم صنفاً صنفاً ثم نزع عن تلك الوجوه كلها ذلك
 الطراز من الجلد وماوراءه من اللحم مزرعة بعد مزرعة (١) حتى
 لا يبقى إلا الوضع في بناء العظام وهندستها ؛ فما يدريك لعل
 أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذ إلا أقبح القبح هناك ؟
 أفمن جأدة على وجه امرأة يجيء الشعر والجنون معاً
 ويجنمعان في هذا الخيال الذي سمي الحب ويسنزلان معاني
 التقديس من أعلى السموات الى عين تأخذ لحظة وشفة
 تبسم بسمة ؟ (٢)

(١) هي القطعة من اللحم (٢) لرسائل الاحزان والسحاب الاحمر

انه القلم الالهي المبدع الحكيم هو الذي صور ولون
وافتن ماشاء ؛ فان رزقت امرأة جلدة جميلة مشرقة كما
تجري فيها الشمس ، والبيست أخرى جلدة قبيحة سفهاء (١)
تجول فيها رهبة الظلمة ؛ فكلتاها صورة من صنع الله ،
وكلتاها تظهر لونا من ألوان الحكمة ، وكلتاها جاءت لمعنى ،
وكلتاها بعد غشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه ولا
في تلك ؛ وضع الحقيقة الجسمية التي تحمل الحياة بأدواتها
الكثيرة . والحياة لا تعرف البشرية الاغطاء على ماوراءها

اسود أو ابيض ، وكان من لون المرمر أو من هيئة الطين
ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خلق دميما نافرا على أبشع
ما تتصوره من القبح لكان كل نساء الدنيا جميلات إذ يالف
الطبع الانساني تلك الصورة الواحدة ويتقرر بها الذوق في الجمال
وتستمر بها العادة فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة ولا

في فلسفة الجمال والحب ، كتاب ثالث مسمي لهما واسمه « أوراقي الورد
— رسائلها ورسائله » وسنسمو في به ما بقي مما لم تثبته في الكتابين
وسنصدره ان شاء الله بعد هذه الطبعة « المساكين » بقليل . وفي
هذا الكتاب رسالة مفردة « لوهم الجمال » وأنه أسلوب من أساليب
الطبيعة لخداع صورة بشر به بصورة بشرية منها (١) السفع سواد
مشرب بحمرة والمراد بهما فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

يُخَالَفُ مَذْهَبُ مَذْهَبًا فِي حَالَةٍ

وَلَكِنْ هَذَا الْإِنْسَانُ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ ؛ يُنْفَخُ وَخُلِقَ
مَعَهُ مَا يُطْفِئُهُ وَمَا يَسْتَفِيزُهُ وَمَا يُخْرِجُهُ عَنْ طَوْرِهِ ؛ كَمَا خُلِقَ
لَهُ مَا يُزْهِدُهُ وَمَا يُطْمِئِنُّ بِهِ وَمَا يَحْصِرُهُ فِي انْسَانِيَّتِهِ . فَالْجَمِيلَاتُ
وَالْقَبِيحَاتُ كُلُّهُنَّ سَوَاءٌ فِي أَنْهِنَّ نِسَاءُ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ لَا تُقْصَرُ
فِي ذَلِكَ وَاحِدَةٌ عَنْ وَاحِدَةٍ وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُنَّ فِي أَسْبَابِ الشَّقَاءِ
الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي يَبْتَلِي الرَّجُلَ بِالْمَرْأَةِ وَيَمْتَحِنُ الْمَرْأَةَ بِالرَّجُلِ
وَلَوْ سَمَا عَقْلُ الرَّجُلِ إِلَى الْغَايَةِ الْعُلْيَا مِنْ كِمَالِهِ لَرَأَى الْمَرْأَةَ
الْجَمِيلَةَ الْفَاتِنَةَ فِي نَصْفِ جَمَالِ الْمَرْأَةِ الْقَبِيحَةِ ، وَلَبَانَتْ الْوَاحِدَةُ عِنْدَهُ
مِنَ الْآخَرَى بِأَنَّ الدَّمِيمَةَ مُهَيَّأَةٌ فِي نَفْسِهَا لِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَالْجَمِيلَةَ
مُهَيَّأَةٌ لِسَفْسَافِهَا ^(١) ؛ وَلِرَأَى مَعَ هَذِهِ مِنْ بَعْضِ طِبَاعِهَا وَنَزَاعَاتِهَا
شَرًّا مِمَّا تَقْدِّمُ بِهَا مِنْ جَمَالِ وَجْهِهَا ، وَمَعَ تِلْكَ مِنْ أَكْثَرِ طِبَاعِهَا
وَصِفَاتِهَا خَيْرًا مِمَّا قَصَّرَ بِهَا مِنْ حَسَنِ صَوَرَتِهَا .

بَيِّنْدَ أَنْ مِنْ شَقْوَةِ الطَّبْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَنَّهُ سَخِطَ الْقَبِيحَ فَأَحَالَهُ
فَسَادًا وَعَبْدًا لِلْجَمَالِ فَأَحَالَهُ فُسَادًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ، إِذْ كَانَ فِي نَفْسِهِ وَجْهٌ
لَا يَعْتَبِرُ الْمَنَافِعَ وَالْحَقَائِقَ وَلَكِنْ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ ؛ وَالْمَنَافِعُ
وَالْحَقِيقَةُ كَلْتَاهُمَا لَا تَكُونُ إِلَّا فِي قَيُودِهَا ، أَمَّا الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ

(١) السفساف الدنيء وأصله ما يتطاير من الغبار إذا أثير ومن الدقيق
إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه

فهي دائماً تقع إلا مستحطية حدود العقل إما إلى النقص وإما إلى
الزيادة ولا تغري بشيء إلا أوقعت به السوء إذ لا يستوي في
القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو مقيد بالحقيقة

كان هذا وحى «الشيخ على» في نفسى غير أنى رددته عليه
وأزلىنى شيطان الحب مرة أخرى فقلت : أفترى الشوهاء على
ما بها مماركع للدهر وسجيد (١) ، ثم تلك المرأة التى سمج
تركيبها فتحاتها العيون ، ثم الأخرى التى قبعت فى بيتها تحبى
فيه من القبح (٢) فصارى سر آفى صدر الحيطان ، ثم تلك التى تلوح
فى النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التى
أدبر جسمها (٣) وتقبضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشى
وتتكلم . أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة فى
ألوان الثياب كأنما تلبس بدنّها الجميل بدناً معنوياً يدل على معانيه ،
أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتان عاطلة من كل حلية ومع
ذلك ترف على حسنها روح الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال ومقوطةا فيه ويقال ركع

للدهر وسجد إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء ما به من الذل (٢) هي
القمعة «بوزن ملكة» وجمعها قمعات «كملكات» من تستتر لما ابتليت به

من قبح الصورة (٣) كاديفنيها الهزال وتسمى المصوصة

البريق والشعاع أو المطوية المشوقة المستترساة كأنها في
قوامها ووجهها غصن الجمل وزهرته ، أو الحسناء اللعوب
المزاحة كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطل في ليلة من
ليالي الربيع بداعب أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك (١)
(ياشيخ على) ... ؟

(قال الشيخ على) فيا ويلك ، إني والله بك من رجل خبير (٢)
أمن أجل واحدة ، ؟ أما إنه لعل الذي جعلها حقاً عندك
هو الذي يجعلها باطلاً عند سواك ولعله ما حسنتها في عينك إلا أن
طبعاً من الجدد فيك استملح طبعاً من الهزل فيها كما ترى معني
مكدوداً في إنسان يستروح إلى تقيضه في إنسان آخر .
ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهوم أن يتصور في
همه من يعرفه طروباً فرحاً وإن كان كلاً الرجلين لا يسكن
لمسره الآخر لو تعاسرا واختلطاً ، وهذه القلوب لا تؤتى من
ماتى هو أدق وأخفى من توهم مافيه اللذة فإن النفس ترجع
عند ذلك بكل حمائنها إلى نوع واحد من الوهم ينصرف بها إلى
تمثيل هذه اللذة التي استشرفت لها وطمعت فيها ، فإذا طعمتها

« ١ » إشارة إلى فتاه « رسائل الاحران » فاطر وصفها هناك

« ٢ » أي حبرك وبما سطر وتحمي

في الدم يهيج لها سعار^(١) الجوع العصبي . وما هي السرقة
منلاً إلا أن يضع اللص عينه على المال أو المتاع ويتذوّق طعم
اليسر والفائدة فتسجن أعصابه جنون الحاجة فلا ترعوى الى
شيء من الرأي يزجره أو يمنعه أو يكفه، ويكون في الحقيقة
سارقاً من قبل أن يسرق . وكذلك يكون الفاسق متى نظر الى
المرأة واشتهاها ونبت معانيها في معانيه ، وقيل منل هذا في كل
من طار قلبه أو طار صوابه

الله عن وهمك يابني وضع الامر على فاعده وسدد
نظرك الى حقيقته ودعني من حبل الباطل الذي تجر فيه شيطان
هواك أو يجرك هو فيه . وما ننكلم عن اثنين من الخابئة أنت وهي ،
ولو أن الامر قد انحصر فيكما وقنيت بالحب فيها لكانت هي
الكون كله ولو فنيت هي فبك لكنت أنت ذلك الكون .
وهذا حرسك الله موضع النقص في النفوس العاشمة إذ نقطع
إحدى نفسين من العالم الى نفسها الاخرى . وهو نقص أشبه بجنون
المجانين بل هو متم له ، فأنما ذهاب العقل في الجنون المخذت بل
هو نصف الجنون الانساني أما النصف الآخر فهو مجرد العقل
في العاشق المتدله .

(١) ما يأخذ من الجوع الشديد سه الجنون وحاله الاعصاب متى احتاجت

لامر لا نكون . الا هكدا وبخاصه إن كان هذا الامر من الحب

نصف الجنون في العاشق الذي يتجرد من الناس إلا مَنْ أَحَبَّ ، ونصفه في المَعْتُوهِ الذي يتجرد من الزمن إلا الحاضر . إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبلٌ إذ لا يأملُ هذا ولا يذْكُرُ ذاك ، وكلُّ سعادةٍ نفسه في هذا النسيان الذي طمسَ عليها وتركها كأنما تعيشُ في غير عمرها ، بل في كل أعمار الإنسانية ، بل بغير عمر ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخر ممن مضى وممن يأتي مادام الحب قائماً ، فالحبيب هو الحبيبُ وكلُّ الناس بعده أدْوَات . وشخصٌ واحدٌ هو الألفُ واللامُ والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطةٌ صغيرةٌ ملقاةٌ تحت الباء فقط

قال «الشيخ علي» ثم يبرأُ المجنون ويثوبُ إليه عقله فيعرفُ أنه كان مجنوناً ، ويبغضُ الحبَّ أو يسلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً . أفلا يكفي هذا ويحك في الدلالة على أن الحب والجنون من أمٍّ واحدة وإن اختلف أبواهما وأن رأى العاشق في كل النساء كراي المجنون في كل الناس ، لا يجوز أن نأخذُ بواحد منهما إلا إذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل إذ كلاهما حاصلٌ من حالةٍ متغيّرةٍ فالتقابتُ اعترَفَ صاحبُها عليها بالجنون وإن كانت إحدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غير الأخرى؟ ويُسَلِّمُها وصفاً

من العاشق لو كان مع صاحبه رأى (١) ، وويلته رأياً من المجنون .
لو كان مع صاحبه عقل .

« قال الشيخ علي » : سئل الحلاج (٢) وهو مصلوبٌ يُعاني

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الاسر ، تشعر الادم ولا يريدونه وأصلها
ويل أمه ولكنهم يسقطون الهمزة ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة
وتزسم كلمتين اذا أمن الخطأ فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير اختلف العلماء
فيه اختلافا كبيرا ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما قرأنا
عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة نفسها
هي موضع المعرفة وموضع الجهل معا : ومن أبدع ما قرأناه في ذلك أن
أصحاب الشيخ عثمان القرشي من أكبر علماء مصر في علوم الحقيقة
والشريعة قالوا له يوما : مالك لا تحدثنا بشيء من الحقائق . فسألهم كم
اصحابي اليوم : قالوا ستمائة فقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم فقال
اختاروا من هؤلاء عشرين فاخاروهم فقال استخلصوا من العشرين
أربعة فكان الاربعة أئمة الجماعة ، ابن القسطلاني و ابا الطاهر وابن الصابوني
وأبا عبد الله القرطبي . قالوا فلما انتهى الامر على ذلك قال الشيخ رحمه الله : لو
تكلمت بكلمة من الحقائق على روس الاشهاد لكان أول من يفتي بعلي
هؤلاء الاربعة . قلنا فتأمل غور هذا البحر فما أبعد غورا ، وتوفي

غُصَّةَ الموت : ما التصوف ؟ فقال لسائله أهونُهُ ما ترى ... فهذا رجلٌ يموتُ في سبيلِ حقيقة تقتلهُ بغموضها السماويِّ العجيب ؛ وعلى أنها قد دقت المساميرَ في أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلها ، وأنبتت في كبده من خزّات الجوع شجرة من الشوك ، وأطلقت في عروقه من كدّعات العطش لهيباً من النار ، وتركته على عوده ممدوداً تتساقطُ نفسه كما يُنشرُ الثوبُ الذي بلى وانسحق فهو يتمزق من كل نواحيه — على هذا البلاء كله لم تتغير الحقيقة في رأى الرجل ولا فسد موضعها في نفسه ؛ ولا رأى ما يكرهه الناس من الألم مكروهاً في ذاته فيميل عنه ولا ما يحبونه من اللذة محبوباً فيميل إليه ، ولا تسحب قابله حركة واحدة في السخط على الحكمة الإلهية فانتقصها برأى أو اغتمزَ فيها بكلمة ؛ بل نظر نظرة الحكم من وراء الحدّ الانساني المنهي فيه ؛ الى ما يبدأ عنده الحدّ الإلهي الذي لا ينتهي ، ورجع آخره الى أوله فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزل به : اللهم إنيك بدأ نني طفلاً غراً جعله فقدان العقل لا يملك مع أحدٍ إلا صياحه فخذني اليك طفلاً عاقلاً جعله العقل لا يملك مع أحدٍ ولا صياحه

واذكر الطفل يا بنيَّ فرُبَّ مُعضلةٍ من أمور هذه الدنيا يحار الناس في آخرها وهي محلولة من أولها ، وما هو إلا طفلٌ

إلا الأساتدة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا غير أننا لا نأخذ عنهم
فلا نصلح ويأخذون عنا فيفسدون. أفرأيت ولد الشوهاة
تعرف عيناه في كل ما طلعت عليه الشمس أجمل من وجه أمه أو
يرى طائلاً في وجه سواها أو يحسن إلى غير طلعتها أو يسكن إلى
صدر غير صدرها حتى كأن الله لم يخلق وجه حبيب لقبلات
محبه إلا وجهها هي لقبلاته ؟

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحية صفاته هو فإن
القلب اذا لم يكن بهيمياً منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى
الاخيراً ، ولبيست المرئي صفة الرائي فلا ينظر إلا جمالا ، واتصل
الشعور الطيب الرقيق الجميل بنظر النفس وبين ذات النفس
كما يصل الشعاع الذي ياتى على حائط من المصباح — بين هذا
الحائط وبين المصباح فيغشيه النور وان كان الحائط نفسه من
الطين . فاذا كان القلب بهيمياً زائفاً عن الانسانية الى حيوانيته ،
استفاضت ظلمته وشهواته على ما حوله فان بشهد من صفات
الجمال شيئاً بل يرى في كل شئ من صفات نفسه هو ، حتى ليكون
الوجود كله في عين بعض الناس كما يكون الطعام كله في فم
بعض المرضى . ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها
جمالا أبسنة وإن هو خدع نفسه في ذلك واختدع الناس ،
وانما يرى فيها شهوات ؛ شهوات جميلة لبس غير

أما القلبُ البهيمى غير المنعكس وهو ذاك الذى تحمله
البهائم — فلا يحتفل فيه عقلٌ ولا يحتشد فيه خيالٌ وما هو الا .
أن ينسحب الحيوانُ به على محض المنفعة لأنه عاملٌ فى الطبيعة
يُعَدُّ من عمالها لا من شعرائها ... فليس عنده جمالٌ يقع فى
ظاهر الروح واخرُ يقع فى باطنها وثالثٌ مستوهم لا يقع ولا يتمتع
أن يقع (١) ؛ وليس يعرف من معنى القبح الا أن تكون الأثرى
قد طاش بها المرضُ فما تستقلُّ إعياءً وضعفاً . وبذلك
سَلِمَتْ إناثُ البهائم من شر كثير يملأ لغة الحياة النسائية
بمعانيه ويجمعه كلمتان : الجمال والقبح

والناحية الأخرى التى ينظر منها الطفلُ لأمه الدائمة
الشوواء ناحية الصفات الالهية ، فان الحب الصحيح الذى يمكن أن
يُسَمَّى حباً لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيبٍ وتناسقٍ
وغيرها مما يظهر البشرية على أتمها وأحسنها فى الشخص المحبوب
كما يظن الناس خطأ ؛ بل هو فى عكس ذلك أى فيما يُخفى البشرية
بمحاسنها وعيوبها جميعاً ويُظهر فى أمكنتها خصائص الروح
المحوبة وحدتها . فمن ثمَّ يبدو لك شخصُ المحبوب على أى أشكاله

«١» رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهى : ان الجمال اذا وقع

فى ظاهر الروح كان صراحة واذا وقع فى باطنها كان فصاحة . فزادنا عليها

ما هو فوقهما مما لا يعرف الا بالسُخيل ولا حقيقة له فى الواقع

وهيأته كأنه تمثال سماوي^١ وُضِعَ لروحك خاصة فهو محبوب من
 مادة واحدة هي مادة الفتنة ، ولو كان في أعين الناس كافة تمثال
 الأرض السفلى يُصور كل ما تشئت فيها من القبح
 فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهوراً يستفيض على
 وجهها وجسمها ويجعل كل شيء فيها ذا معنى منه وكل معنى منه
 ذا معنى فيك ، فما أنت من حبها في شيء ولو ذُهِبَتْ من جمالها
 يعقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء
 كسيلة البدر في الليالي . ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض
 معاني الوحي ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية^(١) في
 النفس التي تعشقها ، وهل ملك الوحي الا قوة المزج السماوي في
 نفوس الأنبياء ، وهل روح الحبيبة إلا على قدر من مثل هذه
 القوة في نفس محبها ؟ ولعل هذا يفسر لك سرّاً من أسرار
 الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيسمها الحب فان تلك
 القوة المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها
 واشتعلت فيها فأكلتها أكل النار للشيم وتركتها تحترق أسرع
 ما تحترق لتنطفئ أسرع ما تنطفئ

« قال الشيخ علي » تلك هي الحقيقة يا بني فلن يأتى لكائن

(١) نسبنا الى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة الى الملاك

« بكسر اللام » فانها ملكية « بفتح اللام »

مَنْ كَانَ أَنْ يَقْسِمَ النِّسَاءَ إِلَى جَمِيلَاتٍ وَقَبِيحَاتٍ إِلَّا إِذَا طَوَى فِي ذَلِكَ مَعْنَى الْقِسْمَةِ إِلَى شَهَوَاتٍ جَمِيلَةٍ وَشَهَوَاتٍ قَبِيحَةٍ ؛ وَمَتَى انْتَهَيْنَا إِلَى هَذَا فَقَدْ خَرَجْنَا إِلَى الْمَخَاطَبَةِ بِلُغَةٍ لَا هِيَ مِنْ لُغَةِ الْبِهَائِمِ وَلَا هِيَ مِنْ لُغَةِ الْإِنْسَانِيَةِ .

أَفَرَأَيْتَ قَطُّ أَلْفَاظَ الْجَمَالِ وَالْقَبِيحِ تَشِيْعٌ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَتَعْلُو بِالْأَعْيُنِ عَنِ النِّسَاءِ وَتَنْزِلُ وَتَمْتَدُّ^(١) بِهَا وَتَنْقَبِضُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أُمَّةً ضَعِيفَةً الْقُوَّةَ قَدْ اخْتَلَتْ أَجْسَامُهَا ، أَوْ ضَعِيفَةً الدِّينِ قَدْ اخْتَلَتْ أَرْوَاحُهَا^(٢)

انْكَشَفَ الْقَمَرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِرَجُلٍ اسْمُهُ « مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ »^(٣) « فَإِذَا الْبَدْرُ أَسْوَدُ كَالْخَبَرِ وَإِذَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي وَسْطِهِ بِالنُّورِ » أَنَا وَحْدِي ؛ فَالْقَمَرُ نَفْسُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ كُلُّ ضِيَاءِ الشَّمْسِ عَلَيْهِ أَنْ يَسْوَدَ فِي عَيْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَنْظُرُ لِرُوحِهِ ،

(١) يُقَالُ عَلَتِ الْعَيْنُ عَنْ كَذَا أَيِ نَبَتَ مِنْهُ تَقَوَّرَ فَلَمْ تَلِصِقْ بِهِ فَاسْتَعْمَلْنَا مِنْهَا نَزَلَتْ كَمَا تَرَى (٢) شَرَحْنَا هَذَا الرَّأْيَ فِي بَعْضِ فُصُولِ السَّحَابِ الْأَحْمَرِ (٣) هَذَا تَهْكُمُ مِنْ « الشَّيْخِ عَلِيٍّ » يَرِيدُ بِهِ طَاشَةَ فَيَانَتَا وَفَتَيَاتِنَا مَنْ يَرُونِ الدِّينَ شَيْئًا قَدِيمًا فِي لُغَةٍ قَدِيمَةٍ وَتَقُوسَ قَدِيمَةٍ وَمَذْهَبَ قَدِيمٍ . فَلْيَهْنِئْهُمْ الْبَلَاءُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَحِلُّ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَحَلَّ الدِّينِ فَجَعَلَ الرَّجُلَ بِلَاءًا عَلَى الْمَرْأَةِ إِنْ تَزَوَّجَ بِهَا أَوْ أَهْمَلَهَا وَالْمَرْأَةُ بِلَاءًا عَلَى الرَّجُلِ إِنْ كَانَتْ لَهُ أَوْ لِنَفْسِهَا

فما الذى يمنع من ينظر لوجهه وخصائصها ان تصير المرأة القبيحة
فى عينه كالقمر الازهر ؟

*
* *

فى البدر ظهرت كلمة الألوهية « أنا وحدى » .
وفى وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية « أنا وحدى » .
فهل يمكن أن تقع الدمية من الحسناء أقبح ما يقع ظلام
القمر من نوره فلا تكون فى وجهها هي أيضاً كلمة الألوهية
« أنا وحدى » ؟

لم يبق فى البدر مع الحكمة العليا شيء يُسمى الجمال .
ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر ؛ فهي
مثلثة ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال
أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها فى وجه القبيحة
شيء اسمه القبح ؟

*
* *

القمر طالع مُشرق كما كان
والجميلة الحسناء لا تزال فاتنة .
والدمية ظاهرة كما هي .
لم ينقص الكون من ثلاثها شيء .
ولكن أين عين الرجل الكامل ؟

الفصل الأخير

﴿ الدين ولادة ثانية ^(١) ﴾

« قال صاحب المساكين : —

عرفتُ فيمن عرفتُ من أصناف الناس أربعة تجري أمورهم
في نفسى على غير مجاريها في أنفسهم ؛ وأرى من طبيعتهم موضع
الغفلة والحق فيما يرونه أو يحسبونه موضع السداد والحكمة :
« فالأول » رجلٌ ملحدٌ أديبٌ معننى بجمع الكتب
يتعلق بكل نفيس منها ، وهو يزعم أنه تأمل الأديان فلم يجد
طائلاً فى شئ وأن له فى كل دين ظنة على ريبة وتقداً
على مسألة وثانية على أولية ^(٢) ، وأنه تبدل الدين بالخلق ^(٣)
فما خسر شيئاً وربح الحقيقة ، ثم يخذو بعدُ على هذا الخذو وكما
يفعل الملحدون فى صفة أنفسهم وهم دائماً لا يأخذون من الكلام الا
بملء اليدين إذ من العجيب أن لا تقع لهم الكلمة الصحيحة المفردة .
هذا الذى خرج من الأديان ومن ههنا وأمرها الى الأخلق
وعهنتها وأدبها ؛ قال لى ذات يوم وقد خضضنا فى أمر الكتب :
إني لأمقت السرقة والغصب والخديعة ولا أبيع منها شيئاً

« ١ » هذا الفصل من زيادات هذه الطبعة الثانية « ٢ » كناية عن

لنعدد وانه لا يكتفى بواحدة (٣) بمعنى التغير لا الاستبدال

ولا أمرها لأحد ، غير أنى إذا وجدت كتاباً نفيساً وعجرت
عنه أو ضاقت به ذات يدي ثم أمكنتنى فرصة من الفصائل لم
أتورع أن أسرقه ولو غصبت ولو خدعت

قال هذا فلم أفهم من كلمته شيئاً إلا أن لقب « اللص »
يكون من الشرف أحياناً بحيث يسمو كثيراً على الرجل الملحد

(والثانى) رجل ، متفلسف انقابت عقيدته الى زيغ
فله رأيان فى أمور الحياة : واحد ينزع فيه الى طبيعته فيستمتع
ما وجد متاعاً فى حرام أو حلال وفى معروف أو منكراً . والآخر
يرجع به الى ضميره الانسانى وما هو إلا شبه بعلمه وعقله
وفلسفته فيألم ويستسلم لاذيرى انه لا يزن من لداته لا بمقايير الخير
ولا بمقايير الشر وأنه يبيع نفسه ويحرم على غيره ؛ فأنما رأى
والحق والعدل أن لا ينطلق فى كل انسان تاريخه الوحى كما يفعل
هو ليفوم النظام على أصوله وتتحقق الانسانية فى أفعالها ، ولو
فعل الناس ذلك فوسعتهم الفاسفة لما وسعتهم الطبيعة بل هى
تسرع حينئذ فنطلق اسكل حيوان مع أكيلته التى يغتذى بها
آكله الذى يغتذى به

لم أفهم من فلسفة الرجل انه فيلسوف ، بل عرفت من علمه
أن الرجل من الناس قد يكون سافلاً حتى من الجهة العاليه فيه
وقد يكون فاسداً حتى من بعض جهاته الصالحة

(والثالثُ) رجلٌ يزعم عند نفسه أنه مُصلحٌ ويتولى أمورَ الناس فيُداوِرُها ويلتمسُ لكل شيءٍ ما يُنتسبُ منه . الى إصلاح فيهم حتى اذا وثق الناسُ به واستكانوا اليه وصاروا في حال الغرّة وفي قياد الأمان ، صدعهم في أديانهم وأخلاقهم ورَكِبَهم بمزاعمه وخرافاته وبثَّ أوهامه في مذاهب أقدارهم وتصاريقهم ووظنَّ أنَّ كلمة يضعُ في موضعها كلمة غيرَها وحسب اليوم من أيامه في سحر الدهر كاليوم من أيام الله في خلق السموات فهو يطرُدُ الأُزمنةَ ويمحو العاداتِ ويغيِّرُ الطباعَ ويسرِنُ الفروع الشجرة سنّة جذورها فلا يذهبُ الفرعُ طالما بل يغورُ نازلاً ، ثم يريد أن يقيم على طريق التاريخ مجازةً أو قنطرةً لمشي بالناس فوق التاريخ فيقطع بهم الف سنة في الف يوم وكأنه زاد في الطبيعة ناهوس نهيه وأمره

أنا لا أقول في مثل هذا إنه مُصلح بل أقول يا عجبا لسخرية الأقدار من القوة ، ألا يرتفع النسْرُ في الجوِّ إلا ليهب أن تكون الجيفة

(والرابعُ) ذاك الذي جماعته الكتبُ عالماً وقسمت له ما شاء ولكن الله تعالى لم يقسم له شيئاً من كَرَمِ الضَّرِيبَةِ وشرف العِرْقِ ولا ألقى معاني الذهب في ساسلة آبائه .^(١) فهو

(١) في الاثر : لاتعلموا أولاد السفلة العلم « أولاد السفلة » فقط .

ورثة (١) لا يجيء في معاني الناس بطباعه وأخلاقه إلا كالشوب
الخلق من فتوق ورقع ، ويغطي عايه العلم كما تغطي القشرة
النضرة على المرة المرة ، فاذا كُتِبَ للناس ارتطم في طباعه
ونزع الى مأخذه وتجادب داخل نفسه وخارجها فيذهب
ينكروا ويعترض ويسفنه ما عليه الناس من دين وذائق وينزو
بهم في نوازيه ودواهيه ، ويرد كل ما في الطبيعة من الجمال وكل
ما في النفس من الحق الى تأويل مادي بحيث ، كأن الزهرة
الخارجة من الطين هي طين مثله ، ويسقط عنده كل ما عمل
الشعاع والماء في الذرة الا زلية التي انبثقت منها النبتة فخرجت
تورحي عن السماء وحي النور واللون

أنا لا أفهم أن مثل هذا عالم ولكنه في الناس كبعض النبات
في النبات يرزق من النمو قوة يفسد بها ما حوله ، فاذا هي
ظهرت فيه لم تنسبه على قيمته بأكثر مما تنبه الناس الى وجوب
اقتلاعه واستئصاله

* * *

لا ثقة لي بمتخلق لا دين له فان الخلق يصله بحظ نفسه
أكثر مما يصله بواجبات الناس ، ولا بفيلسوف ما جد لأن
الفاسفة تمزجه بالمادة أكثر مما تمزجه بالانسانية ، ولا بمصاح

(١) أي من البقايا التي لا خير فيها

ينسلخ من الدين لأن إصلاحه صورته من غروره ؛ ولا بعالم جاحد لأن علمه كهندسة الشوكة كلها من أجل آخرها . . . أولئك لا يدرون أنهم من هذا العالم في حدود أغراضهم الصغيرة الفانية إذ كان كل منهم يتناول الكون من حيث يحب هو لا من حيث يجب عليه ، ثم يفسر الأشياء في جزء منها لا في مجموعها ، ويعتبر الزمن عمراً كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموت ، وينظر إلى الغاية من الوجود كأنها داخلة في الحد مع أنها لو حدثت لبطلت أن تكون غاية

كل منهم صحيح في ذاته لكنه فاسد بموضعه من أغراضه أو من أغراضنا ؛ وما أشبههم بالأشجار في المقابر لا تجد لها في المقبرة ما تجد لها في الحديقة ، كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روح الحديقة فيها

لا تسمو حياة الفرد إلا إذا كان جزءاً من كل ، ولا يجتمع الكل إلا إذا كان تاماً فيما هو كل به ؛ فالسبيل أن يدفع الفرد أبداً إلى خارج حدوده الذاتية الصغيرة . وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفي معانيها إلا الدين الصحيح إذ هو خروج بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره ، وانتزاع له من ذاتيته إلى إنسانيته ودفع بالإنسانية نفسها إلى الكل الذي هو أسمى . فكان

الايمان في حقيقته إن هو إلا دُرْبَةٌ لهذا الانسان على الدخول في
اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضى على الفرد أن يتسع ويمتد في
انسانيته لا في شخصيته فيتخلق بالاخلاق التي تعم دون التي
تخص؛ وهذه صورة صغيرة من جعل الحدود في ذاته أعظم من
ذاته ودفع ما ينتهي في سبيل ما لا ينتهي .

فاذا عمل الفرد على أن يُقْفِلَ حدوده عاياه ويستغلق بها
ويعتصم من ورائها، صار كالقلعة المحصنة لا تصلح إلا حرباً لما
حولها ودفاعاً عما فيها فلن يضع هو أمره إلا على هذا المعنى،
ومن ثم فلن يكون له ممن يصادمونه إلا حكم واحد وهو تخريبه
وهدمه واقتحامه . فاذا كانت الحياة غير باقية على فرد من الناس
فمن الحق أن تكون هذه هي صورة الانسانية فيها، وإذا كان ذلك
حقاً فالحق ولا جرم بعض المعاني التي يقوم الإلحاد عليها

* * *

لبس في الأرض انسان لا أجداد له فمن ثم ليس على الأرض
إنسان في نفسه بل انسانية فقط، انسانية متصلة مفردة إفراغاً
ليس للفرد بينها موضع لذاته بل موضعه لا يصله بسائرهما كنزلة
الخليقة الواحدة بن الملايين من الخلايا المتلازمة في جسم واحد قائم
من جميعها صالح للوجود بصلاحها وفسادها معاً
أما إنها لعجيبة أن تلقى بسؤالين متناقضين لا يلتزمان ثم لا تجد

ولن نجد عليهما الاجواباً واحداً لا يختلف، سل الحكمة: لم صلح هذا؟ فالجواب ليكون شيئاً ضرورياً في الوجود. ولسانها لم فسد ذاك؟ فالجواب كذلك ليكون شيئاً ضرورياً في الوجود. هي الحلقة المفرغة لما غاب طرفاً ها صار كل موضع فيها طرفاً وعلت كلمها ونزلت كلمها

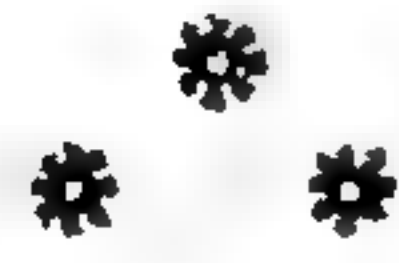
فليس الا النوع لا الفرد، والكل لا الجزء، والانسانية لا الانسان. وانما يقع كل شيء في الحياة — بل في الوجود كله — تدريجاً لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينقسم أحد منها، فهي ابداء ذاهبة بالجسم والعقل والمعرفة والعمر من جزء الى جزء؛ من الا صغر الى الصغير، الى الكبير الى الاكبر؛ الى الاوسع الى الاشمى، لأن تلك هي علامتها في حركتها وتسحبها؛ وهي طريقة برهانها بالنهاية على أنها لانهائية

يبدو أن خطأ الغريزة في الانسان يظهر في اعتبار الفرد نفسه كلاً تاماً وشيئاً متميزاً فلا يريد لنفسه الا أمراً تاماً ووجوداً يتميز فيه، وبذلك يقتحم سواء ويستبيح وجوده فيقع النزاع والعُدوان وكأنه يضيق بمقدار ما لا يستطيع أن يتسع لأن دفعه لكل ما حوله مردود عليه بدفع مثله مما حوله، فتتبدل صورة الانسانية في شكل دخاسة الغلط من كل جهاته. وههنا موضع الدين الصحيح فما هو الا الناموس القائم من كل انسان على الواقع

في ذاته والواقع في غيره ليصل بين الواقعين المختلفين بنظام مختلف
متحدٍ يكون له في النفس ما يكون لنظام المد والجذر
وبهذا كان واجباً حتماً أن تكون العقوبة جزءاً من نعيم
الدين ، وأن يكون القيد شقاً من حرية العقيدة ، وإلا بطلت
في الإيمان قوتتا الجذب والدفع معاً ييطان إحداها ، لأن مدداً
بلا جزر هو أخش الفرق من ناحية وجزرا بلا مد هو أخش
الفرق من الناحية الأخرى

تُعجبنى كلمة في الإنجيل لا أعرف أحداً أحسن تأويلها
وبلغ حقيقتها . قال « يجب أن تولدوا ثانية » ، ووضعها في هذا
المقال هو تفسيرها فإن الفرد يولد من الفرد ولكنه لا يصلح على
ذلك بل يجب أن يولد في صفاته وأخلاقه من المجموع الإنساني
لتقع الملائمة . ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن
يُفصح بها إنساناً فيجب أن يولد مرة أخرى من جنسه الاجتماعي
بغرائز مكتسبة . ثم إنه يولد مهياً للإقرار بنفسه وحدها
فيجب أن يولد الثانية مهياً لإنكارها وحدها
على هذه الأرض ، إما الإقرار بالنفس وإشارتها والاعتداد
بها ومع كل ذلك الحيوانية والشیطان ، وإما إنكارها والإشارة
عليها والمهاوئة بها ومع كل هذه الإنسانية والله
لن تطاق الحياة إلا إذا تبدلت فأتخذت لها أسلوباً غير

أسلوبها الآتى من تركيب المادة ، وإنما صراع الأرض كلها حول إقامة هذا الأسلوب الجديد أو هدمه أو ترميمه . أسلوب الأخلاق والطباع الشديدة التى لا تطيقها الحيوانية فتسميها إنسانية ، وتكبيرها الإنسانية فتسميها الإيمان . بالأسلوب الأول تكونون بالحياة فى موضعها ، وبالثانى تسمون بالحياة عن موضعها « فيجب أن تولدوا ثانية »



كل ما يراد به أن يسد فى الإنسانية مَسَدَ الدين ويُغْنِي عنه فأنما هو فى رأي كطعام أهل الجحيم ، لا يُطعمون فيها كما يطعمون فى (نَزْلِ) إِشْبَعٍ وَشَمْنٍ بل طعاماً كما جاء فى القرآن الكريم « لا يُسَمِّنُ ولا يَغْنِي من جُوع » أى لا يحدث الجوع وكَلْبِهِ واستمراره (١)

والطبيعة نفسُها تهىء الإنسانَ للدين بأسلوب غريب هو

(١) انظر اعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصف طعام أهل الجحيم وماهى بدار طعام بل دار عذاب ، فقال « لا يسمن » فينخدع الحس بالكاهة فيظن ان هذا الطعام ان لم يسمن فر بما ذهب بالجوع وإن لم يذهب به فربما اغنى منه ولوشيثا . فقال « ولا يغنى من جوع » فيصدم الحس هذه الصدمة . وينعكس عليه التأثير الذى توهمه قبل . ثم يشتد هذا التأثير و يبلغ مبالغة حين يتأمل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له الا ان طعام هؤلاء اذا كان لا يحدث نتيجة البتة مما هو من خصائص الاطعمة لافي شمن ولا شبع ولا الغناء

هذا الحب الذي يُخلق فطرةً على أنواع مختلفة متعددة حتى لا يخلو منه أحد فلا يعدل عنه ولا يحيص. وإنما هو في مظهره — أيها كان — دُرْبَةً للنفس الانسانية تصعدُ به درجاتٍ من الفضائل كالإخلاص والإيثار والاتصال الفكري والانبعاث الروحي والشوق الخيالي ونحوها مما هو في الحقيقة إيجادٌ للحياة النفسية في أعمالنا وفيضٌ بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملاسة بين الأرواح والأشياء والترابط بين الجاذب والمنجذب؛ وكل ذلك تهيئة للدين وعمله في النفس ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة. فالحب دينٌ على أسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به على وتيرةٍ واحدة إذ لا يرضى القلب في هذا ولا هذا غير رأي واحد فكيفما قلنا الحياة رأينا في كل جهة منها وجهاً من وجوه الإيمان وباعثاً من بواعثه وحكمة من فلسفته، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصورٍ ملوثة من الفرائز تطمس على الدين، هم الذين يرجعون بهذه الأمم في عاقبة الأمر إلى الحيوانية لأنه ليس في طبيعة النفس الا شيئان: هو هي دائماً أعظم منه وإيمان هو دائماً أعظم منها

من جوع، فما هو الا طعام منعكس لا إيجاد الجوع واستمراره، ثم وتسببه على ذلك «طعاماً» مع ان لهذه الكلمة في النفس عكس ذلك العمل يكون اشد على النفس في العذاب وفي التهم فتأمل كيف يكون الاعجاز

خطأ و صوابه

وقعت في الكتاب بعض أغلاط مطبعية ينبّه أكثرها

بنفسه الى نفسه وقد رأينا أن نصحح منها ما لا يحسن إغفاله

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
بكاءسه	٦٥	٨	بكأسه
وقا	٨١	١٨	وقد
السء	»	١٩	السماء
ق	٨٧	٤	في
تهراً	٩٣	٩	تهزأ
وباليت	٩٤	٢	وياليت
ولكنه يقع	١١٦	١٩	ولكنه لا يقع
واختيار	١٢٧	٤	واختبار
طففت	١٤٠	١٤	طففت
فَضُوح	١٤٣	٣	فَضُوح
قُتِلَته	«	٤	قَتَلَته
رب كلمة	١٥٩	٥	رب كلمة
صَرَفِ الكلام	١٦٠	٣	صَرَفِ الكلام

وأفشى	١١	١٦٤	وأفشى
فكان	١٨	١٦٩	فكان
لطعت	١٠	١٧٥	لطعت
بلغ ظلها	١١	١٨٩	بلغ ظلها
أياماً	١٠	١٩١	أياماً
من قنابدها	١٦	٢٣٧	قنابدها
نفخة	٧	٢٥١	نفخة
ليس في جنبه	٦	٢٥٥	في جنبه

ورقم (١) في شرح الصفحة ١٧٤ محله رقم (٢) وهذا في محل ذلك



فِي فَلْسَفَةِ الْجَسْمَانِ وَالْحُبِّ

السَّحَابُ الْأَحْمَرُ

كتابان أشرنا إليهما مراراً في هذه الطبعة من (المساكين)
ولم يبق منهما إلا نسخ قليلة تطلب من مكتبة الهلال بالعمالة
والمكتبة التجارية بأول شارع محمد علي والمكتبة السلفية بجوار
محكمة الاستئناف وثمن كل منهما ثمانية غروش غير أجرة البريد

أوراق الورد

✽ رسائلها ورسائله ✽

هذه هي الرسائل الغرامية الشعرية الفلسفية التي أومأنا إليها
في آخر (رسائل الأحرار) ووعدنا بنشرها وقد تطأ أرحام شاعر
فيلسوف وشاعرة فيلسوفة ولا نظير لها في كل ما كتب باللغة العربية.
وهي تتم رسائل الأحرار والسحاب الأحمر وبهذه الثلاث يتم كتاب
الجمال والحب . تصدر أوراق الورد في شهر الورد (مايو سنة ١٩٢٩) .

